كنوت همسون

الجـــوع

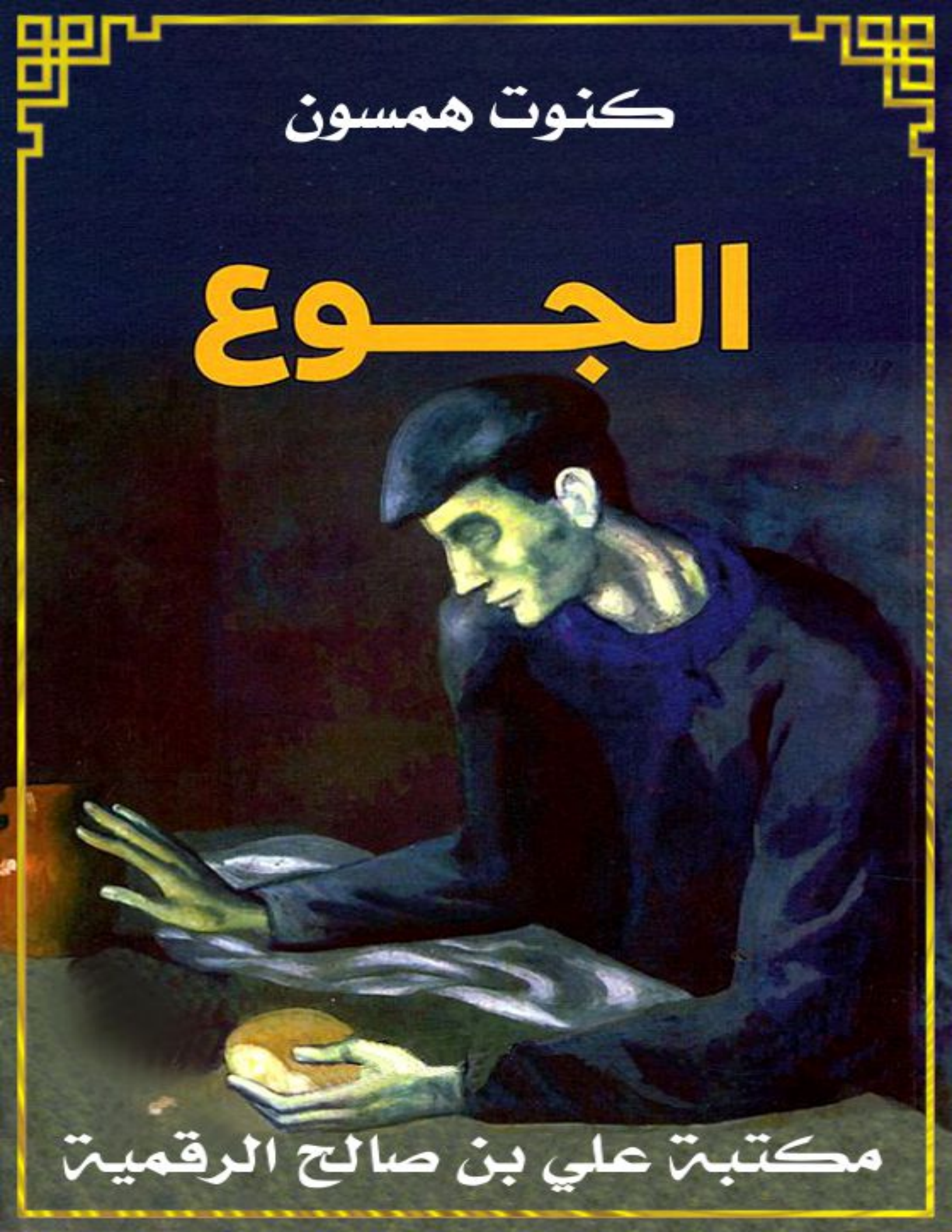

مكتبة علي بن صالح الرقمية

كنوت همسون

صرخة في سوهو

رواية

ترجمة: محمود حسنى العرابى

1890

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

تقدمة للقراء

هذا سبيل محتم سلوكه فى لوحة القدر. على كل عبقرىّ ونبىّ ومجاهد. فمنهم من يبلغ نهايته، ولم يزدد إلا يقينا برسالته، أو نضوجاً فى عبقريته، أو استمساكاً بمثله الأعلى، الذى من أجله يجاهد، فجاع وسيجوع؛ ومنهم من يعركه الجوع، فلا يلبث أن يطوى مرحلة أو بعضها من هذا الطريق الشائك، حتى تخور منه العزيمة، فيعود أدراجه نازلاً على إرادة السواد، ناهلاً نهلهم، زائغاً زيغهم عن الحق، أو يهدى حيث وصل، قرير العين بما بذل من نفس ونفيس.

ذلك أن العباقرة، هم طلائع الإنسانية نحو الكمال: يسبقون معاصريهم بأجيال وأجيال؛ فأنى لأُولئك المعاصرين أن يفهموهم أو يقدّروهم أو أن يستسيغوا ما يدعون إليه من آراء ومبادئ؛ والمعاصرين فى كلّ بلد وفى كلّ زمن عبيد تقاليد وأوضاع، أسرى مطامع وشهوات، ضحايا أنانية وغباء!..... لذا فهم أبد الدهر أعداء كلّ جديد ولو كان فيه خيرهم، يحاربونه بكل سلاح، مهما سفل؛ ولكن أدنأ أسلحتهم وأحطها، بل قل أبعدها عن كلّ ما يمت للإنسانية بصلة، ولست مبالغاً إن أسميته سلاح الوحشية المجسمة..... ذلك هو سلاح التجويع والتشريد.

عن هذا السلاح دبج هذه القصة الكاتب الاجتماعى العالمى "كنوت هامزن" ليست هذه القصة وليدة الخيال، بل قطعة من الحياة، ومرحلة من مراحل حياة كاتبها، صوّر فيها بعض ما لاقاه فى فجر حياته تصويراً واقعياً، فكأنى إذ أقرؤها أقضى مع كاتبها لياليه، ولا سقف يظلنى، ولا رداء يدثرنى، ولا طعام يسدّ رمقى، أطوى الطرقات مشياً، فى خبل أو ذهول، فى خور أو بورة، نهباً للأمل يعقبه اليأس، ولليأس يعقبه الأمل..... ليالى وأيام يتلو بعضها البعض، والجوع... الجوع يعركنى ويذهب بى كل مذهب..... فما الفضيلة. وما الكرامة، وما حرمة

الزوجية أمام براثن الجوع وأنيابه؟ وأخيراً ما هو المبدأ والضمير؟..... كم من دعاة دوّخهم الجوع، فرضخوا لسلطان المادة وآمنوا بنعيمها، فطووا المبادئ، ودفنوا الضمائر، وسايروا المجتمع ونزلوا إلى حضيضه، لم لا ينحو كاتبنا نحوهم؟ أهو خير من ڤاجنر، أو من أناتول فرانس، أو من جرهارد هاوپتمان؟ لم يتشبه بتولستوى، وبرومان رولان، وبشتيفان تسڤايج؟.....

أنا أفهم تماماً، لم فضل هامزن هذا الطريق الشائك: إنها العقيدة، الإيمان الثابت المتأصل بما يدعو إليه، بما لا يحلو للرأى العام سماعه أو قراءته، بما تخشى الصحف نشره - مع علمها أنه الحق - خشية إغضاب ذوى السلطان، خشية إعراض السواد؛ إيمانه بما سماه الكواكبى: "كلمات حقّ وصيحة فى واد؛ إن ذهبت اليوم مع الريح، فقد تذهب غداً بالأوتاد" إذن فليكن الجوع، وليكن العرى، وليكن التشرّد.

بين الكاتب والناقل جامعتان: جامعة التضحية... وجامعة الشقاء. فحسنى العرابى - ومن منا لم يقرأ عنه فى الصحف اليومية - مثله مثل هامزن بذل وضحى بما يملك، ثم شقى ولا زال يشقى.... كلّ ذلك من أجل العقيدة. فهل يأخذنا العجب، إذا ما وقع اختيار حسنى على هذه الباكورة من أعمال هامزن، ينقلها إلى شباب الشرق العربى؟ عرفت حسنى عن قرب، وأعرف أنه قاسى ويقاسى، كلّ ما فى هذه القصة من تجاريب وإحن؛ ومن ثم هذه الأمانة فى النقل، هذا الأسلوب الجارف الذى يملك عليك جماع حواسك حقاً، لقد كان حسنى ناقلاً أميناً، فلم يكسب القصة ثوباً من التصوير العربى، فيخرج بها عن جوها الاسكندناڤى، وتفكيرها الغربى، وفلسفتها الشمالية (كما يفعل البعض فيمسخون أعمال كبار كتاب الغرب)؛ بل لقد لازمها كلّ الملازمة، فى أسلوب عربى، وصياغة عهدناها فى حسنى لا تعتورها الركاكة.

فى غربته وفى كفاحه، فكر حسنى فى شباب العربية، وما ينتظره من أجيال جهاد، فنقل من أجله وحده هذا الإنجيل إلى العربية، عسى أن يجد فيه ذلك الشباب صلاته، عندما يوشك اليأس أن يطوح بالعزيمة. فما

ترى أنت صانع به، أيها الشباب؟ هل سيجد حسنى من إقبالك وحسن قبولك، ما فيه عزاء لوحشته؟

ليست بضاعة الأدب الراقى برائجة، فجمهورنا أميل إلى طلب اللهو منه إلى التماس الثقافة؛ فإذا كان الناشر - رغم إلمامه بهذه الحقيقة المرة - قد أقدم على تعهد هذه القصة، فلا أقل من أن نسجل له هذا الفضل، ثم الثناء والشكر.

دكتور عبد الفتاح القاضى

القاهرة فى 30 أغسطس سنة 1938

الفصل الأول

حدث هذا فى تلك الأيام التى كنت أتنقل فيها فى مدينة كرستيانيا (Christiania) أتضور جوعًا، تلك المدينة العجيبة التى ما غادرها أحد قبل أن يوسم منها بسمة ما....

كنت راقدًا فى غرفتى العليا متيقظًا، فسمعت الساعة فى الدور الأسفل من البيت تدق ست دقات. وكان الصبح قد تنفس، وأخذت الناس تدب على السلم صعودًا وهبوطًا. وعلى مقربة من باب غرفتى المورقة حيطانها بصحائف من جريدة "المورجنبلاط" (Morgrnblatt) العتيقة، أمكننى أن أبصر، فى وضوح، إعلانًا لمدير المنارة، وعن يساره بقليل إعلانًا بالخط الكبير للخباز "فابين أولسن" (Fabian Olsen) يعلن خبزه الطازج.

وعندما فتحت عينى. أخذت أفكر على عادتى: هل أوفق فى يومى هذا إلى شئ يسرنى؟ فقد ساءت أحوالى فى الأيام الأخيرة جدًا، حتى اضطررت إلى نقل كل ما فى حوزتى إلى "العم" الواحد بعد الآخر، وانقلبت عصبيًا ضيق الصدر، وكم من مرة اضطرنى الدوار أن ألبث فى الفراش يومًا كاملًا. وكنت إذا ساعدنى الحظ أحصل - بشق النفس بين الفينة والفينة - على خمسة ريالات، ثمنًا لفصل أدبى أكتبه لإحدى الصحف.

ووضح الصباح وانبلج نوره، فأخذت أقرأ الإعلانات التى عند أسفل الباب، وتمكنت حتى من قراءة الحروف الدقيقة لإعلان "أكفان الموتى"، عند الفتاة أندرسن (Andersen) عن يمين الداخل، وقد استغرقت قراءته منى وقتًا طويلًا، فسمعت الساعة فى الدور الأسفل تدق ثمانيا قبل أن أنهض وأرتدى ملابسى.

فتحت النافذة وأطللت منها، فأبصرت من مكانى حبلًا للغسيل، وحقلًا فسيحًا، وعلى بُعد أبصرت بعض العمال ينقلون بقايا حانوت حداد قد احترق, اتكأت على مرفقى فى النافذة، وأمعنت النظر فى الفضاء، وكان يومًا مشرقًا حقًا، فقد وافى الخريف، ذلك الفصل الرطب الرقيق، الذى تتبدل فيه الألوان وتنصل، وابتدأت الشوارع تعج بالأصوات، مما حبب إلى الخروج إلى الخلاء، فلقد كانت هذه الغرفة الخاوية التى تهتز أرضها عند كل خطوة أخطوها فيها جيئة أو ذهوبًا، أشبه بتابوت رطب موحش، فلم يكن بها موقد، وكان قفلها معطلًا. وكنت تعودت أن أبقى فى الليل بجوربى حتى يجف فى الصباح بعض الجفاف، وكانت غبطتى الوحيدة فى كرسى هزاز أحمر صغير، فعليه كنت أجلس فى المساء أحلم وأفكر فى كل شئ، وكانت الريح كلما هبت بشدة، تفتحت أبواب الطبقة الدنيا، وسمع لها صرير عجيب مختلف، يخترق الأرض والحيطان، فيصيب جريدة (الصباح) عند الباب، فى أسفل الغرفة، فيحدث بها فرجات بقدر كف اليد.

انتصبت واقفًا، وأخذت أبحث فى حزمة فى الزاوية بجانب السرير، لعلى أجد فيها فضلة طعام للفطور، ولكنى لم أجد بها شيئًا، فعدت أدراجى إلى النافذة.

وقلت فى نفسى: الله وحده يعلم هل يثمر بحثى عن عمل فى يوم من الأيام ولو بعض الثمر؟ فقد أضعف همتى ذلك الرفض المتكرر، والوعود الخلابة التى لا تُحقق، والآمال الكاذبة، والأمانى الخائبة، والمحاولات الجديدة التى كانت تنتهى فى كل مرة بالحرمان. وكنت قد بحثت فى المدة الأخيرة عن عمل كساع، ولكنى تأخرت عن الحضور فى الموعد المضروب؛ وفوق هذا لم يكن فى مقدورى الحصول على قيمة الضمان المطلوب، وهو خمسون ريالًا. وهكذا كنت اصطدم على الدوام بهذه العقبة أو بتلك. قدمت طلبًا إلى فرقة المطافئ، واصطف الطالبون فى صحن الدار، وكنّا خمسين رجلًا، فأخذ كل منا ينفخ صدره، لنظهر بمظهر القوة والجرأة العظيمة، وجال بيننا الوكيل، وأخذ يفحص عن حال الطالبين بعينيه، ويجس أذرعتهم، ويوجه لهم هذا السؤال أو ذاك، ومر بى، وهز رأسه قائلًا: إنى لا أصلح للعمل، لأننى أضع منظارًا على عينى، فعدت إليه مرة أخرى بغير منظار، ووقفت مقطبًا حاجبى، مرهفًا ناظرى

كالنصل، وعاد الرجل فمر بى وابتسم، فقد عرفنى، وشر الأمور كلها أن ملابسى كانت قد رثت، ولم يعد فى مقدورى أن أظهر فيها بمظهر يليق برجل محترم يبحث عن عمل.

ومن عجب أن الأيام كلها أخذت تنتقل بى من سيّئ إلى أسوأ، حتى ضقت ذرعًا بحالتى فى النهاية، وأضحت يدى صفرًا من كل شئ، فلم يبق لدى مشط، ولا عندى كتاب أقرؤه، لأشغل نفسى به عن التفكير فى سوء حالى. وأمضيت الصيف كله نازلًا إلى ساحات الكنيسة، أو صاعدًا فى حديقة القصر، حيث كنت أجلس أعد مقالات للصحف، فأكتب نهرًا بعد نهر فى مختلف الشؤون، وحول الاختراعات العجيبة، والفكاهات البريئة، وتخيلات مخى المضطرب، وفى حالات اليأس كنت أتخير للكتابة موضوعات غير مطروقة، كانت تكلفنى من المجهود ساعات طوالًا، ويكون نصيبها بعد ذلك الرفض. وكلما انتهيت من كتابة فصل، بدأت الهجوم على آخر، وقلما أوهنت عزيمتى كلمة "لا" من رؤساء التحرير، وكنت أقول لنفسى: لابد أن يتحسن الحال يومًا ما. وكنت إذا حالفنى حسن الحظ ، وكُتب لى التوفيق، أحصل على خمسة ريالات أجر لجهد عصر يوم من الأيام.

عدت أدراجى من النافذة، واتجهت نحو الكرسى الذى عليه المغسل، وبللت ركبة سروالى اللامعة بقليل من الماء، كى أكسبها شيئًا من السواد، وأجعلها تظهر بمظهر الجدة. وبعد أن فعلت هذا دسست فى جيبى كعادتى قلم رصاص وورقًا وانصرفت؛ ولكى لا أسترعى نظر صاحبة الدار إلى انسللت بخفة فى السلم، فقد كان مضى يومان على استحقاق كراء الغرفة، ولم يكن فى يدى شئ لأدفعه.

وكانت الساعة التاسعة، وقد امتلأ الجو بجعجعة العجلات وبالضجيج، وقد اختلط وقع أقدام المارة بأصوات سياط الحوذية، فكان منها ترنيمة صباحية عجيبة، ونبهتنى جلبة هذه الحركة القائمة فى كل مكان، وابتدأت أشعر بتزايد السرور، ولم يكن لقوة ما أن تقصى الأفكار عنى، إلا رياضة صباحية فى الهواء الطلق. وماذا عسى يفيد الهواء رئتى؟ وأنا كنت، شديد القوة، إذ كان فى مكنتى أن أعطل سير عربة بمنكبى، وقد

تملكنى شعور ظريف عجيب، وهو إحساس عدم الاكتراث، فأخذت أرقب الناس الذين أقابلهم والذين أمر بهم، وأقرأ إعلانات الحيطان، وأتلقى وقع نظرات ركاب "الترام" المار بى، وأدع كل صغيرة تتغلغل فى نفسى، ولو كانت من أصغر الأشياء، التى تقع فى طريقى وتختفى.

ليت لدى القليل من الطعام لآكله فى مثل هذا اليوم العظيم! فقد ترك فى هذا الصباح أثراً عظيماً، فاغتبطت نفسى اغتباطاً لا مزيد عليه، وابتدأت من فرط السرور أدندن ولا أشعر، وقد وقفت أمام حانوت قصاب امرأة فى ذراعها سلة، تتأمل "المقانق"، تريدها طعاماً لغدائها، ونظرت إلى عند مرورى بها، ولم يكن فى فمها غير سن واحدة فى المقدمة، ولما كنت فى الأيام الأخيرة حديد المزاج، سريع التأثر، فقد ترك وجه هذه المرأة فى نفسى أثراً سيئاً. فقد كانت هذه السن الصفراء الطويلة أشبه بإصبع صغيرة نتأت من الفك العظمى. وعندما التفتت إلى كانت نظراتها مشبعة بالمقانق، ففقدت شهوتى دفعة واحدة، وأحسست ضيقاً. ولما بلغت السوق قصدت النافورة، وشربت قليلاً من الماء، ونظرت فى ساعة الكنيسة، فإذا هى العاشرة.

واستأنفت مسيرى فى الشوارع لا ألوى على شئ، وخليت الأمور تجرى فى مجاريها، كما خليت الصباح المبهج يحملنى إلى حيث شاء، أروح وأغدو وأنا خلو من الهموم، أترنح بين غيرى من التاعسين، وكان الجو خالصاً وصحواً، فراقت نفسى، فلا كدورة فيها.

وتقدمنى شيخ أعرج، سار أمامى نحو عشر دقائق، وكان يحمل حزمة فى يده، وقد انطلق مدفوعاً بكل جسده، باذلاً ما فيه من قوة ليسبقنى، ورأيته يلهث من النصب، فخيل إلى أن أحمل عنه حزمته. وفى شارع جرنزا (Granza) لقيت هانزبولى (Hancpauli) فحيانى مسرعاً، فقلت فى نفسى: ترى، لماذا يسرع هكذا فى خطاه؟ وفاتنى أن أسأله ريالاً، كما فاتنى أن أعيد إليه فى أقرب فرصة غطاءه الذى كنت استعرته منه منذ بضعة أسابيع، واعتزمت فى نفسى ألا أكون مديناً لأى مخلوق بغطاء، عندما تتحسن حالى قليلاً، وربما ابتدأت اليوم فى كتابة مقال عن جرائم المستقبل، أو عن حرية الإرادة، أو أى شئ آخر، شئ ذى قيمة، أحصل من

ورائه على عشرة ريالات على الأقل، وبالتفكير فى هذا المقال أحسست نفسى مرة واحدة أريد الفرار من الزحام، لأبدأ العمل فى الحال، وأغترف من رأسى المملوء، وأنه لا يهدأ لى بال حتى أنتهى من تحبيره.

ولكن ذلك الشيخ الذى كان يتقدمنى على طول الطريق، كان لا يزال يقوم بتلك الحركات الملتوية. فابتدأت فى النهاية أتضايق من سير هذا الرجل العاجز أمامى طول الوقت، وبدت لى رحلته كأنها لا نهاية لها. وقد يكون هو الآخر قد اعتزم نفس المحلة التى أقصدها، فكأنه قد كتب على أن يقع ناظرى عليه طول الطريق، وخيل إلى فى ثورة غضبى أنه يتريث مترددًا عند مفترق كل طريق، ليرى الطريق الذى سأسلكه، ومن ثم يعود فيطوح بحزمته عاليًا فى الهواء، ثم يندفع فى المسير بكل قوته ليلحق بى. وكلما جددت فى المسير رأيت هذا المخلوق الكسيح. فملأ الحنق صدرى، وشعرت أنه أخذ يفسد على بالتدريج صفو مزاجى، وأن هذا الصباح الجميل الصافى قد انقلب دفعة واحدة صباحًا بشعًا، فقد بدا لى الرجل كحشرة ضخمة كسيحة تريد أن تنفذ بالقوة والإكراه إلى مكان فى العالم، وأن تقصر عليها وحدها رصيف الشارع. ولما بلغت المرتفع لم أشأ أن أترك الأمر يسير إلى أبعد من هذا، فقصدت نافذة أحد الدكاكين، وبقيت هناك واقفًا، كى أعطيه فرصة يبتعد فيها عنى. ولكنى لما هممت بعد انقضاء بضع دقائق أن أستأنف سيرى، وجدت الرجل مرة أخرى أمامى، وكان كأنه قد سمر فى مكانه، فتقدمت بدون وعى ثلاث خطوات أو أربع، حتى لحقت به، وضربته على منكبه، فتوقف دفعة واحدة وتفرس كلانا وجه صاحبه.

وأخيرًا قال الرجل وقد أمال رأسه إلى ناحية: "شلنًا أشترى به لبنا". فسقط فى يدى، وأخذت أبحث فى جيوبى، ثم قلت:

"للبن، إى نعم، يظهر أن مسألة النقود فى هذه الأيام عسيرة، ولا أدرى مقدار حاجتك إليها".

فقال الرجل: "لم أذق فى درامن (Drammen) طعامًا منذ أمس، ولا أملك فلسًا واحدًا، وفوق هذا فإنى لا أجد عملًا.

"أصانع يدوى أنت؟".

"نعم أنا صانع إبر".

"ماذا؟".

"صانع إبر، وأستطيع كذلك أن أصنع الأحذية".

فقلت له: "إن هذا قد غير وجه المسألة، انتظرنى هنا بضع دقائق، وسآتيك بشئ من النقود".

واتجهت منحدراً بسرعة فائقة فى شارع بيلا (Pile straede)، حيث كنت اعرف محلًا للتسليف على رهن فى الطبقة الثانية، ولم يكن سبق لى دخوله، وعندما وطئت عتبة الدار خلعت صدارى بأسرع ما يمكن وطويته، ثم أخفيته تحت ذراعى، وصعدت فى السلم، ودققت باب الغرفة، ثم انحنيت، وألقيت بالصدارى على خوان المحل.

فقال الرجل: "ريال ونصف ريال".

فأجبته: "نعم، نعم، أشكرك. ولولا ضيق ذات يدى لما أحببت أن أفارق صدارى". وأخذت النقود والإيصال، وعدت أدراجى.

ولا ريب أن فكرة الصدار كانت فكرة بديعة، فسيبقى لدى نقود للحصول على فطور سخى، وسيكون فى مقدورى حتى المساء أن أنتهى من كتابة مقالى عن جرائم المستقبل. ومن ذلك الوقت ابتدأت أهش للحياة، وأسرعت عائداً للرجل، لأتخلص منه.

قلت له: "تفضل فخذ هذا، وإنى لمسرور جد السرور أنك قصدتنى قبل أن تقصد غيرى، ترى، ماذا جعله يقف مكانه يتأملنى؟ ودخل فى ذهنى أنه يتأمل بصفة خاصة ركبة سروالى، فآلمتنى هذه الوقاحة، أويظن هذا الوغد أنى فقير بحق إلى هذا الحد الذى ينبئ عنه مظهرى؟ أو لم أبدأ كتابة مقال تقدر قيمته بعشرة ريالات؟ أنا لا أخشى المستقبل البتة، فالمادة لدى موفورة. وماذا عسى يهم غريباً عنى أن كنت أتفضل بشئ من النقود فى يوم صحو كهذا اليوم؟ إن نظرة ذلك الرجل تضايقنى، ولذا صممت على تأنيبه قبل أن أغادره، فهززت كتفى وقلت له:

"إن فيك يا عزيزى خصلة قبيحة، وهى تحديقك فى ركبة من يعطيك ريالًا".

فألقى الرجل برأسه إلى الحائط، وفغر فاه، وتضاربت الأفكار فى رأس هذا السائل، وغلب عليه الظن أنى ربما أردت بهذه الطريقة أو تلك أن أهزأ به، فناولنى قطعة النقود ثانية.

فضربت الرصيف بقدمى، وسببت وصخبت. إذ كان لابد للرجل من الاحتفاظ بالنقود. أويحسب أنى أردت أن أكابد كل هذه المشاق عبثًا؟ الخطب يسير، ليفترض أنى مدين له بريال، وأنا بطبيعتى أذكر ما على من الديون القديمة، وهو إنما يقف أمام إنسان شريف صادق حتى أخمص قدمه. وبالاختصار، فقد تكون هذه النقود نقوده.... آه، عفوا! لا محل للشكر، لقد كان لى فى هذا العمل سرور عظيم. إلى الملتقى.

وأخذت طريقى بعد أن أبعدت هذا المشلول الكريه عنى. وبذا صار فى مكنتى أن أبقى فى أمن وسلام. واستأنفت السير فى شارع بيلا (Pile straede)، ثم توقفت أمام حانوت بدال، وكانت نافذته ملأى بالأغذية، فاعتزمت اقتحامه، لأتزود منه فى طريقى بعض الطعام.

وألقيت بنصف ريالى على المائدة قائلًا: قطعة جبن، وقرصًا من الخبز الفرنسى.

فسألت المرأة متهكمة، وبدون أن ترفع نظرها إلى: تريد خبزًا وجبنًا بالمبلغ جميعه؟

فأجبتها بدون تلعثم: نعم، بالخمسين (أورا) كلها.

وتناولت حاجتى، وحييت العجوز البدينة بغاية الأدب، وأخذت طريقى صاعدًا إلى مرتفع القصر فى البستان، فألفيت مقعدًا غير مشغول يسعنى وحدى، فبدأت أتناول الطعام بشره، وقد أفادنى ذلك كثيرًا، فقد مضى على زمن طويل لم أتمتع فيه بغذاء وفير كهذا، وأخذت أحس بالتدريج ما يحسه الواحد من الطمأنينة الكاملة بعد طول البكاء، وأخذت شجاعتى تترعرع وتقوى، ولم يعد يكفينى أن أكتب مقالًا واحدًا عن أمر تافه بدهى كمقال "جرائم المستقبل"، الذى فضلًا عن أنه فى استطاعة كل

واحد أن يحذره وحده، فإن فى الطاقة استخراجه من بطون التاريخ، شعرت أنى كفؤ للقيام بمجهود أعظم، وأحسست فى استعداداً للتغلب على الصعاب، فعقدت العزم على تنميق مقال من ثلاثة فصول، عن "المعارف الفلسفية"، فيه سأجد بالطبع فرصة لتفنيد مزاعم "كانط" (Kant) تفيداً مؤلماً، وما كدت أخرج أدوات الكتابة، وأبدأ العمل حتى عرفت أن قلمى الرصاص ليس معى، فقد نسيته فى محل الرهون، حيث خلفته فى جيب صدارى.

ياللّه كيف تنعكس الأمور معى! أخذت أسب وأصخب. ثم نهضت من مقعدى، وصرت أغدو وأروح فى الطرقات، وقد كان كل شئ ساكناً، وعلى مسافة هناك بعيدة من دار ملهى الملكة، كانت تجول مربيتان بعربتى طفلين، ولم يكن يرى إنسان غيرهما فى الطريق، وتملكنى الحنق فى الصميم.

فأخذت أروح وأغدو أمام مقعدى. أوليس عجيباً انعكاس الأمور من كل ناحية! مقال من ثلاثة فصول، تكتب له الخيبة لأوهن الأسباب، لمجرد أنى لا أملك قطعة قلم رصاص، من فئة العشرة أورات! لو أنى أعود إلى شارع بيلا (Pile straede) فأسترد قلمى! فسيبقى لدى برغم ذلك وقت كاف لإنجاز جزء كبير من المقال، قبل أن يبدأ البستان يغص بالمستريضين، فعلى مقال "المعارف الفلسفية" هذا تتعلق أمور كثيرة، فمن يدرى فلعله من حظ كثير من الناس. وقلت فى نفسى: ربما كان فيه عون عظيم لبعض الشبان. ولما تدبرت الأمر لم أجدنى فى حاجة لمهاجمة "كانط" (Kant)، ففى الإمكان اللف حوله، ولست فى حاجة عند معالجة مسألة الزمان والمكان إلا إلى عمل دورة غير ملحوظة. أما "رينان" (Renan) فإن لم أكن أحب أن أويده، لأن "رينان" (Renan)القس الريفى العجوز...

على أية حال، كان من الضرورى إعداد مقال من كذا من الأنهر؛ فكراء الغرفة الذى لم يدفع بعد، ونظرة صاحبة الدار الطويلة فى الصباح، عندما ألقاها على السلم، كانا يعكران صفوى طول النهار، ويطفوان فى ساعات ابتهاجى إذا ما خلى رأسى من الأفكار السوداء، فكان من الضرورى

وضع حد لهذه الحال، فهرولت مسرعًا من البستان، لأسترد قلمى الرصاص من دار الرهون.

وعندما نزلت من مرتفع القصر التقيت بسيدتين، وبمرورى عليهما لمست كم إحداهما، فإذا هى ذات وجه ممتلئ شاحب بعض الشحوب، فاحمرت وجنتاها فجأة، فبدت آية فى الجمال، ولم أدر سببًا لذلك؛ ربما كان ذلك لسماعها كلمة من أحد المارة، وربما كان لمجرد فكرة هادئة جالت فى نفسها، أو لعله لسبب لمسى ذراعها؛ وأخذ صدرها المرتفع يعلو ويهبط بشدة عدة مرات، وتشبثت يدها بعصا المظلة، فيا ترى، ماذا حدث لها؟

بقيت واقفًا فى مكانى. وخليتها تتقدمنى. ولم أكن فى تلك اللحظة قادرًا على المسير، فقد كانت كل هذه الأمور غريبة بالنسبة لى، وكنت هائج الخاطر، ناقمًا على نفسى، بسبب حادث قلم الرصاص، كما كنت فى غاية الاضطراب من جراء مقدار الطعام الذى التهمته ومعدتى خالية. وفجأة خطر لى خاطر عجيب، أحسست فى نفسى رغبة شديدة فى مضايقة هذه السيدة، باقتفاء أثرها، وإغضابها بأية وسيلة، فعدت، ولحقت بها، وجاوزتها، وكررت بغتة عائدًا، فلاقيتها، ثم واجهتها وجهًا لوجه كى أتأملها، وقفت وحدقت فى عينيها، واستنبطت لها فى الحال اسما لم أسمع به من قبل، اسمًا خفيفًا ذا وقع عصبى: يلا يالى (Ylayali) ولما اقتربت منى نصبت قامتى، وقلت لها فى تطفل: أيتها الآنسة، قد فقدت كتابك.

وما كدت ألفظ هذا حتى سمعت دقات قلبى.

فقالت لرفيقتها: "كتابى"، ثم استأنفت المسير.

فازداد حنقى عليها، واقتفيت أثرهما، وكنت واثقًا أنى أمزح فى هذه اللحظة مزاحًا سخيفًا، وأن لا سلطان لى على ضبط نفسى، فقد جعلنى ارتباك أحوالى جموحًا، وأوحى إلى أسخف الخواطر، التى كنت أستمع إليها واحدًا بعد واحد. ومع أنى اعترفت فى قرارة نفسى بأن مسلكى معيب، فإنى كنت على الرغم من ذلك أعوج وجهى من وراء ظهر السيدة، وكلما مررت عليها سعلت عدة مرات بشدة. وعلى هذا النحو سرت أمامها متلكئًا، وبيننا بضع خطوات، فأحسست عينيها مصوبتين فى ظهرى،

فانحنيت بدون وعى من الخجل، لمضايقتى لها، وبالتدريج شملنى إحساس غريب، وهو الرغبة فى الابتعاد، والتحول إلى مكان آخر. فقد أدركت بعض الإدراك أنى لست بالذى يسير على رصيف الطريق مطأطئ الرأس.

وبعد مضى دقائق بلغت السيدة مكتبة الباشا (Pacha)، وكنت قد وقفت بالفعل عند أول نافذة بلغتها، فلما مرت بى تقدمت إليها، وأعدت عليها قولى:

"أيتها الآنسة، قد فقدت كتابك".

فقالت غاضبة: "لا، أى كتاب؟ أتعرفين عن أى كتاب يتكلم؟". ثم وقفت فى مكانى وقد تولانى سرور وحشى لارتباكها، وسحرتنى هذه الحيرة فى عينيها، ولم يقو ذهنها على فهم عبارتى المتواضعة، فلم يكن معها كتاب بالمرة، حتى ولا ورقة من كتاب، ومع ذلك أخذت تبحث فى حقيبتها، وأعادت النظر إلى يديها، وأدارت رأسها، ونظرت إلى الشارع من ورائها، وأجهدت رأسها الصغير السريع التأثر كل الإجهاد، لتعرف عن أى كتاب اتكلم، وأخذ لون وجهها يتبدل، فظهر عليه التأثرات المتتابعة، وأخذت تتنفس تنفساً مسموعاً، وبدت لى الأزرار التى على ثوبها، كصف من العيون الواجفة تحدق فى.

فقالت لها رفيقتها: "دعيه وشأنه"، وجذبتها من ذراعها: "إنه ثمل، أولم تلاحظى أنه سكران؟".

ومع أنى كنت فى تلك اللحظة غريباً حتى عن نفسى، وفريسة لتأثرات غير ملحوظة، فقد تحققت من كل شئ مر بى، فقد قفز كلب أسمر كبير فى عرض الشارع، قبالة المتنزهات، وخلف تيفولى (Tivoli) وكان له طوق من المعدن المفضض، ورأيت هناك على بعد فى أعلى الطريق نافذة مفتوحة، فى الدور الثانى، وقد استندت إليها من الخارج فتاة كشفت عن ذراعيها، تنظف ألواح الزجاج، لم يفتنى شئ، فقد كنت صافى الذهن حاضره، فكان كل شئ أمامى واضحاً جلياً، كما لو كان قد تفجر نور قوى حولى بغتة، وكان للسيدتين اللتين تسيران أمامى ريش على قبعتيهما، ورباط حريرى مخطط حول العنق، وخيل إلى أنهما شقيقتان.

وانعطفتا ثم توقفتا عند دكان الموسيقى إيزلر (Eislers)، وأخذتا تتحدثان معاً. فوقفت أنا الآخر فى مكانى، فعادتا فأخذتا نفس الطريق الذى جاءتا منه، ومرتا بى، ووقفتا قليلًا عن ناصية شارع الجامعة، ثم سارتا تواً إلى ميدان القديس أولافس (St. Olafs-Platz) ولزمتهما طول الوقت على أعقابهما، فالتفتتا إلى مرة، وأرسلنا إلى نظرة فيها شئ من الوجل، وشئ من التساؤل، ولم ألحظ على وجهيهما أثراً للغضب أو التجهم، فجعلنى هذا الصبر الجميل على مضايقتى لهما، أطرق برأسى من شدة الخجل، ولم أشأ مضايقتهما أكثر من ذلك، ولكنى أردت على سبيل الشكر الخالص أن أتبعهما بالعين وحدها، بحيث لا تغيبان جملة عن ناظرى، وإلى أن تدخلا فى أحد المحال، وتختفيا عنى.

وقصدتا مرة أخرى المنزل رقم 22 وهو منزل كبير من ثلاث طباق، ثم ولجتا فيه، فاتكأت على عمود مصباح قرب النافورة، وأصغيت إلى وقع أقدامهما على السلم حتى خفى وهما فى الدور الأول، ثم ابتعدت عن المصباح، وتطلعت إلى الدار، وهنا حدث أمر غريب، فقد رفعت الستائر، وفتحت النافذة، وأطل منها رأس، فوقعت على عينان مشرقتان عجيبتان، فقلت بصوت منخفض بعض الانخفاض: يلا يالى (Ylayali) وشعرت بالحمرة قد علتنى، ترى، لماذا لا تدعو إلى النجدة؟ أو تلقى بأصيص الزهر على، حتى يقع على رأسى؟ أو تبعث إلى بأحد ليطاردنى؟ ثم وقفنا ينظر الواحد فى عين أخيه بدون حراك، واستمر هذا دقيقة، وانطلقت الأفكار بين النافذة والشارع، هنا وهناك بدون أن نلفظ كلمة واحدة. ثم تحولت إلى ناحية أخرى، فانتفض جسدى، فقد أصابتنى طعنة رقيقة فى رأسى، رأيت الكتف التى أدارتها ورأيت الظهر الذى اختفى فى الغرفة. إن هذا التحول عن النافذة، وإشارة التوكيد هذه التى كانت فى حركة كتفها، كانا لى بمثابة إيماءة، فقد استمعت نفسى إلى هذه التحية الرقيقة، وانشرح صدرى فى الحال، فتحولت من مكانى وأخذت طريقى.

ولم أقو على معاودة النظر، ولم أدر أكانت قد غادرت مرة أخرى إلى النافذة؟ وكلما فكرت فى هذه المسألة تزايد قلقى، وهاجت أعصابى، وأكبر الظن أنها كانت واقفة فى تلك اللحظة عند الشباك، تتبع حركاتى تماماً، وأن تعرف أنك مراقب من وراء ستار أمر لا يطاق بأية

حال، فاستجمعت قوتى بقدر ما استطعت واستأنفت المسير. فابتدأت ساقاىَ تلتويان، وأصبح مَشْيى غير متزن، لأنى تعمدت أن أجعله متناسقًا، وحتى أظهر بمظهر المطمئن غير المكترث، جعلت أطوح ذراعى بدون وعى، وأبصق فى الشوارع، ألقى برأسى إلى الوراء، ولكن كل هذا لم يفدنى شيئًا، فكنت أحس على الدوام العينين اللتين تتبعانى من وراء، فسرت البرودة فى جسمى. وأخيرًا أنقذت نفسى بالدخول فى شارع مجاور، ومنه أخذت طريقى إلى شارع بيلا (Pile straede)، أقصد حصولى على قلمى الرصاص.

ولم أحتج إلى كبير عناء فى استرداده، فقد أحضر لى الرجل بنفسه الصدار، ورجانى أن أتفقد جيوبه كلها، فوجدت بها كذلك بعض إيصالات رهون، فدسستها فى جيبى، وشكرت لهذا الرجل الأنيس حسن مجاملته، واشتد إعجابى به، وأهمنى بغتة أن أترك فى نفسه أثرًا خاصًا طيبًا، فاتجهت إلى الباب، ثم عدت ثانية إلى خوان المحل، كما لو كنت نسيت شيئًا، فقد تصورت أنى مدين له بعمل بيان، فابتدأت أدندن، لأستلفت نظره، ثم تناولت قلم الرصاص فى يدى، ورفعته عاليًا فى الهواء، وقلت: إنه ليصعب على أن أدرك أن بعضهم يقطع طريقًا بعيدة من أجل بقية قلم رصاص. ولكن لهذا القلم شأنًا آخر، شأنًا آخر تمامًا، ومهما بدا لك تافهًا، فإن قطعة قلم الرصاص هذه قد عملت فى ما تراه، وهيأت لى كذا مكانى فى الحياة.

ولم أزد حرفًا فاقترب الرجل من المائدة.

وأخذ يفكر وهو ينظر إلى ويتأملنى "كذا، كذا؟".

فاستأنفت الحديث فى هدوء: وبهذا القلم كتبت مقالتى عن "المعارف الفلسفية" فى ثلاثة مجلدات، ولعله سمع بحديثها؟

خيل إلى الرجل بالفعل انه سمع بهذا العنوان.

فقلت: نعم هذا من قلمى هذا! ولا محل للعجب إذن إذا أنا أردت استعادة بقية قلم الرصاص هذه، إذ أن لها قيمة كبيرة فى نظرى. فهى عندى تقريبًا بمثابة طفل صغير، بقى على أن أشكر لك رقتك مخلصًا، وسأذكر هذا لك دائمًا، وسأذكره لك بحق فأنا رجل شريف، وإنك لتستحق الشكر، فإلى الملتقى.

وسرت إلى الباب بقدم ثابتة، كما لو كان فى يدى أن أقلده وظيفة عالية. وما كدت أفارقه حتى حنى المرتهن الأنيس رأسه أمامى مرتين، فالتفت إليه مرة أخرى وقلت : إلى الملتقى.

والتقيت فى السلم بامرأة تحمل فى يدها حقيبة سفر، فانتحت جانبًا فى وجل، كى تفسح لى الطريق، لأنى كنت أمشى متعجرفًا، فدسست يدى فى جيبى بدون وعى لأعطيها شيئًا، ولما لم أجد شيئًا غضضت من كبريائى، ومررت بها خافضًا جناحى، وبعد قليل سمعتها تدق على الغرفة؛ إذ كان على الباب شبكة من الأسلاك، فتعرفت فى الحال على رجع الصدى الذى يحدثه عندما تلمسه عقدة أصبع.

وكانت الشمس قد وقفت فى الجنوب، وكانت الساعة حوالى الثانية عشرة، وابتدأت المدينة تقف على قدمٍ وساق، واقتربت ساعة الاستراحة، وأخذ المسلمون والضاحكون يروحونَ ويجيئون فى شارع كارل يوحنا (Karl- Yohann) فضممت معصمى إلى، وأصغرت من نفسى، وانسللت غير ملحوظ من بعض معارفى، الذين كانوا يشغلون إحدى نواحى شارع الجامعة، لملاحظة السابلة، وصعدت مرتفع القصر، وغرقت فى بحر أفكارى.

كل هؤلاء الناسِ لقيتهم يحركون رؤوسهم الفارغة من الهموم فى رفق ومرح، ويترجّحون فى الحياة كما لو كانوا فى مرقص، ليس للهم أثر فى عيونهم، لا ولا على أكتافهم عبء ما، بل ربما لم تسر فى خواطرهم أية فكرة محزنة، ولا أثر لأدنى ألم فى أحد هذه النفوس المطمئنة. هناك سرت ملاصقًا لهؤلاء الناس، وأنا فى مَيْعَة الشباب، لم تكد تتفتح زهرة حياتى وإن كنت قد نسيت كيف تكون السعادة، ودارت هذه الأفكار فى خلدى، فوجدت أن ظلمًا صارخًا قد حاق بى. ألا ليت شعرى لماذا قست على الشهور الأخيرة كل هذه القسوة؟ ولم أعد أحسن التفكير فقد كنت أكابد من كل ناحية أشد الآلام. ولم يعد فى طاقتى أن أجلس وحدى على أحد المقاعد، أو أن أتحرك إلى أية ناحية، بدون أن تقع حوادث صغيرة تافهة، صغائر مؤلمة، تنفذ إلى فكرى، فتمزق قواى كل ممزق. فكلب ينسل من جانبى، أو وردة صفراء فى عروة رجل، كانا كافيين لإثارة خاطرى، ويأخذان من وقتى زمنًا طويلًا. ترى ماذا

يضايقنى؟ أو كانت تعنينى المقادير؟ ولماذا أكون المعنى منها وحدى؟ ولماذا لا يكون رجل آخر فى أمريكا الجنوبية مثلًا إذا كان لابد من ذلك؟ تدبرت هذه الأمور جيداً، فرأيتنى عاجزاً عن إدراك سر وقوع اختيار المقادير على وحدى كمحك لبلائها، والحق أن من الغرابة بمكان تخطيها للعالم بأسره لتصل إلى، مع أن الباشا (Pacha) بائع الكتب القديمة، وهينيشن (Hennedhen) الشحان لا يزالان على قيد الحياة مثلًا.

فاستأنفت المسير أفكر فى هذه الأمور، فلم أستطع إدراكها إذ نهضت لى البراهين الدامغة على ظلم القدر لى بجعلى أدفع ثمن جرم الجميع، وحتى بعد أن وجدت مقعداً جلست عليه عادت إلى هذه المسألة تشغلنى وتعوقنى عن التفكير فى أى شئ آخر، ومنذ ذلك اليوم الذى ابتدأت فيه آلامى فى شهر مايو، أخذت ألحظ ضعفى يتزايد بوضوح يوماً بعد يوم، وبت أضعف من أن أضبط نفسى أو أقودها إلى حيث أريد، ونفذت طائفة من الجراثيم الصغيرة المؤذية إلى قرارة نفسى، وطفقت تفسد فيها. وإذا كان قد جرى فى علم الله أن يقضى على القضاء المبرم، فليت شعرى كيف كان ذلك؟ انتصبت واقفاً، وأخذت أسير أمام مقعدى جيئة وذهوباً.

وبلغت نفسى فى تلك اللحظة أشد درجات العذاب؛ كما كان بذراعى ألم لم يكن من الهين معه إمساكهما كالمعتاد، وأحسست كذلك مضايقة كبيرة من ثقل الطعام الأخير. فقد كنت متخماً ثائر النفس، فأخذت أرتاض جيئة وذهوباً بدون أن أرفع بصرى، وكانت الناس حوالى تجئ وتذهب كأشباح تمر بى، وأخيراً جاء رجلان واحتلا مقعدى، وأشعلا سجارتيهما، وأخذا يتحدثان بصوت عال، فثارت ثائرتى، وأردت أن أوجه لهما الحديث، ولكنى عدت فسرت إلى الناحية الأخرى من البستان، حيث وجدت مقعداً آخر جلست عليه.

وعاد التفكير فى الله يشغل وقتى، فوجدت أنه ليس من الرحمة أن تسد وجوه الحياة أمامى، فيقضى على بالخيبة فى كل مرة أبحث فيها عن وظيفة، بل عن قوت يوم أطمع فيه، وتبين لى أنى كنت كلما مر بى مدة طويلة لم أذق فيها الطعام، أحسست كأن مخى يتطاير ببطء من رأسى،

وكأنما رأسى صار خاوياً، فلا أعود أحس ثقله فوق منكبى، وكنت أشعر بأنى كلما نظرت إلى أحد تظل عيناى مفتوحتين تحدقان.

جلست على المقعد أقلب الفكر فى كل هذا، فزاد حنقى ضد الخالق بسبب عذابه المستمر لى، فلئن كان يحسب أنه بإيلامى ووضعه عقبة بعد عقبة فى طريقى يجذبنى إلى حظيرته ويصلحنى، فإنى أستطيع أن أؤكد له أنه قد أخطأ التقدير. ثم تطلعت إلى السماء وأنا أكد أبكى من هذا التحدى. قلت له هذا فى ضميرى للمرة الأولى والأخيرة.

ومرت بخاطرى بقايا معتقدات الطفولة، ورن فى أذنى وقع أنغام الإنجيل فأخذت أكلم نفسى همساً، وأملت رأسى ساخراً إلى ناحية: فيم كل هذا الاهتمام بما عساى أفترشه، وبما عساى أكرعه، وبما عساى أكسو به جعبة الديدان الحقيرة، ذلك الجسم الفانى؟ أوليس الله رب السماوات والأرض يزرقنى كما يرزق الطير فى الجو، فيؤتينى من خيراته، ويتفضل على عبده الضعيف؟ لقد أدخل الله إصبعه فى شبكة أعصابى، ولوى خيوطها بعض اللى بحذر ورشاقة، ثم استرجع إصبعه فإذا فوقها خيوط أنسجة دقيقة من أنسجة أعصابى. وخلف إصبعه ثغرة مفتوحة، إصبعه تعالى، فبقيت ندوب فى مخى من أثر إصبعه، ولكنه تعالى لما لمسنى بإصبع يده تركنى وشأنى، فلم ينزل بى مكروها، فكم من مرة تركنى أروح وأغدو فى أمن، أسير بهذه الثغرة المفتوحة فى رأسى، ولم ينزل بى مكروها! هو الله السرمدى...

وحملت إلى الرياح دقات الموسيقى من دار الطلبة؛ وكانت الساعة قد دقت الثانية، فأخرجت ورقى، وعالجت كتابة شئ، فسقط منى فى الوقت نفسه دفتر اشتراكى عند الحلاق، ففتحته وعددت قسائمه، فكان لا يزال باقياً به ست قسائم، فقلت من غير تفكير: الحمد لله! فإنه ما زال فى استطاعتى أن أحلق بضعة أسابيع أظهر فيها بمظهر مناسب. وسرعان ما سرت عن نفسى هذه الثروة الصغيرة التى بقيت فى حوزتى، فسويت القسائم بعناية، وحفظت الدفتر فى جيبى.

أما الكتابة فلم يكن فى مقدورى معالجتها إذ بعد كتابة بضعة سطور عدمت التفكير، ولم أقو على بذل أى مجهود آخر، لتشتت أفكارى، وكان

كل شئ يؤثر فى ويربكنى، فكل ما وقع عليه نظرى كان يترك فى نفسى أثراً جديداً، فقد ضايقنى الذباب وصغار الناموس اللذان حطا على الورق وتشبثا به، فكنت أنفخها لأبعادها، أنفخها بشدة مرة بعد أخرى. ولكن بدون جدوى، فقد أمالت هذه الحشرة الصغيرة أنفسها إلى الوراء، فعززت نفسها، واستقتلت فى الكفاح، حتى اتسعت الفرجة بين سيقانها الدقيقة، فلم يكن فى الطاقة زحزحتها من مكانها. وكانت تجد على الدوام سبباً تتعلق به، فتثبت أعقابها فى علامة فصل فى الكتابة، أو قلقلة فى الورقة، وتبقى ساكنة مطمئنة حتى تجد هى فى نفسها ميلًا إلى الرحيل.

واستمرت تشغلنى هذه الحشرات الصغيرة زمنًا طويلًا، فوضعت ساقًا على ساق وأخذت أرقبها مدة غير قصيرة. وبغتة دوى فى المنتزه نغم عال منبعث من مزمار أو مزمارين، فكان بمثابة صدمة جديدة لأفكارى، فأعدت الورق إلى جيبى حانقًا، لعدم تمكنى من تحرير مقالى، وعدت فاتكأت على المقعد، وكان ذهنى فى تلك اللحظة من الصفاء بحيث كنت أستطيع أن أذكر أدق الخواطر بدون أى إجهاد، وبينما أنا على هذه الحال مرسلًا بنظراتى إلى صدرى وقدمى لاحظت الحركات المضطربة التى كانت تقوم بها ساقى عند كل نبضة، فاعتدلت بعض الاعتدال، وألقيت بنظرة إلى ساقى، فتولانى عندئذ إحساس خيالى عجيب لم أحسه من قبل سرت فى أعصابى هزة رقيقة عجيبة كما لو سرى فيها شؤبوب من نور، وعندما ألقيت النظر على حذائى خيل إلىّ أنى التقيت برفيق قديم، أو كأنما رد إلى عضو كان قد فصل منى، فأرعشنى إحساس التعرف عليه، ودمعت عينى أو كادت، وأحسست كأن حذائى نغم ضعيف صافى ينفذ إلى أعماق قلبى، فقلت فى نفسى: هذا ضعف، وكورت يدى، ودعوت نفسى بسبب هذه الإحساسات السخيفة أحمق، وسخرت منها بحق، وأخذت أتكلم بعنف وبصوت مفهوم، وعصرت عينى بشدة، كى أسترجع الدموع مكانها. ولما كنت كم لم ير حذاءه من قبل، فقد انشغلت به فى ذلك الوقت، وأخذت أدرس منظره الخارجى وتقاطيعه عندما أحرك قدمى، قالبه وجزأه الأعلى البالى، فلحظت أن التثنيات والخياطة البيضاء قد خلعت عليه طابعًا خاصًا. فقد كان فى هذا الحذاء شئ من طبيعتى قد تسرب إليه، فأثر فى تأثير النفس فى نفسى، فكان منى بمثابة عضو التنفس.

وهناك جلست أداعب هذه التأملات زمنًا طويلًا ربما قدر بساعة كاملة. ثم جاء رجل قصير مسن، وأخذ مجلسه على الطرف الآخر من المقعد، وعند جلوسه أخذ يشهق بشدة مرة بعد الأخرى، ثم قال:

"نعم، نعم، نعم، هو ذلك!".

وما سمعت صوته حتى كان كريح عاصف فى رأسى، فتركت الحذاء حذاءً كما هو، وبدا لى بالفعل أن أفكارى المضطربة التى كنت أحيا فيها ترجع إلى زمن بعيد، ربما ترجع إلى عام أو عامين، وأنها على وشك أن تمحى بالتدريج من ذاكرتى، فهيأت نفسى للتحقق من هذا الشيخ العجوز.

وماذا عسى يعنينى من أمر هذا الرجل القصير؟ لا شئ؟ مطلقًا إلا أنه كان يمسك بنسخة من صحيفة قديمة، ظهر منها قسم الإعلانات، فخيل إلى أنه قد لف فيها شئ. فأصبحت فضوليًا ولم أستطع صرف نظرى عن الصحيفة، وتواردت على أفكار جنونية، فربما كانت هذه الصحيفة ذات لون خاص، وأنها الوحيدة من نوعها، وتزايد فضولى، وصرت قلقًا فى مكانى. وربما كان بها مستندات، أو ملفات خطرة قد سرقت من خزانة ما. وطافت برأسى فكرة اتفاق سرى على إحدى المؤامرات.

جلس الرجل صامتًا يفكر، ترى، ولماذا لا يحمل الرجل الصحيفة وعنوانها إلى الخارج كما يحملها كل إنسان آخر؟ أى نوع من المتآمرين هؤلاء؟ إنه ليظهر عليه أنه لا يود أن يترك الحزمة من يده ولو سوم على ذلك بالعالم، بل ربما لم يجازف ولا مرة واحدة بأن يستودعها جيبه الخاص، وإنى لأراهن بحياتى على أن شيئًا ما يختفى وراءها.

فنظرت فى الخلاء، ولكن استحالة التدخل بصفة خاصة فى هذه المسألة الغامضة جعلنى من الفضول فى شدة القلق، فنقبت فى جيوبى لعلى أجد شيئًا أعطيه للرجل، لأجد سبيلًا للتحدث معه، فأمسكت يدى دفتر اشتراكات الحلاقة، غير أنى أعدته مكانه. وفجأة خطر لى خاطر فى غاية القحة، فضربت بيدى على جيبى الخاوية وقلت:

"أتسمح لى بأن أقدم لك سيجارة؟".

"أشكرك، أنا لا أدخن، إذ اضطررت للانقطاع عن التدخين صيانة لنظرى، فقد كنت على وشك العمى. شكراً لك على أية حال".

فسألته: هل مضى عليه زمن طويل وهو يشكو بعينيه؟ وهل هو غير قادر حقاً على المطالعة حتى ولا فى الصحف؟

"أسف يا سيدى، حتى الصحف لا أستطيع قراءتها".

وحدق فى الرجل.

وكان على كلتا العينين المريضتين غشاوة رقيقة فبدتا جامدتين، وكان لنظراتهما أثر كريه.

ثم قال: "أغريب أنت هنا؟".

"نعم - أترى ليس فى مقدورك قراءة ولو عنوان الصحيفة التى تمسكها فى يدك؟".

"بصعوبة - وعلى العموم ما كدت أسمعك حتى عرفت فى الحال أنك غريب، فقد كان فى نبرات صوتك ما ينبئ بذلك. ولمثل هذا لا أحتاج إلى كبير عناء. فأنا حاد السمع، أستطيع أن أسمع فى جوف الليل أنفاس النائمين فى الغرفة المجاورة عندما يسكن الجميع، وإنما أردت أن أسألك أين تسكن؟".

فحضرتنى فى الحال أكذوبة، فأجبته كاذباً عن غير عمد، وبدون قصد ولا تدبر.

"فى رقم 2 بميدان القديس أولافس (St. Olafs-Platz).

أصحيح هذا؟ فقد كان الرجل يعرف كل حجر فى ميدان القديس أولافس (St. Olafs-Platz) هناك نافورة، وبعض أعمدة للمصابيح وبضعة أشجار، فهو يذكر هذا كله... "وما رقم دارك؟".

فأردت أن أضع حداً لهذه الفكرة الراسخة فى رأسى بشأن الجريدة بالذهاب إلى أبعد ما يمكن الذهاب إليه، إذ كان لابد لى من كشف هذا السر مهما كلفنى.

"وإذا كنت لا تستطيع قراءة هذه الصحيفة فلماذا ...".

فاستأنف الرجل كلامه بدون أن يتنبه إلى قلقى: "أنت تقول رقم 2؟ ما اسم صاحب الدار" فأنا كنت أعرف فيما مضى كل سكان الدار رقم 2".

ولكى أتخلص منه اخترعت على عجل اسماً ركبته فى لحظة واحدة، وألقيت به إليه حتى أضع حداً لمضايقى.

قلت: هابولاتى (Happolati).

فطأطأ الرجال رأسه وقال: "نعم هابولاتى (Happolati)، ولم ينتقص مقطعاً واحداً من هذا الاسم الصعب.

فنظرت إليه متعجباً. فإذا به يجلس فى مكانه جاداً، وكانت عليه أمارات التفكير، ولم أكد ألفظ هذا الاسم السخيف الذى حضرنى حتى وجد الرجل طريقه وتصنع كما لو كان قد سمعه من قبل. فأحسست أعصابى تهتز من الفضول، ولاحظت أن بالصحيفة بعض بقع من الدهن.

فسألنى: "أليس صاحب الدار هذا ملاحاً؟ إنى على ما أعتقد أذكر أنه ملاح؟" ولم يبد أى أثر للتهكم فى صوته.

"ملاح؟ عفواً، ربما تعنى أخاه الذى يعنون اسمه هكذا" ى. أ. هابولاتى. وسيط (G.A. Happolati, Agent).

وظننت أن هذا سيضع حداً للمسألة، ولكنه سايرنى مغتبطاً إلى أبعد من هذا.

وقال، وكأنه يتلمس طريقاً للكلام: "لابد أن يكون رجلاً نشيطاً فكذلك سمعت عنه؟".

فأجبته: "إنه رجل داهية، رجل أعمال ماهر. وسيط لكل عمل، فمن توت برى من بلاد الصين، إلى ريش وزغب من بلاد الروسيا، إلى جلود وخشب وحبر...".

فقطاعنى الرجل وهو فى أشد درجات الابتهاج "ها، ها، قاتله الشيطان".

فابتدأ يلذ لى الحديث، ولم أعد قادراً على ضبط نفسى، فأخذت تنبت فى رأسى أكذوبة تلو الأخرى، وعدت وأخذت مجلسى، ونسيت الصحيفة والمستندات العجيبة ، وأخذتنى الحمية فصرت أقاطع محدثى، وقد جعلنى سهولة تصديق هذا القزم الصغير لى نزقًا. فأحببت أن أبالغ فى الكذب عليه بدون أى اعتبار له، وأن أصرعه بقوة فى هذا الميدان,

"أسمعت عن كتاب الكهرباء الذى اكتشفه هابولاتى (Happolati)؟".

"ماذا الكهـ ....؟".

"الإضاءة بحروف كهربائية فى الظلام! مشروع هائل، ملايين من الريالات تتحرك، مسابك ومطابع تعمل، جيش من الموظفين الميكانيكيين المنكبين على العمل يقدر بسبعمائة رجل كما سمعت....".

فقال الشيخ فى خفوت: "نعم، أظن ذلك، نعم"، ولم يزد حرفًا واحداً، فقد صدق كل كلمة قلتها، ولم يأخذه مع ذلك العجب، فخيب رجائى بعض الشئ، فقد كنت أتوقع أن تربكه مفاجآتى.

فاخترعت بعض أكذوبات جريئة تكاد تلمس باليد، فهمست إليه بأن هابولاتى (Happolati) كان وزيراً فى العجم مدة تسعة أعوام، وسألته إذا ما كانت لدية أية فكرة عما ينطوى تحت كلمة وزير فى العجم. إنه أكثر من ملك عندنا، ويكاد يساوى سلطانًا إذا كان يفقه ذلك، ولكن هابولاتى (Happolati) قد تغلب على الصعاب ولم يقع فى ورطة طول حياته، ثم حدثته عن ابنته يلايالى (Ylayali) تلك الحورية الأميرة، التى لديها من الرقيق 300 والتى تجلس على مقعد من الورود الصفراء، إنها أجمل مخلوق رأيته فى حياتى، وقاتلنى الله إن كنت فى حياتى قد شاهدت مرة طلعة تشبه هذه الطلعة!

فقال العجوز، وهو غائب الذهن ينظر إلى الأرض: "أحقًا هذا؟ أهى جميلة إلى هذا الحد؟".

"جميلة؟ هى آية فى الجمال، فاتنة، عينان كالحرير الخام، وذراعان صيغا من الكهرمان، نظرة واحدة منها فيها من الغواية ما فى القبلة. وإذا

ما دعتنى يسرى صوتها إلى أعماق قلبى سريان شعاع الخمر. ولم لا تكون آية الحسن؟ لعلك تتصورها أحد السعاة، أو واحداً من عمال المطافئ، إنها باختصار فتنة السماء، وأستطيع أن أقول لك: إنها تكاد تكون خرافة".

فقال الرجل وقد ارتبك بعض الشئ: "نعم، نعم".

فضايقتنى سكينته، واحتد صوتى، وأخذت أتكلم جاداً. ولم يبق بعد أثر فى ذهنى لمسائل الأرشيف المسروقة، ولا للمعاهدة المعقودة بين هذه القوة الأجنبية أو تلك. وكانت الحزمة الصغيرة المسطحة موضوعة بيننا على المقعد. ولكن لم تعد لدى أية رغبة لفحصها، أو النظر إلى محتوياتها. وكنت من أفكارى الخاصة فى شغل عنها، فقد كانت تمر أمام عينى أشباح غريبة، فصعد الدم إلى رأسى، وأخذت أضحك ملء أشداقى.

وعندئذ بدت على الرجل الرغبة فى الانصراف حيث أخذ يتلمس ما حواليه، وقد سألنى حتى لا يفارقنى فى جفاء:

"لابد أن يكون هذا الهابولاتى (Happolati) من كبار الملاك؟".

ترى، كيف استطاع هذا الشيخ الأعمى البغيض أن يغامر بمعالجة هذا الاسم الذى اخترعته، كما لو كان اسماً مكتوباً على لوحة كل بدال فى المدينة؟ إذا لم يتلعثم فى حرف منه. لا، ولم يغفل مقطعاً واحداً، فقد نقش الاسم فى ذهنه كما ثبتت أصوله فيه. فأخذنى الغضب، وبدأت تترعرع الحفيظة فى نفسى ضد هذا الرجل، الذى لم استطع أن أربكه، والذى لم يبد أثراً لعدم الثقة بى.

فأجبته متحدياً: "هذا ما لا أعرفه. لا أعرف شيئاً عن هذا بالضبط. دعنى أقل لك على أية حال للمرة الأولى والأخيرة: إن الرجل يدعى يوحنا أرندت هابولاتى (Yohann Arendt Hapolati) طبقا للحروف الأولى من اسمه.

فردّد الرجل متعجباً من شدتى: " يوحنا أرندت هابولاتى (Yohann Arent Hapolati) ثم صمت.

فاندفعت فى الحديث: "يلزمك أن ترى زوجته. هى مخلوقة بدينة... نعم إنك ربما لا تصدق ألبتة أنها جد بدينة إلى هذا الحد؟".

ولم ينازع كذلك فى أن رجلًا مثل هذا يمكن أن تكون زوجته كذا بدينة.

وأجاب الشيخ على حملاتى كلها بلطف وهدوء, وأخذ يتلقى الألفاظ كأنما أخذ على عاتقه إهانتى وإغضابى.

فصرخت من الحنق: "قاتلك الشيطان أيها الإنسان! أو ربما حسبتنى أجلس هنا أصب الكذب فى أذنيك صبًا؟ وربما كنت لا تصدق البتة وجود رجل باسم هابولاتى (Happolati)؟ إنى لم أر فى حياتى تحديًا وحقدًا كهذا من كهل مثلك! أى شئ بك قاتلك الشيطان؟ وربما حسبت فى نفسك أنى فوق ذلك فتى معدم أعيش فى بلادكم العظيمة ولا أملك فى جيبى علبة لفائف؟ أحب أن أقول لك إنى غير متعود مثل تلك المعاملة التى تعاملنى بها. وأقسم بالله أنى لن أتحملها منك ولا من أى إنسان آخر. هذا ما يلزمك أن تعرفه!

فنهض الرجل من مكانه ووقف فاغرًا فاه. لا ينبس ببنت شفة، يستمع إلى هذيانى حتى النهاية. ثم سارع فتناول حزمته من المقعد. وسار مهطعًا فى الطريق بخطوات الشيخوخة القصيرة.

وبقيت فى مكانى أنظر إلى ظهره الذى كان آخذًا فى الاضمحلال شيئًا فشيئًا. ولا أدرى كيف ترك فى هذا الأثر، ولكنه كان يبدو لى كما لو كنت لم أر فى حياتى ظهرًا معيبًا كظهره هذا. ولذلك لم أندم على تأنيبى له قبل مغادرته لى.

ومال ميزان النهار، وغربت الشمس، وابتدأ حفيف الأشجار يسمع حواليها. وأخذت مربيات الأطفال اللائى كن يجلسن عند قوائم المتوازيين طريقهم إلى الدار، فاطمأنت نفسى، وسرى عنها. فقد أخذت الثورة التى كنت فيها تمحى بالتدريج. ثم أخذت أنكمش وتراخت أعصابى، وابتدأت أحس حاجتى إلى النعاس، ولم تعد تثقلنى كثيرًا مقادير الخبز العظيمة التى تناولتها. وعلى هذا الحال اتكأت على المقعد،

وأغمضت عينى، واستغرقت فى النوم. ولكن ما كاد يغلبنى النعاس حتى وضع خفير البستان يده على منكبى قائلًا:

"ممنوع النوم هنا".

فقلت: "نعم، ونهضت فى الحال؟، فتمثلت لى حالتى السيئة أمام عينى جلية واضحة. فقلت: لابد لى من عمل شئ، القيام بأى عمل، أما البحث وراء وظيفة فلم يفدنى شيئًا، فالتوصيات التى قدمتها لم يكن لها الأثر المطلوب لمضى الزمن عليها، كما أنها كانت مكتوبة من أناس مجهولين، وعدا هذا فإن الرفض المتتابع طول فصل الصيف قد جعلنى وجلًا. والآن وقد استحق كراء الغرفة فعلى أن أجد لى مخرجًا من هذا المأزق. وما عدا ذلك ففى الوقت فسحة له.

وعدت بدون وعى وتناولت فى يدى القلم الرصاص والورق وجلست أكتب آليًا فى أطراف الصحيفة "1848" لو أن فكرة واحدة جبارة تواتينى وتفيض على بقوة فترسل بالكلمات إلى فمى! فإن هذا ما كان يحدث لى فيما مضى. حدث بالفعل أن واتتنى الأفكار فى مثل تلك الساعات، فتمكنت من كتابة قطعة مطولة بدون عناء، وأتممتها على أحسن ما يكون.

وهنا على المقعد جلست أكتب تاريخ العام 1848 عشرات المرات أكتب هذا الرقم متقاطعًا ومنحرفًا. أكتبه بكل صورة ممكنة متوقعًا أن تواتينى فكرة قيمة. وطاف برأسى طائفة من الأفكار المرسلة، وهد من عزيمتى انصرام اليوم وجعلنى سريع التأثر، وكان الخريف قد أتى، بل ابتدأ بالفعل، فكنت ترى كل شئ آخذًا فى الركود، فالذباب وصغار الحشرات قد أصيبت منه بالصدمة الأولى، وفى الأشجار وعلى الأرض يسمع الإنسان صوت تنازع الحياة صاخبًا جياشًا يعمل فى قلق اتقاء الفناء، والديدان تتحرك مرة أخرى فتمد رؤوسها الصفراء من الطحلب وترفع أرجلها وتدب إلى الأمام بخيوطها الطوال، ثم تنكمش فى نفسها فجأة، وتنقلب وتدير بطنها إلى الخلاء. ويأخذ كل نوع من الزرع طابعه الخاص به. فله نفس رطب رقيق، نفس القر فى بدايته، وتتطلع سيقان النبات الذابلة إلى الشمس، ويسمع لحفيف الأوراق المتساقطة على الأرض

صوت، كالذى يسمع من ديدان الحرير الهائمة. هذا هو فصل الخريف القائم وسط عيد مرافع الفناء، فحمرة الورود سقيمة لها تورد المسلول العجيب فوق لونها الأحمر القانى.

فأحسست نفسى كحيوان حقير يهوى قد كتب عليه الهلاك فى وسط هذا العالم الوسنان، فنهضت مأحوذاً من الذعر، وخطوت خطوتين جبارتين فى الطريق، وكورت يدى، وصرخت: "لا، لابد لى من وضع حد لهذا! وعدت فجلست وتناولت القلم فى يدى وأردت أن أكتب بجد مقالاً إذ لا فائدة ترتجى من الاستسلام ما دام كراء الغرفة المستحق قائماً أمام عين الإنسان.

وابتدأت تتجمع أفكارى ببطء فنسقتها، وكتبت بعض صفحات فى أناة وتدبر كعجالة لأى موضوع كان، تصلح أن تكون تقدمة لكل شئ، لوصف رحلة، أو مقال سياسى، وكانت فى اعتقادى فى غاية المتانة كانت تقدمة بديعة لأى موضوع.

ثم بدأت أبحث وراء موضوع خاص يمكننى أن أطرقه، عن شخص أو شئ أو أمر من الأمور يمكن معالجته، ولكنى لم أوفق إلى شئ، وأصبت بفوضى جديدة فى أفكارى من جراء هذه الجهود العقيمة، فشعرت بمخى وقد فارقنى، وأقفر رأسى وخف فوق كتفى، وبقيت بلا إدراك، وأحس جسدى هذا الفِراغ الشاغر فى رأسى، وخيل إلى أنى بت مفرغاً من قمة رأسى حتى أَخْمص قدمى.

فصرخت من شدة الألم: مولاى، إلهى وربى! ورددت هذا النداء عدة مرات فى نفس واحد، بدون أن أزيد عليه حرفاً واحداً.

وعصفت الريح بأوراق الشجر، وتكاثف السحاب، وبقيت زمناً أحدق تائهاً فى أوراقى، ثم جمعتها ودسستها ببطء فى جيبى، وكان الجو رطباً، ولم يكن لدى صدار، فزررت ردائى حتى أعلى عنقى، ودسست يدى فى جيوبى، ثم نهضت واقفاً، وسرت فى الطريق.

آه لو حالفنى الحظ مرة واحدة، هذه المرة! لقد اضطررت للانسلال مطأطئ الرأس أمام صاحبة الدار، محيياً إياها فى تلعثم عندما عاودت

مُساءَلَتى بطرف عينيها عن أجرة الغرفة، وليس فى طاقتى أن أعيد الكرة مرة أخرى، وإذا أنا لقيت هاتين العينين مرة أخرى فسأشرح لصاحبتهما بصدق حقيقة حالى، وأغادر الغرفة فى الحال، فليس فى الطاقة الاستمرار على مثل هذه الحال.

ولما بلغت مخرج البستان رأيت القزم العجوز مرة أخرى، ذلك الرجل الذى أقصيته عنى فى ثورة غضبى، وكانت حزمة الجريدة الغامضة بيده مفعمة بمختلف أنواع الأغذية، التى كان يلتهمها التهاماً، وأردت فجأة أن أقصده لأسأله المعذرة عن مسلكى معه، ولكن طريقته فى الأكل استوقفتنى، فإن أصابع يده التى خلع عليها الكبر ثوبه، والتى كانت أشبه بعشرة مخالب مغضنة الأديم، كانت تمسك الخبز المطلى بالزبد بصورة تعافها النفس، أحسست معها ضيقاً، فمررت به بدون أن أتحدث إليه. وحدقت عيناه الجامدتان فى. ولكنه لم يتعرفنى فإن صحيفة وجهه لم يبد عليها أثر للتغيير.

واستأنفت طريقى.

وكنت تبعاً لعادتى كلما مررت فى الطريق بصحيفة منشورة وقفت أتأمل إعلانات الوظائف الشاغرة، واغتبطت نفسى عندما وجدت إعلانا بوظيفة يمكننى الحصول عليها، تاجر فى جرونلاندسلر (Gronlandsleret) يبحث عن رجل يحذق فى مسك الدفاتر، لبضع ساعات فى المساء، والأجر يتفق عليه، فقيدت عنوان الرجل، وسألت الله فى هدوء أن يمن على بهذه الوظيفة، واعتزمت أن أطلب أجراً عن العمل يقل عما يطلبه أى إنسان آخر، فخمسون أورا تكفى وتزيد، لا بل ربما تكفى أربعون أورا. هذا سأتركه لصاحب العمل.

وعدت إلى البيت، وجدت رسالة على المائدة من صاحبة الدار ترجو منى فيها أن أدفع كراء الغرفة مقدماً، أو أتركها إلى غيرها بأسرع ما يمكن، وليس لى أن أغضب لهذا الطلب، فإنها مكرهة عليه، هذا لطف منك مدام جندرسن (Gundersen).

فكتبت طلباً للتاجر كرستى (Christie) فى جرونلاندسلر (Gronlandsleret) رقم 31، وغلفته وألقيت به فى صندوق البريد

عند الناصية ثم عدت فصعدت إلى غرفتى، وجلست على الكرسى الهزاز وبدأت أفكر وقد أخذ الليل يسدل ستاره شيئًا فشيئًا. وأصبح من المتعذر ضبط النفس على مثل هذه الحال.

وفى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرًا. وعندما فتحت عينى كان الظلام سادلًا رواقه. وبعد مرور مدة طويلة سمعت الساعة فى الدور الأسفل تدق الخامسة. فحاولت أن أنام ثانية، ولكنى لم أصل إلى بغيتى، فقد كانت حواسى آخذة فى التنبه، فرقدت يقظًا أفكر فى آلاف المسائل، وأخيرًا حضَرَنى جملتان متينتان أو ثلاث جمل موفقة العبارة دقيقتها، لم أر لهما نظير فى حياتى، تصلح لوصف مختصر، أو مقال أدبى، فبقيت راقدًا، واستعدت هذه الجمل لنفسى، فألفيتها آية فى الإبداع. وسرعان ما تكاثرت الخواطر على، فتيقظ ذهنى دفعة واحدة، فنهضت وقبضت على القلم والورق، اللذين كانا موضوعين على المائدة خلف سريرى. كنت كما لو أن عرقًا فىّ قد انفجر. فكانت كلمة تتلو الأخرى، وكانت الجمل تهيئ المناسبات، وتؤلف من نفسها المواقف، وتراكمت المناظر بعضها فوق بعض، وتواثبت فى ذهنى فصول وإجابات، فتولانى شعور من الطمأنينة عجيب، فكنت أكتب كالمأخوذ، فأملأ صحيفة بعد الأخرى، بدون أن أتوقف لحظة واحدة، وتواتينى الأفكار بغتة، وتفيض على بغزارة، حتى إنى كثيرًا ما كنت أغفل نوافل الكلام، لعجزى عن سرعة تقييدها مع أنى استخدمت كل ما فى من قوة للكتابة، وما فتئت تلح على حتى غصصت من وفرة المادة، وكانت كل كلمة أخطها توضع لى فى فمى وضعًا.

واستمر الحال على هذا النمط الموفق مدة طويلة، قبل أن ينقطع حبل هذه المصادفة العجيبة وأخيرًا عندما وقفت عن الكتابة، وألقيت بقلمى، كان على ركبتى خمس عشرة أو عشرون صحيفة مكتوبة أمامى. والآن، لو أن لتلك الصحف المكتوبة قيمة تذكر. فإنى قد أنقذت! وقفزت من السرير، وارتديت ملابسى، وكان الضياء قد أخذ فى الانتشار، فتمكنت بعض الشئ من تمييز بيان مدير المنارة عند أسفل الباب. وكان الضوء عند النافذة أكثر وضوحًا حتى إنى لحاجتى إلى الكتابة كنت أستطيع أن أرى فيه. فشرعت توًا فى تبييض أوراقى.

فتولد من هذه التخيلات بخار كثيف عجيب، ذو نور مختلفة ألوانه، وكنت أتطاول بعنقى مندهشاً كلما عنت لى فكرة متينة تلو الأخرى، وأقول لنفسى كل مرة: هذه الفكرة هى أمتن ما قرأت للآن، وسكرت من الاغتباط، ونفخ السرور أوداجى. وأحسست أنى قد صرت عظيماً، ووزنت كتاباتى فى يدى، وقدرتها فى الحال بخمسة ريالات، على وجه التقريب، وقلت إنه لن يتنزل أحد فيساومنى عليها بخمسة ريالات ولابد من التسليم بأن الحصول على هذا المقال بخمسة ريالات ليس إلا مجرد ابتزاز إذا ما حسب حساب لمادته، وليس فى نيتى أن أقدم عملاً بديعاً كهذا مجاناً، فمبلغ ما أتصوره أن الإنسان لا يجد فى الطرقات روايات من هذا النوع، وقضيت لنفسى بعشرة ريالات أجراً على هذا المقال.

وأخذ النور ينتشر فى الغرفة شيئاً فشيئاً، فألقيت نظرة إلى أسفل الباب فتمكنت من أن أقرأ بدون عناء، إعلان أكفان الموتى، ذا الحروف الدقيقة الرفيعة، عند الفتاة أندرسن (Andersen) على يمين الداخل، وكانت قد انسلخت فترة من الزمن ليست بالقصيرة منذ دقت الساعة السابعة.

فنهضت من مكانى، وبقيت واقفاً فى وسط الغرفة، ولما تدبرت كل شئ جيداً، وجدت أنه يحسن بى أن أُعلم مدام جوندرسن (Gundersen) بعزمى على الانتقال من دارها. فالحق أن غرفة كهذه لم تكن لتصلح لى، فثمة ستائر خضر فى غاية البساطة معلقة على النوافذ، كما أنه لم يكن بالحيطان مسامير كافية لتعليق الثياب عليها، والكرسى الهزاز الحقير القائم فى الزاوية لم يكن فى الواقع إلا سخرية الكراسى الهزازة، وإن الواحد ليكاد يهلك ضحكاً منه، فهو شديد الانخفاض بالنسبة لفتى يافع، فضلاً عن أنه من الضيق بحيث يلزم للواحد آلة لانتزاعه منه. وبالاختصار، فإن هذه الغرفة فوق ذلك غير مجهزة بالأثاث الذى يعين على الاشتغال فيها بالأعمال الذهنية، ولم يكن فى نيتى البقاء فيها طويلاً، ولسبب ما شئت أن أحتفظ بها، وصبرت صامتاً طول المدة، وفى هذا الإسطبل عشت صاغراً، منتفخ الأوداج، من الرجاء والغبطة، مشغول الفكر طول الوقت بالوصف المختصر العجيب، فكنت أستخرجه من جيبى فى كل لحظة لأقرأه، وأحببت أن أجد فى الانتهاء منه، والأخذ فى الانتقال من هذه

الغرفة، فتناولت حزمتى، وكانت تتألف من منديل أحمر، وبضع ياقات نظيفة، وبعض قطع من الصحف كنت حملت فيها الخبز إلى دارى، وطويت الملحفة. وأخذت معى ذخيرتى من ورق الكتابة الأبيض، ومن باب الاحتياط فتشت زوايا الغرفة لأتحقق من عدم تركى شيئًا خلفى، ولما لم أجد شيئًا سرت إلى النافذة. وأطللت منها وكان صباحًا معتمًا مطيرًا، ولم يكن أحد فى الخارج عند حانوت الحدادة المحترق، كما أن حبل الغسيل المشدود هناك بين حائطين كان مقددًا من الرطوبة. ولما لم تكن كل هذه الأشياء جديدة بالنسبة لى، ابتعدت عن النافذة، وأخذت الملحفة تحت ذراعى، وانحنيت أمام بيان مدير المنارة، وانحنيت أمام أكفان الموتى عند الفتاة أندرسن (Andersen)، وفتحت الباب.

وفجأة مرت صاحبة الدار بذهنى، وكان لابد لها أن تأخذ علمًا بانتقالى، كى تعلم أنها كانت تتعامل مع رجل يعرف الواجب، كما كنت أريد أن أشكر لها برسالة على الأيام التى شغلت فيها غرفتها، وألح على تيقنى بأن صاحبة الدار أنقذتنى مدة من الزمن، أن أعدها بخمسة ريالات عند مرورى بها فى الأيام المقبلة، إذ أردت أن أريها أى رجل شريف كان يقيم تحت سقف دارها.

وخلفت لها على الخوان مكتوبًا بذلك.

ووقفت مرة أخرى عند الباب، ثم تحولت عنه، وقد سرى عنى ذلك الإحساس المثير بالنهوض مرة أخرى. وجعلنى شاكرًا لله وللعالم بأسره، فخررت راكعًا بجانب السرير، وشكرت بصوت عال فضل الله تعالى على فى هذا الصباح. الآن أدركت، آه، أدركت أن الإلهام الذى غمرنى والذى دونته على الورق، إنما كان صنيعًا سماويًا عجيبًا، له أثره فى نفسى، هو جواب على صرخة أمس. فصحت: هو الله! هو الله! وبكيت من الحماسة لكلماتى. وكنت بين الوقت والآخر اضطر أن أتوقف وأرهف الأذن برهة من الزمن أتسمع لعلى أجد فى السلم أحدًا، وأخيرًا نهضت وأخذت طريقى، وقد تسحبت نازلًا بدون صوت، وبلغت الطريق من غير أن يرانى أحد.

وكانت الطرق تلمع من المطر الذى نزل فى الصباح الباكر، ودنت السماء من المدينة، وتدلت فوقها فى غير استواء. ولم يكن ثمّة أثر لأشعة

الشمس. ترى، كم تكون الساعة؟ ثم سرت كالعادة فى اتجاه دار البلدية، فإذا بنا فى منتصف التاسعة، فكان لا يزال أمامى بضع ساعات، إذ لا فائدة ترجى من الذهاب إلى قلم التحرير قبل منتصف العاشرة، بل الحادية عشرة، فعلى أن أتسكع فى هذه الفترة، وأفكر كيف أستطيع الحصول على فطور رخيص، ولم أكن أخشى أن أضطر فى يومى هذا إلى الذهاب إلى سريرى بدون طعام، فتلك أيام قد انصرمت والحمد لله! إنها مرحلة طويناها، هى حلم مزعج، أما بعد الآن فإنى أسير إلى الأمام.

وفى الوقت نفسه ابتدأت الملحفة الخضراء تضايقنى، فالحق أنه لم يكن فى مكنتى أن أظهر أمام الناس بمثل هذه الحزمة، فماذا عساهم يظنون بى ؟ واستأنفت المسير أفكر فى مكان يمكننى أن أحفظها فيه مدة يسيرة، فخطر لى الذهاب إلى سمب (Semp)، وهناك ألفها فى الورق، فتظهر بصورة مقبولة، ولا يعود حملها مزريًا، فدخلت الحانوت، وأعربت للمساعد عن حاجتى.

فحدق فى الملحفة أولًا، ثم حدق فى، فخيل إلى أنه عند تناوله للحزمة هز كتفيه فى سكون، استخفافًا بى، فجرحت هذه الحركة عواطفى.

فصحت به: قاتلك الشيطان وقتلك! احترس بعض الشئ! إن بها إصيصين ثمينين من الزجاج. وهذه الحزمة مرسلة إلى أزمير.

وقد أفاد هذا، أفاد فائدة كبيرة، فكانت كل حركة من حركاته اعتذاراً لى عما بدر منه، إذ لم يكن يعلم أن بها أشياء ثمينة كهذه، وعندما انتهى من الحزم شكرت له مساعدته، كمن سبق أن أرسل إلى أزمير أشياء ثمينة، وفتح لى الباب عند انصرافى.

تنقلت بين الناس فى ستورتورف (Stortorv) ثم فضلت البقاء على مقربة من النسوة اللائى يبعن أصص الأزهار. فقد أثارت شهوتى الورود الحمر القانى لونها، تتوقد فى الصباح الندى، واستهوتنى لأرتكب جريمة سرقة واحد منها. فسألت عن الثمن لمجرد الاقتراب منها بقدر الإمكان، ولو أن معى شيئًا من النقود باقيًا لاشتريتها، وليكن بعد ذلك ما يكون؛

وفى استطاعتى فيما بعد الاقتصاد فى نظام المعيشة من هنا أو هناك حتى أعيدها إلى التوازن.

وكانت الساعة العاشرة، فصعدت إلى إدارة الجريدة، فوجدت هناك رجلًا يدعونه بالمقص، ينقب فى كومة من الصحف القديمة، ولم يكن قد أتى رئيس التحرير بعد، وعندما طلب الرجل منى أن أسلمه مقالى العظيم، أدخلت فى ذهنه أن المسألة أكبر مما يتوهم، وألححت عليه فى الرجاء أن يسلمها يداً بيد لرئيس التحرير عند عودته، لأنى أود أن أحصل على الجواب فى اليوم نفسه.

فقال المقص: "حسنًا، وعاد إلى صحفه".

وألفيته قد تلقى المسألة بشئ من الهدوء، فلم أقل شيئًا، وحنيت له رأسى قليلًا بدون اكتراث وانصرفت.

إن لدى الآن وقتًا طويلًا، فلو أن الجو يصفو! فلقد كان من الرداءة بمكان، فلا ريح فيه ولا نسيم، وكانت النساء تستخدم مظلاتهن من باب الحيطة، كما كانت تبدو على قبعات الرجال سيما الأسى والغرابة، فعدت ودرت فى السوق، وحدقت فى الخضروات والورود، وشعرت بيد فوق كتفى، فالتفت فإذا "بالرقيع" يحينى تحية الصباح.

فرددت عليه التحية متشوقًا لمعرفة غرضه، نهارك سعيد؟ "فالرقيع" لم يكن يعجبنى.

فنظر بفضول إلى الحزمة الجديدة الكبيرة التى أتأبطها، وسألنى: "ماذا تحمل فى هذه الحزمة؟".

فأجبت بصوت غير المكترث: "كنت عند سمب (Semp)، فاشتريت منه قماش بذلة، إذ لم يعد يليق بى أن أسير أكثر من هذا فى ثياب رثة كهذه، لقد كنت حقيراً بالنسبة لمظهرى الخارجى".

فنظر إلى مبهوتًا.

وسألنى فى تمهل: "وكيف حالك على العموم؟".

"فوق ما أنتظر".

"هل لديك عمل ما؟".

فأجبته متعجبًا غاية العجب: "عمل ما؟ أنا كاتب حسابات فى محلات كرستى (Christie) تجار الجملة.

فقال وقد تراجع إلى الوراء بضع خطوات: "كذا كذا يالله! ما أشد غبطتى لك! ويا ليتك لا تبذر النقود التى تربحها بجدك على كل سائل! عم صباحًا".

وأخيرًا تحول عنى، ثم عاد وأشار بعصاه إلى حزمتى وقال:

"إنى لأشير عليك بخياطى، ولن تجد أفضل من إساكسن (Isaksen) وبحسبك أن تقول له إنى مرسلك إليه.

ألا ليت شعرى: لماذا يتدخل فى شؤونى؟ أو يعنيه الخياط الذى أختاره؟ وغضبت لذلك، وأثار مظهر أولئك المتأنقين المفتونين حنقى، فذكرته بشئ من الجفاء بالعشرة ريالات التى كان قد اقترضها منى، وقبل أن يتمكن من الإجابة ندمت على تذكيرى إياه بها، وارتبكت، فلم أقو على رفع بصرى إلى بصره، ومرت سيدة على فى نفس اللحظة، فتراجعت بسرعة، لأخلى لها السبيل، وانتهزت الفرصة، وأخذت طريقى.

ماذا عساى أصنع الآن فى فتة الانتظار؟ وليس فى استطاعتى أن آخذ مجلسى فى مقهى، فجيوبى خاوية، ولم أكن أعرف لى صديقًا يصح أن أذهب إليه فى ذلك الوقت، فتسكعت بالغريزة فى المدينة صارفًا جانبًا من الوقت على الطريق ما بين السوق والجرنزا (Grenze)، وقرأت جريدة بريد المساء (Abendpost) التى علقت حديثًا على اللوح، ودرت دورة إلى شارع كارل يوحنا (Karl Yohann)، ثم عدت فأخذت طريقى رأسًا إلى مدفن المخلص، حيث وجدت مكانًا هادئًا على المرتفع بالقرب من المعبد.

وهناك فى السكون الشامل، والهواء الرطب، جلست أفكر نصف يقظ ونصف مقرور، وأخذ اليوم ينصرم، أحقًا أن مقالى آية مصغرة من وحى الفن؟ الله يعلم ما إذا كان به أخطاء فى هذا الموضع أو ذاك! وإذا كان كذلك فسينتهى الأمر بعدم قبوله، لن يقبل بالمرة! وقد يكون مقالًا

عادياً أو سخيفاً، وكيف يمكن الجزم الآن بأنه ليس ملقى فى سلة المهملات.... فتزعزعت غبطتى، وقفزت مندفعاً إلى الخارج من فناء المدفن.

وفى آخر شارع آكر (AKersgaden) نظرت إلى نافذة بعض الحوانيت، فوجدت الساعة اثنتى عشرة إلا قليلاً، فضايقنى ذلك، فقد كنت على ثقة من أن الوقت قد تعدى الظهر بكثير، إذ لا معنى للسؤال فى قلم التحرير قبل الساعة الرابعة، وملأنى مصير مقالى غماً وقلقاً، فكنت كلما فكرت فيه صعب على أن أصدق أن فى الإمكان كتابة شئ ذى قيمة على حين فجأة، وفيما يقرب من النوم، مع امتلاء الرأس بالحمى والأحلام، ولا شك أنى خدعت نفسى بنفسى، وطربت طول الصباح للا شئ، ولا شكّ..... فخففت مندفعاً فى طريق أوللیفولد فيجن (Ullevoldvejen) ماراً بشارع هانس هوجن (Hans Haugen) حتى بلغت حقولاً فسيحة، فحارات ضيقة غريبة عند ساجيملين (Sagemuhlen) قاطعاً ميادين بناء ومزارع، وأخيراً وجدت نفسى فى طريق زراعى لا ترى العين له آخر.

وهنا توقفت، واعتزمت العودة، وقد صرت حران من كثرة المشى، فأخذت أسير متباطئاً ضيق الصدر، فالتقيت بعربتى درين. وقد استلقى السائقان على الحمل يغنيان، وكان كلاهما عارى الرأس، كما كان كلاهما ذا وجه لا أثر للهم فيه، فاستأنفت السير، وقد حسبت فى نفسى أنهما سيتحدثان إلى، أو يشيران إلى بإشارة ما، أو يسخران منى، ولما اقتربت منهما نادانى أحدهما، وسألنى عما أحمله تحت إبطى.

فأجبته : ملحفة سرير.

فسألنى: كم الساعة؟

ولم أكن أعرف الوقت بالضبط، فقلت أظنها ثلاثة.

فضحكا ومرا بى، وفى اللحظة نفسها شعرت بوقع سوط على أذنى، نزع قبعتى من على رأسى، فلم يطق الشابان أن يتركانى بدون أن يسخرا منى، فأمسكت بأذنى حانقاً، ورفعت قبعتى من حفرة فى الطريق، واستأنفت

طريقى، وهناك فى المؤخرة عند شارع القديس هانس هوجن (St. Hanshaugen) التقيت بمن قال لى: إن الساعة الرابعة قد انصرمت.

فاتت الساعة الرابعة! قد فاتت الساعة الرابعة! فضاعفت الخطى قاصداً المدينة إلى إدارة التحرير، ليس بعيداً أن يكون رئيس التحرير قد أتى، وعاد فخرج، أخذت أسير وأقفز، وأتعثر وأصطدم بالعربات، مخلفاً ورائى جماعات المستريضين، منافساً الخيل فى سرعتها، باذلاً جهد المجنون لأصل فى الوقت المناسب، وعرجت على الباب، وصعدت فى السلم أربعاً أربعاً، ودققت الباب.

فلم يجب أحد.

قد خرج! قد خرج! هكذا ظننت؟ فعالجت الباب ولم يكن مقفلاً، ودققت عليه مرة أخرى، وتقدمت، وكان رئيس التحرير جالساً على مكتبه، ووجهه قبالة النافذة، والقلم فى يده، مستعداً للكتابة، ولم يكد يسمع تحيتى المقطوعة النفس، حتى استدار إلى نصف استدارة، ونظر إلى نظرة قصيرة، ثم هز رأسه قائلاً:

"نعم، لم يكن لدى وقت لقراءة رسالتك".

ومن فرط سرورى لعدم رفضه إياهاجملة، قلت له:

"لا، يا سيدى العزيز، أنا أفهم هذا جيداً، ولا محل للعجلة، أيمكن بعد يومين أو....؟".

"نعم، سأرى، ومع ذلك فعندى عنوانك".

ونسيت أن أقول له أنى بت بلا عنوان.

وانتهت المقابلة، وخطوت متراجعاً، بعد أن انحنيت، وعادت الآمال فاشتعلت فى نفسى، فلا خسارة بعد، بل على العكس، من الجائز ربح كل شئ، وابتدأت أتخيل فى ذهنى مجمعاً كبيراً علوياً قد كتب لى ضرورة الربح، ربح عشرة ريالات على التمام، أجر لمقالى.

لو عرفت لى ملجأ الليلة! أعملت الفكر فى مكان يحسن الانزواء فيه، وشغلتنى هذه المسألة، حتى بقيت واقفاً فى منتصف الطريق، ونسيت أين

أنا، بقيت واقفًا كشمندورة فريدة فى وسط البحر والماء يعج ويتدفق من حولها، فناولنى صبى بائع جرائد نسخة من جريدة وكنج (Wiking) الهزلية! هذه هى! فرفعت بصرى، قم سرت فى طريقى، ورأيتنى مرة أخرى أمام دكان سمب (Semp).

فعجلت بالعودة محاولًا إخفاء الحزمة بقدر ما أستطيع، وأسرعت منحدرًا فى شارع الكنيسة خائرًا وجلًا، حذر أن يتمكن الرجل من رؤيتى من نافذة حانوته، ومررت بانجبرت (Ingebret) وبالملهى، وعرجت على النادى، ثم انحدرت إلى فيورد فالقلعة، وعدت فأخذت مجلسى على أحد المقاعد، وابتدأت أفكر من جديد.

أنى لن أجد فى هذا العالم ماؤى فى ليلتى هذه! أوَلًا يوجد جُحر إليه أنسل، وفيه أتمكن من الانزواء حتى يصبح الصباح؟ وحالت كبريائى دون العودة إلى غرفتى، فلم يكن ليدور فى خلدى أن أسحب كلمتى، ولذلك طردت هذه الأفكار - من رأسى حانقًا، وبعد تفكير هادئ أخذت أضحك من الكرسى الهزاز الصغير الأحمر، وبغتة وجدت نفسى - عن طريق تداعى الأفكار - فى غرفة ذات نافذتين، تطل على شارع هاجدى هوجن (Haegdehaugen) كنت أسكن فيها فيما مضى، ورأيت لوحًا محملًا بكثير من الخبز المطلى بالزبد الذى انقلب شرائح من لحم البقر المغرى، وفوطة يد بيضاء ناصعة البياض، وخبزًا كثيرًا وأدوات مائدة من الفضة، وفتحت الأبواب، وجاءت صاحبة الدار، وقدمت لى شايًا مرة أخرى...

أوهام وأحلام! وقلت لنفسى: لو أن طعامًا جاءنى الآن لشوش ذهنى. وأصاب مخى بالحمى عينها، وبكثير من الأفكار الجنونية التى يلزمنى محاربتها، فأنا لا أقوى على تحمل أى طعام، فلا شهوة عندى له، وسيكون بالنسبة لى شاذًا ومستهجنًا.

ربما وجدت حيلة لملجأ آوى إليه إذا جن الليل، فلا داعى للعجلة، وفى أسوأ الحالات يمكننى أن أبحث لى فى الغابة، عن مكان ما، فجميع ضواحى المدينة تحت تصرفى، ولم يهجم البرد بعد.

وهناك فى الخلاء كان يتماوج البحر فى سكون عميق، وكانت السفن والقوارب الثقيلة ذات المقدم العريض تشق لها خطًا فى صفحته

الرصاصية، فينتثر شريطان عن اليمين وعن الشمال، وينزلقان إلى مدى بعيد، إذ كان الدخان يتلوى من المداخن كزغب المراتب، ودقة (بستون) كباس الآلات تدق فى ضعف، بسبب رطوبة الجو، ولم يكن هناك شمس ولا ريح، وقامت الأشجار خلفى مبللة، كما كان المقعد الذى أجلس عليه بارداً رطباً، وأخذ الوقت يمضى، وأمسيت نعسان، وأحسست بعض التعب والبرودة فى مؤخرة ظهرى، وبعد فترة من الزمن شعرت بأن عينى تحاولان الإغماض، فتركتهما تغمضان....

وعندما تيقظت كان الليل قد أرخى سدوله حولى، فقفزت أرتعد من البرد، وأمسكت بحزمتى وابتدأت أسير، وأخذت طلباً للدفء، أسرع فى المشى، وأضرب بذراعى، وأجرى يدى على ساقى من عل إلى أسفل، فلم أكد أحس وجودهما، وبلغت مخفر الحريق، وكانت الساعة التاسعة، فكأنى قد نمت عدة ساعات.

والآن، ماذا عساى أصنع بنفسى؟ ولابد لى مع كل ذلك من مكان أنزل فيه، فوقفت هناك أصعد النظر فى مخفر الحرائق، وأفكر هل فى الإمكان بلوغ أحد المداخل - وما هى إلا لحظة واحدة راقبت فيها الديدبان عندما يدير ظهره، وصعدت فى السلم طامعاً أن أتحدث إلى الرجل، فرفع فى الحال بلطة رمزاً للاحترام، وانتظر أن أقول شيئاً، فسرت قشعريرة فى أعصابى من هذه البلطة المرفوعة، الموجه حدها إلى، صعقت من الرعب أمام هذا الرجل المسلح، فتقهقرت عن غير إرادة، ولم أقل شيئاً، وابتعدت عنه، ولكى أخفى أثر ذلك أجريت يدى على جبهتى، كما لو كنت نسيت شيئاً ما، ثم انسللت بعيداً، ولما وجدتنى فوق الرصيف مرة أخرى شعرت بالنجاة، كأننى أفلت من خطر هائل، ثم أسرعت إلى الهرب.

وظللت مندفعاً إلى الأمام فى شارع كارل يوحنا (Karl Yohann) جائعاً مقروراً، وطفقت أسب وأصخب، فلم أعد أخشى أن يسمعنى أحد، وهناك عند عمارة ستورتنج (Storting) على مقربة من الأسد الأول، تذكرت فجأة عن طريق تداعى الأفكار، أحد الرسامين، وكنت أعرفه وهو فتى فى مقتبل العمر، كنت خلصته من لطمة على وجهه فى تيفولى (Tivoli)، وكنت زرته مرة، فشمرت عن ساعدى، وانكفأت منحدراً فى

شارع توردن سكيلد (Tordrnskiold) فوجدت بابًا عليه بطاقة باسم س. زخارس بارتل (G. zaehrias Bartel) فدققت عليه.

فخرج بنفسه، وكانت تفوح منه رائحة الدخان والجعة إلى حد الكراهية.

وقال: "عم مساءً!".

"عم مساءٍ هو أنت؟ لا، ياللشيطان، لماذا جئت هكذا متأخراً؟ إنها لا تظهر جيدة فى ضوء المصباح، فقد أضفت إليها كومة من الدرين، وعملت فيها بعض تغييرات، يلزمك أن تراها فى ضوء النهار، أما الآن فلا فائدة بالمرة.

ومع أنى لم أدر عن أى صورة يتكلم، قلت له: "دعنى على رغم ذلك أراها الآن!".

فأجاب: "هذا محال بالمرة! فسيظهر كل شئ أصفر! وثم يوجد شئ آخر فى الطريق" - واقترب منى هامسًا - "عندى الليلة بنية صغيرة وهذا يحول دون دخولك".

"نعم، ما دام الأمر كذلك فلا معنى للكلام".

وانسحبت قائلًا: "عم مساءً"، وانصرفت.

ولم يبق أمامى إلا الذهاب إلى أى مكان فى الغابة. آه، لو أن الأرض لم تكن مبللة هكذا! فضربت على ملحفتى، وجعلت أبث فى نفسى على الدوام فكرة ضرورة النوم فى الخلاء، وأما وقد عانيت البلاء فى الحصول على مأوى فى المدينة، حتى بت كليلًا متبرمًا بكل شئ، فقد بدت لى الطمأنينة والغبطة فى الوصول إلى الراحة، وتسليم الأمر للقضاء، والتسكع فى الطرقات بدون أن أشغل مخى بشئ، فسرت ماشيًا حتى بلغت ساعة الجامعة، فإذا الساعة العاشرة قد فاتت، فأخذت طريقى من هناك مصعداً فى المدينة، وعند نقطة ما فى شارع هاجدى هوجن (Haegdehougen) وقفت جامداً أمام حانوت للأغذية، قد وضع فى نافذته بعض أصناف الأغذية، وهناك بجوار إحدى الفطائر رقدت قطة، وخلفها تماماً كان قدر من الدهن السائل وعدة زجاجات من الخشكار المقشور. فوقفت برهة أتأمل هذه الأغذية. ولما لم أكن أملك شيئًا من النقود لشراء بعضها، أدرت

ظهرى، واستأنفت المسير، وسرت متباطئًا جادًا فى السير ساعة بعد ساعة، حتى بلغت فى النهاية غابة بوخشتات (Stadtbuchenwald).

وهنا انعطفت من الطريق، وأخذت مجلسى أنشد الراحة، ثم درت بعينى أبحث عن مكان مناسب، وانتزعت بعضًا من نبات الخلنج والعرعر، وهيأت لى مكانًا فوق مرتفع ضيق، به شئ من الجفاف، وفتحت حزمتى، وأخرجت الملحفة. وكنت تعبًا ضيق الصدر من طول الطريق، فاستلقيت فى الحال طلبًا للنوم، وبقيت أتقلب ذات اليمين وذات الشمال، حتى صادفت فى النهاية المكان المناسب؛ وكانت أذنى تؤلمنى بعض الألم، وقد ورمت قليلًا من ضربة الرجل الذى كان يركب عربة الدرين، ولم أكن أستطيع أن أنام عليها، فخلعت نعلى، ووضعتها تحت رأسى بعد أن غطيتها بورقة الحزمة الكبيرة.

وشملت الظلمة ما حولى، فسكن كل شئ، نعم، كل شئ كان ساكنًا، بيد أنه فوق، فى العلى، كانت ترن الأغانى الأزلية، الهواء، الطنين البعيد الذى لا نغم له، والذى لن ينقطع أبدًا، فأصغيت طويلًا لهذا النغم الضعيف الموصول، حتى أخذ يبلبلنى، وإنه لا شك تلحين خارج من العوالم المحيطة بى، من الأجرام السماوية التى ابتدأت توقع أناشيدها.

ولكى أشجع نفسى قلت مقهقها: "ياللشيطان! يوم فى كنعان".

ونهضت واقفًا ثم عدت فاعتدلت ولبست حذائى واندفعت أسير فى الظلام، ثم عدت من جديد، فرقدت وأخذت أجالد وأكافح الحنق والخوف، حتى انبلج الصباح، وغلبنى النوم فى آخر الأمر.

وفتحت عينى على يوم صحو، فرجحت فى نفسى أن الظهر قد حان، فلبست حذائى وحزمت الملحفة ثانية، وعدت قاصدًا المدينة. ولم تكن الشمس كذا لترى فى هذا اليوم. وكنت أرتعد كالثعلب من هول البرد، وماتت ساقاى، ودمعت عيناى، كأنهما كانتا لا تقويان على مقاومة ضوء النهار.

الساعة الثالثة الآن، وقد ابتدأت وطأة الجوع تشتد إلى حد ما، وخارت قواى فسرت أقئ خلسة هنا وهناك، ثم انعطفت إلى ناحية مطعم، وأخذت

أقرأ قائمة الطعام، وهززت منكبى لافتًا إلىّ النظر، كأن اللحم القديد وشحم الخنزير ليسا بالطعام الذى يليق بى. ثم أخذت طريقى إلى محطة المسافرين.

وسرى دفعة واحدة دوار عجيب فى رأسى، فاستأنفت السير، وأردت ألا أعيره شيئًا من الاهتمام، ولكن الحال ازدادت سوءًا على سوء، فاضطررت فى النهاية إلى الجلوس على إحدى درجات السلم، وحدث انقلاب فى أعصابى؛ فكنت أحس كأنى شيئًا قد انسل إلى ناحية من أعماق قلبى، أو كأن ستارًا أو نسيجًا فى مخى قد تمزق أو انشطر شطرين، فتنفست بضعة أنفاس، وبقيت جالسًا مبهوتًا، ولكنى لم أفقد صوابى، فقد كنت أحس فى جلاء كيف كانت أذنى أمس تؤلمنى بعض الألم، كما أنى استعرفت فى الحال على أحد معارفى، بمجرد مروره بى، ونهضت واقفًا وحييته.

ويا ليت شعرى: أى إحساس جديد مؤلم هذا الذى جاء ضغثًا على غيره؟ تُرى أهو نتيجة لنومى على الأرض بالعراء؟ أم نشأ عن عدم حصولى على طعام الفطور بعد؟ الواقع أن الحياة على مثل هذه الحال سخافة، وإنى وحق آلام المسيح المقدسة لا أستطيع أن أتصور ما أستحق عليه كل هذه الآلام المصبوبة على! وخطر فى ذهنى فجأة أنه ربما كان من المناسب أن أنقلب شريرًا، فأذهب بالملحفة إلى قبو"العم"، إذ من الممكن رهنها على ريال أحصل منه على ثلاث وجبات كاملة، أستطيع بها إمساك رمقى، حتى أجد لى مخرجًا. وأما هانس بولى (Hans Pauli) فسألفق له أى شئ. ووجدتنى فى طريقى إلى القبو. ولكنى توقفت عند المدخل، وهززت رأسى مترددًا، ثم عدت أدراجى.

ومع كل خطوة كنت أبتعدها كان يتضاعف سرورى، لانتصارى على هذه الفتنة القاسية، وتصاعد الإحساس فى رأسى بأنى رجل شريف فأفْعم نفسى بشعور جميل؛ شخص على خلق، منارة بيضاء فى بحر الإنسانية العكر، الذى لا يقلع فيه إلا بقايا السفن المحطمة؛ ملكية شخص آخر ترهن من أجل وجبة طعام؛ ويفترس الطعام، ويكرع الشراب، وينزل الإنسان بنفسه العار، ويدعى فى وجهه بالوغد، ولا مفر من الإغضاء على

هذه المهانة؟ هذا لن يكون! هذا لن يكون! فما اعتزمت هذا يومًا ما فى جد، ولا كاد يمر بخاطرى مرة من المرات. والواقع أن لا ضرورة تقضى على المرء أن يلبى خطرات فكره الشارد الملحة، ولا سيما إذا كان مصابًا بدوار فظيع يجر، وهو على وشك الهلاك، ملحفة تخص غيره.

ومع ذلك فالمحقق أنى سأجد حلًا بمرور الوقت! فلم يزل أمامى التاجر الذى فى شارع جرونلاندسلرت (Gronlandsleret) - هل ترددت عليه مرة بعد أخرى منذ وجهت إليه بطلبى؟ هل دققت تليفونه فى الغدو والأصيل، فردنى خائبًا؟ لا أظن أنى كنت بذلك أضايقه. وليس حتمًا أن يكتب الإخفاق التام لهذه المحاولة. فربما حالفنى الحظ هذه المرة، وكثيرًا ما اتخذ الحظ له طريقًا ملتويًا عجيبًا، وانطلقت قاصدًا شارع جرونلاندسلرت (Gronlandsleret).

ونهكنى بعض النهك ذاك الاضطراب الأخير الذى أصاب رأسى، فسرت متباطئًا جد التباطؤ، أفكر فيما عساى أقول للتاجر.... قد يكون الرجل ذا خلق كريم، فيعطينى، إذا ما صفى مزاجه، ريالًا بدون مساءلته مقدم أجر على عملى، وأمثال هؤلاء الناس قد تخطر ببالهم مثل هذه الفكرة بين وقت وآخر.

انسللت إلى باب إحدى الدور، وسودت بلعابى ركبة سروالى، كيما أظهر بمظهر مناسب، ووضعت الملحفة فى زاوية مظلة وراء صندوق، ثم اجتزت الطريق، ودخلت فى حانوت صغير.

فوجدت هناك رجلًا واقفًا يلصق قراطيس من ورق الصحف القديمة.

فقلت له: "أود أن أخاطب السيد كرستى (Christie).

فأجاب الرجل: "هأنذا".

"حسنًا، اسمى فلان، وقد قدمت إليكم طلبًا ولا أدرى ماذا تم بشأنه".

فأعاد الرجل اسمى عدة مرات، وطفق يضحك، ثم قال: "اصغ إلى"، وسحب طلبى من جيبه: "هل لك أن تتفضل، يا سيدى، فترى بنفسك كيف أنك تخطئ فى الحساب، لقد أرخت خطابك بعام 1848".

وضحك الرجل ملء شدقيه.

فقلت بانكسار: "نعم، هذا مؤلم، هذا سهو، انشغال بال، أسلم بذلك".

فقال: "اعلم أنى لابد لى من رجل لا يخطئ ألبتة فى الحساب، أتأسف كثيراً، إن خطك من الوضوح بحيث أعجبنى خطابك ولكن...".

فانتظرت واقفاً مدة من الزمن، إذ لا يمكن أن تكون كلمات الرجل هذه هى آخر ما يقوله لى، وعاد الرجل فعاد يعمل فى قراطيسه.

وعلى ذلك قلت: "آسف كل الأسف، وأؤكد لك أن هذا لن يتكرر مرة أخرى، ومثل هذه الغلطة التافهة لن تجعلنى غير صالح لمسك الدفاتر".

فأجاب: "لا، وأنا كذا لم أقل ذلك، غير أنى لسبب ما، أعلق عليها شيئاً كثيراً من الأهمية، ولذا اعتمدت بالفعل شخصاً آخر فى الحال".

فسألته: "أشغلت الوظيفة إذن؟".

"نعم".

"ياللمولى! أوليس فى الأمر حيلة بعد!؟".

"لا، آسف، ولكن...".

فقلت: "إلى الملتقى".

وهنا غلى الحقد فى صدرى، وانقلبت وحشاً ثائراً، استعدت حزمتى من مدخل الباب، عاضاً على أسنانى، وأخذت أجرى فوق أرصفة الطرق، فى عكس المارة المسالمين، بدون أن أسألهم معذرة، وما كاد يقف أحد المارة يعنفنى بشئ من الحدة على مسلكى، حتى التفت إليه، وفى شدة ثورتى العمياء التى أفلت زمامها من يدى، صرخت فى أذنه بضع كلمات جنونية|، وكورت يدى، وقربتها تحت أنفه، ثم استأنفت المسير، فنادى أحد من الشرطة، ولم يكن أحب إلى من الوقوع بين يدى الشرطى لحظة من الزمن، فسرت متباطئاً عن عمد، كى أتيح له فرصة للقبض على، ولكن أحداً لم يأت، ترى، هل ثمة حكمة فى أن يكتب الإخفاق على محاولات بعض الناس الشريفة الجادة؟ ولأى سبب كتبت الرقم 1848؟ وماذا يعنينى هذا العام المشؤوم؟ لم يبق أمامى إلا أن أسير أتضور جوعاً، حتى تذوى أعضائى كما تذوى الديدان، ولا أرى كيف كتب على ألا أتبلغ بلغة من العيش إذا ما انصرم اليوم! وكلما طال على هذا، ازددت خفة فى عقلى

وجسمى، وأخذت أسف بالتدريج يومًا بعد يوم، فكذبت بدون أن يعتورنى الخجل، وخدعت أناسًا فقراء من أجل كراء الغرفة، وكافحت كذا بذهنية حقيرة، لأغتصب ملحفة أناس آخرين، كل هذا بدون أن أشعر بندم أو توبيخ ضمير، لوثات عفنة تغلغلت فى صميم نفسى، كمآت سوداء أخذت باستمرار تتمدد، وفى السماوات يرقبنى المولى بعين ساهرة على، وقدر أن يكون انحدارًا منظمًا مستمرًا، وعلى مهل، وبدون أن يصطدم بتقديرات الزمن، غير أن الشياطين اللعينة كانت تطوف فى قرار الجحيم تتطلع من القلق؛ لأنه كان يلزمنى وقت طويل لأرتكب كبيرة أو إثمًا لا يغتفر، تلقى بى من أجله عدالة الله فى الجحيم....

فحثثت السير مندفعًا بخطوات جنونية، ثم انعطفت فجأة إلى ناحية الشمال، فوصلت إلى باب دار مزخرف بهى، وكنت ساعتئذ فى حالة غضب وحنق. فلم أقف مكانى، ولا توقفت لحظة واحدة بل قفزت فى السلم صاعدًا، فقد أخذت بلُبّى زخرفة الباب فى مجموعها. وقامت جلية أمام عينى كل صغيرة بالأبواب، أو فى الزخرف، أو على الجص، ودققت جرس الدور الأول بشدة، وليتنى أدرى لماذا وقفت عند الدور الأول خاصة؟ ولماذا قبضت على حبل الجرس مع أنه يبعد كثيرًا عن الدرج؟

فتحت الباب سيدة فى مقتبل الشباب، فى ثوب رمادى ذى حاشية سوداء، وتأملتنى فترة قصيرة فى دهشة، ثم هزت رأسها قائلة:

"لا، ليس لدينا اليوم شئ"، وظهر عليها أنها تهم بإغلاق الباب.

ترى، لماذا وقعت أيضًا على هذه البنية خاصة؟ إنها تحسبنى بلا شك سائلًا، ودفعة واحدة هدأت أعصابى، وأصبحت لا أبالى بشئ، فخلعت قبعتى، وانحنيت أمامها باحترام، وقلت فى أدب كأننى لم أسمع كلماتها:

"معذرة أيتها الآنسة، لدقى الجرس هكذا بشدة، فلم يكن لى علم به من قبل، أهنا يسكن سيد مريض كان قد أعلن عن رجل لجر كرسيه ذى العجلات؟".

فوقفت برهة تتأمل هذه الاختراعات الملفقة، وظهر على محياها الشك فى شخصى.

ثم قالت: "لا، لا يسكن أحد مريض هنا".

"لا، هو سيد متقدم فى السن، مدة الرياضة ساعتين فى اليوم، بأجر أربعين أورا للساعة؟".

"لا".

فقلت: "إذن أسألك المعذرة مرة أخرى. ربما كان فى الدور الأرضى، إنما أردت أن أوصيه برجل أهتم بشأنه، وقد عرفته صدفة. اسمى فيديل يالسبرج (Wedel Jarlsberg) وانحنيت مرة أخرى، وانصرفت فالتهبت وجنتا البنت بالحمرة، ولم تستطيع حراكًا من مكانها، لشدة ارتباكها، وقفت تحدق فى وأنا أنزل فى الدرج.

وعادت إلى طمأنينتى، وصفا رأسى، فكانت كلمات السيدة: "ليس لدى شئ لك اليوم" بردًا وسلامًا على قلبى، وهكذا ساءَت الأمور إلى حد أنه كان فى استطاعة كل من يرانى أن يقول فى نفسه: هناك يسير سائل، وما هو إلا واحد من أولئك الذين يحصلون على قوتهم من الناس بقرع أبواب المساكن.

وفى شارع مولر (Mollergade) وقفت أمام محل عمومى أستنشق رائحة الطعام الذى يشوى فى داخل المكان، ثم أعملت يدى فى مزلاج الباب أريد الدخول، بدون أن يكون لى عمل هناك، ولكنى ضبطت نفسى فى الوقت المناسب وانصرفت، وعندما بلغت ستورتف (Stortov) أخذت أبحث عن مكان أستريح فيه، إلا أن المقاعد كانت كلها مشغولة، فصرت أُطَوِّف حول الكنيسة بدون جدوى، أنقب عن مكان هادئ يمكننى أن آوى إليه، وقلت لنفسى فى أسى: بالطبع! بالطبع! بالطبع! ثم استأنفت السير، وجلت جولة حول النافورة القائمة عند ناحية السوق، وشربت جرعة من الماء، ثم سرت من جديد إلى الأمام أنقل قدمًا عن قدم، مضيعًا وقتًا طويلًا عند نافذة كل حانوت، ثم أقف وأتبع بعينى كل عربة تمر بى، وأحسست حرارة تشتعل فى رأسى وضربًا غريبًا فى صدغى، وقد أضر بى الماء الذى شربته ضررًا بالغًا، فأخذت أقئ فى الطريق، عن الشمال وعن اليمين، حتى بلغت مدفن المسيح، فأخذت مجلسى، وأسندت مرفقى على ركبتى، وأخذت

رأسى بين يدى، وعلى هذا الموضع المستتر خفت آلامى، ولم أعد أحس فى صدرى ذلك اللذع الضعيف.

وقد انبطح حداد بجوارى على بطنه فوق حجر من الصوان، ينقش عليه أحد الأسماء، وكان يضع على عينيه نظارة زرقاء، فذكرنى فى الحال بصديق كدت أنساه، كان يعمل فى أحد المصارف، وكنت قد التقيت به منذ فترة طويلة فى مقهى أوبلاندسكى.

ليتنى أتغلب على حيائى، فأقصده أو أقص عليه الحقيقة كما هى، فأقول له إن حالى الراهنة قد بلغت من السوء مبلغًا عظيمًا، وإنه ليتعذر على بعد أن أمسك حيائى، وفى استطاعتى أن أعطيه دفتر اشتراكى عند الحلاق.... إلى الجحيم يا دفتر الحلاق! قسائم بما يقرب من الريال! وأخذت أبحث عن هذا الكنز الثمين باهتمام شديد، ولما لم أجده فى الحال انتصبت واقفًا أبحث عنه وأنا غارق فى بحر من عرق الوجل، وفى النهاية وجدته فى قعر جيبى، مع أوراق أخرى لا أهمية لها، مكتوبة وغير مكتوبة، فعددت هذه القسائم الست عدة مرات، من المقدمة ومن المؤخرة، وكأنى لم أكن فى مسيس الحاجة إليها، وربما كان جنونًا منى أو هاجسة من الهواجس أنى لم أعد فى حاجة للحلاقة بعد، لو أنه ساعدنى بنصف ريال أبيض من فضة كنجسبرج (Konigsberg)! ولما كان المصرف يغلق أبوابه فى الساعة السادسة، كان لا يزال فى مكنتى مقابلة الرجل فى المقهى بين السابعة والثامنة.

وجلست هناك مدة طويلة وقد أسكرتنى هذه الفكرة، وأخذ الوقت ينصرم، وكانت الريح تلعب بشجر القسطل حولى، وقد مال ميزان النهار، ترى، أأشعر بشئ من الخجل أن آتى موظفًا فى مصرف بست قسائم للحلاقة؟ فمن يدرى، فقد يكون فى محفظته دفتران غليظان للحلاقة أجمل وأبهى بكثير من قسائمى هذه، وأخذت أبحث فى كل جيوبى لعلى أجد أشياء أخرى يمكن أن أقدمها له مع القسائم، ولكنى لم أجد شيئًا لو أنى أستطيع أن أقدم له رباط رقبتى! ففى طاقتى الاستغناء عنه إذا أنا زررت سترتى، ولا حاجة لى به، فأنا بدون صدار، وفككت رباط الرقبة، وكانَ رباطًا كبيرًا يغطى نصف صدرى، ونظفته بعناية فائقة، ولففته مع

دفتر الحلاقة فى قطعة ورق غير مكتوبة، وغادرت المدفن منحدراً إلى المقهى.

وكانت الساعة السابعة بدار البلدية، فسرت على مقربة من المقاهى أتبختر جيئة وذهوباً، على طول الحاجز الحديدى، ألقى بنظرات حادة على كل من يلج الباب أو يخرج منه، وحوالى الثامنة أبصرت الفتى قادماً فى الطريق فى أناقة ونشاط، وقد مال على باب المقهى فخفق قلبى فى صدرى، كالعصفور الصغير عندما تواجهه، ووقعت عليه فى غير حيطة، وبدون أن أحييه.

وقلت له وقد تظاهرت بالجرأة: "نصف ريال أيها الصديق القديم! وهاك قيمته". ودسست هذه الصُرّة الصغيرة فى يده.

فقال: "ليس لدى، لا، الله يعلم أَن ليس لدى!" وقلب كيس نقوده أمام عينى - "لهوت أمس، فأنا اليوم صفر اليدين، أرجو أن تصدقنى، إنى لا أملك شيئًا".

فأجبته وقد صدقت كلماته: "لا، لا، لا ياعزيزى، فالمسألة أهون من ذلك! ولا داعى للكذب من أجل شئ زهيد كهذا" وبدا لى كأن عينيه الزرقاوين قد دمعتا عندما بحث فى جيوبه ولم يجد شيئًا، وانسحبت قائلًا: "أَرجوك المعذرة! إنما كنت فى ورطة بسيطة".

وكنت قد انحدرت مسافة بعيدة فى الشارع عندما نادانى من أجل صرتى الصغيرة.

فقلت له: احتفظ بها لك، احتفظ بها لك، وليبارك لك فيها! إن بها أشياء تافهة، أشياء زهيدة القيمة، تكاد تكون كل ما أملكه على ظهر الأرض، واضطربت عند تلفظى بهذه الأقوال، فقد رن فيها صوت عدم العزاء فى ذلك المساء المظلم، وأخذت أبكى.

وتحركت الريح، وجرى السحاب فى السماء، وكلما ازداد الظلام ازداد البرد، فسرت أبكى طول الطريق، وأخذت الشفقة على نفسى تتزايد، فأخذت أردد مرات جملة واحدة، وهى صرخة كانت ترسل بدموعى كلما أرادت أن تتوقف: "مولاى وإلهى، ما أسوأ حالى! مولاى وإلهى ما أسوأ حالى!".

وانقضت ساعة، ولكنها انقضت ببطء وفتور لا حد له، وقطعت زمنا طويلًا فى شارع تورف (Torvgade) فكنت أجلس على المدرجات، وأتسلل إلى الأبواب إذا مر بى أحد، ثم أقف أحملق شارد الفكر فى الحوانيت المضيئة، التى كان يسير فيها الناس بالبضائع والنقود، وفى النهاية وجدت لى محلًا أمينًا وراء كومة من الألواح بين الكنيسة والسوق.

لا، ليس فى مقدورى الليلة أن أبلغ الغابة، وليكن ما يكون، ليس لى قوة على هذا، فالشُقة بعيدة لا نهاية لها، ورأيت أن أقضى ليلتى هنا بقدر المستطاع، فأبقى حيث أنا، وإذا اشتد البرد ففى المكنة أن أدور قليلًا حول الكنيسة، إذ لم أعد أهتم بشئ، وعدت فأسندت رأسى، وأغفيت إغفاءة بين اليقظة والمنام.

أخذت الضجة التى حولى تتناقص، وأغلقت الحوانيت أبوابها، وقل وقع خطوات السابلة، وأظلمت النوافذ شيئًا فشيئًا...

ولما فتحت عينى إذ أنا بشبح واقف أمامى يحدق فى، ولم أستطع أن أتبين وجهه، ولكنى رجحت أنه شرطى، من أزراره اللامعة التى كانت تضئ قبالتى.

قال: "عم مساءً".

فأجبته فى وجل: "عم مساءً!" وانتصبت واقفًا مرتبكًا، ووقف الرجل مكانه فترة بدون حراك.

ثم سألنى: "أين تسكن؟".

فذكرت له تبعًا لعادتى القديمة، وبدون تفكير، عنوانى القديم، عنوان غرفتى العليا الصغيرة، التى تركتها، فبقى مدة من الزمن واقفًا أمامى.

فقلت له فى خوف: "هل أتيت أمرًا مخالفًا؟".

فأجاب: "لا، معاذ الله! ولكن عليك أن تعود الآن معافى إلى دارك، فالجو هنا بارد جدًا لا يصلح للرقاد".

"نعم، الجو رطب، وقد أحسسته".

وقلت: "عم مساءً"، وأخذت طريقى بالغريزة إلى غرفتى القديمة، إذا أنا تقدمت فى حذر، فلا شك أنى بالغها بدون أن يسمعنى أحد، فالمسألة

كلها ثمانى درجات، والدرجتان الأخيرتان هما وحدهما اللتان تفرقعان تحت الأقدام.

وخلعت نعلى فى أسفل الدار، ثم صعدت فى السلم، وكان كل شئ هادئًا، وسمعت فى الدور الأول دقات الساعة البطيئة وطفلًا يبكى، ثم لم أعد أسمع شيئًا، ووجدت باب غرفتى فرفعته قليلًا عن مفصله، وفتحته بدون مفتاح، كما هى عادتى، ودخلت الغرفة، ورددت الباب، بدون أن يسمع له صوت.

وكان كل شئ على عجالة كما خلفته، فكانت ستائر النوافذ قد شدت إلى ناحية. وبقى السرير خاليًا. وتمكنت أن أتبين ورقة على المائدة، وقد ظننتها رسالتى إلى صاحبة الدار، فربما لم تأت إلى هنا ولا مرة واحدة منذ غادرتها، فتلمست بيدى الشئ الأبيض، وأشد ما دهشت عندما رأيت أَنَه خطاب، خطاب؟ أخذته إلى النافذة، وتأملت حروف خطه الرديئة، بقدر ما سمح الظلام، وأخيرًا وجدت اسمى عليه، كذا كذا! كنت حسبته ردًا علىّ من صاحبة الدار، تحرم فيه على أن أخطو فى غرفتى فى حالة ما أجدنى مضطرًا للجوء إليها.

عدت فخرجت من الغرفة متباطئًا كل التباطؤ، أحمل حذائى فى يد، وأحمل الخطاب فى اليد الأخرى، متأبطًا الملحفة، أسير بخفة، وأعض على أسنانى، عند الدرجات ذات الفرقعة، ونزلت فى الدرجات كلها محسن الخطا سالمًا، ثم عدت ووقفت عند الباب.

وأعود فألبس حذائى، وآخذ وقتًا طويلًا فى ربطه، وبعد الفراغ منه أجلس فترة ساكنًا، ثم أحدق ببصرى أمامى بدون وعى، وأنا ممسك الخطاب بيدى.

ثم أنهض فأسير.

هناك فى الشارع يشع ضوء مصباح غازى وهاج، فأسير إليه، وأقف تحته، وأسند حزمتى إلى قائمته، وأفتح الخطاب، وكل ذلك كان فى غاية البطء.

فيسرى فى صدرى مثل فيض من نور فأسمع لصوته رنة رخيمة، رنة الغبطة الجنونية، فقد كان الخطاب من رئيس التحرير، قبلت مقالتى، وأرسلت فى الحال للصف!، بعض تصحيحات يسيرة، صححت بعض زلات قلمية.... كتبت بحذق.... ستطبع غداً... عشرة ريالات ....

فضحكت وبكيت، ورجعت أقفز فى الطريق، ثم أقف وأضرب على ركبتى، وأسب وأصخب فى شدة وبلا تدبر، لا لشئ، ولا لسبب، وأخذت الساعات تمضى.

وطفقت أصيح طول الليل فى الطرقات، حتى وضح الصباح، مأخوذاً من الفرح، أعيد فى سرى كتبت بحذق، هى آية صغرى، وميض العبقرية، عشرة ريالات!

الفصل الثانى

وبعد مرور بضعة أسابيع وجدت نفسى ذات مساء فى العراء. وعدت إلى أحد المدافن لأكتب مقالاً لإحدى الصحف، ودقت الساعة عشراً وأنا منهمك فى الكتابة، وهجمت جيوش الظلام، فكان لابد من تغليق الأبواب، وكنت جائعاً، لا بل أتضور جوعاً، فقد نفذت العشرة ريالات للأسف بأسرع ما يمكن، ومضى على الآن يومان وأوشك اليوم الثالث أن ينصرم منذ تناولت قليلاً من الطعام، وأحسست ضعفاً وشيئاً من الإجهاد من جراء الكتابة بالقلم الرصاص، وكان كل ما فى جيبى نصف سكين وحلقة مفاتيح، ولم يكن لدى ولا (أورا) واحداً.

وكان على أن أذهب رأساً إلى دارى عندما أقفلت أبواب المدافن، وهى معمل صفيح مهجور، سمح لى أخيراً بالإقامة فيه فترة من الزمن، ولكن لخوف غريزى من غرفتى التى كان كل شئ فيها مظلماً، أخذت أتسكع بعيداً عنها، وقد انسقت بدون قصد إلى دار البلدية، حتى آخر الميناء، وهناك أخذت مجلسى على مقعد فوق رصيف السكة الحديدية.

ولم يخطر ببالى فى تلك اللحظة أى خاطر مكدر، فقد نسيت بأسائى، وشعرت بالاطمئنان لمشهد البحر الساكن البديع فى ديجور الظلام، وتبعاً لعادتى القديمة أحببت أن أتمتع بقراءة القطعة التى كنت كتبتها ساعتئذ، ولكن بدت لذهنى المكدود كأفضل ما كتب حتى الآن، فتناولت الأصول من جيبى، وقربتها من عينى، كى أتمكن من رؤيتها جيداً، وتصفحتها واحدة بعد الأخرى، وأخيراً ظهر على التعب، فدسست الورقة ثانية فى جيبى، وكان كل شئ حولى سكناً، فالبحر كان كالصدفة الزرقاء، وصغار الطيور كانت تطير أمامى من مكان إلى مكان بدون أن يسمع لها حس، وما عدا الشرطى الذى كان يجول على بعض المسافات لم يكن يرى أحد، فكان الميناء كله فى سكون عميق.

وعدت فعددت ثروتى: نصف سكين، وحلقة مفاتيح، وليس عداهما ولا (أورا) واحد، وأضع يدى بغتة فى جيبى، وأستخرج الورق ثانية، عملية آلية! هزة عصبية بدون وعى، ثم أبحث بينهما عن ورقة بيضاء غير مكتوبة - ويعلم الله وحده كيف خطر لى هذا الخاطر، وصنعت منها قرطاسًا، وأحكمت إقفاله، بحيث يبدو أنه ملآن، وألقيت به بعيدًا على الأسفلت، فحملته الريح إلى مسافة أبعد، وهناك بقى فى مكانه.

وابتدأ الجوع يعضنى بأنيابه، فجلست مكانى أنظر إلى هذا القرطاس الأبيض، الذى خيل إلى أنه قد ملئ بالعملة الفضية البيضاء، وأخذت أعمل على إقناع نفسى بأن به شيئًا بالفعل، فاعتدلت فى جلستى، وأخذت أغالط نفسى، لأحزر مقدار ذلك المبلغ، وأقول لها: إن أنا صدقت فى حزرى فالمبلغ لى! وتصورت القطع ذات العشرة أوروات الصغيرة الدقيقة فى القعر، وفوقها الريالات السميكة المضلعة، خلت القرطاس بأسره مملوءًا بالعملة! فجلست أنظر إليه بعينين مفتوحتين، أحرض نفسى على الذهاب إليه واختلاسه.

ثم أسمع الشرطى يسعل، ولا أدرى كيف خطر لى أن أفعل فعلته، فانتصب واقفًا من مقعدى، وأسعل، وكررت هذا ثلاث مرات، كى يسمعه، ما أبدعه يقع على القرطاس إذا بلغه! وطربت لهذه المهزلة، وأخذت أقلب يدى من الجذل، وأسب وأصخب وأقول: فليلو وجهه الكلب! ومقره قاع الجحيم جراء حيلة الخبث هذه! وكنت ثملًا من الجوع، فقد أصبت منه بنشوة.

وبعد بضع دقائق جاء الشرطى يدب بعقبه الحديدى على الأسفلت، يعس فى الطرقات، وكان يمشى الهوينا، فقد كان الليل طويلًا أمامه، فلم يره قبل أن يقترب منه تمامًا، ثم توقف عنده، وطفق يتأمله، إنه ليظهر فى موضعه ناصع البياض، وذا قيمة نفيسة، فما عسى أن يكون به، ربما كان به مبلغ يسير، فكم يكون؟ مبلغ يسير من العملة الفضية؟ ثم رفعه، إنه خفيف، إنه فى منتهى الخفة، لعل به ريشًا نفيسًا مما تُحلّى به القبعات... وفتحه بعناية بيديه الضخمتين، ونظر فيه، فضحكت، أخذت أضحك

وأضرب بيدى ركبتى ضحكت ضحك المخبول، ولكن لم يخرج صوت من حلقى، فقد كان ضحكًا مكتومًا، ضحكًا من القرارة أشبه بالبكاء...

ثم عاد يسمع دبيبه على الأسفلت، وعرج إلى الميناء، وجلست مكانى أشهق، والدمع فى عينى من فرط السرور، وابتدأت أتكلم بصوت عال، فأقص على نفسى شيئًا من قصة القرطاس، مقلدًا حركات ذراعى الشرطى محدقًا فى كفى، ومكررًا المرة بعد المرة وبدون انقطاع: "سعل عندما ألقى بالقرطاس! سعل عندما ألقى بالقرطاس" وزدت على هذه العبارة شيئًا جديدًا، أضفت إليها إضافة رائعة، ثم أصلحتها وهذبتها فى النهاية يسعل: كؤ، كؤ!

وكددت ذهنى فى تبديل وإصلاح هذه العبارة، وانقضى هزيع من الليل قبل أن تقف غبطتى عند حد، وغلب على سكون النعاس؛ تراخ ظريف لم أقو على مقاومته، وساد الكون شئ من الظلام، وشق النسيم العليل طريقه من البحر، وبدت السفن القائمة سواريها تجاه السماء مع هياكلها السوداء كالوحش الصامت، وقف شعره وقد رابط ينتظرنى، ولم أحس أثرًا للآلام، وخمد الجوع، وأحسست مكانه راحة الخلو، وأطربنى أنى كنت منقطعًا عن كل ما حولى، غير مرئى من أحد، فمددت ساقى على المقعد، وأسندت رأسى عليه، فوجدت الطمأنينة الكبرى للوحشة على هذا الوضع، ولم يكن فى نفسى أية غضاضة، ولا إحساس للأسى، وبقدر ما أستطيعه من التفكير لم تكن لدى شهوة أو رغبة لم أشبعها، فرقدت بعينين مفتوحتين فى حالى غيبوبة، ووجدتنى فى عالم آخر معافى.

ولم يصل بعد إلى أذنى ذلك الصوت الذى يمكن أن يزعجنى، وقد أخفى الظلام الرطب العالم بأسره عن عينى، ودفننى هنا فى سكون تام وليس ثمة شئ غير صخب الوحشة يرن فى أذنى على وتيرة واحدة، وإذا جن الليل ستجذبنى هذه الوحوش السوداء، القائمة فى العراء إليها، وستحملنى بعيدًا عن البحار إلى أرض نائية غير مقطونة بإنسان، ثم يأتون بى إلى قصر الأميرة يلايالى (Ylayali) حيث ينتظرنى نعيم لم يمر ببال بشر، وستجلس بنفسها فى بهو مضاء، صنع جميعه من البلور الملون، على عرش من الورد الأصفر، وستمد لى يدها عند مقدمى،

وتحيينى وتؤهل بى عندما أقترب منها، وأركع أمامها: حَلَلْتَ أهلًا... ونزلت عندى فى بلادى سهلًا أيها الشهم! لقد انتظرتك منذ عشرين صيفًا، وفى الليلات الوضيئة ناديتك، ولما كنت تكون متكدر الخاطر كنت أبكى هنا، ولما تنام كنت أنفث فيك الأحلام الطيبة...

وتتناول الحسناء يدى، فأتبعها، فتقودنى ى مداخل مستطيلة، حيث تناديها جيوش من الناس: طوبى! طوبى! إلى حدائق، حيث يوجد ثلاث مائة يلعبن ويتضاحكن، وندخل فى صالة أخرى، حيث كل شئ من الزبرجد الوضاء، وتغمر الشمس المكان، وتسمع جوقات المرنمين فى الأروقة والصالات، وتصدمنى سيول من العطور، فأمسك يدها فى يدى، فأحس بقوة عظيمة من السحر تسرى فى دمى، فأسند ذراعى، فتهمس قائلة: ليس هنا، اتبعنى! فتدخل فى الصالة الحمراء، حيث كل شئ فيها من العقيق الأحمر، فأرى نعيمًا كبيرًا، أغرق فيه إلى الآذان، فأحس بذراعها يطوقنى، فتتنفس فى محياى، وتهمس أهلا بك أيها الحبيب! قبلنى! زدنى... زدنى...

أرى من مقعدى نجومًا أمام عينى، فتسرح أفكارى فى إعصار من النور...

وكنت غارقًا فى النوم فأيقظنى أحد الشرطة، فجلست وكأنى بعثت بعنف إلى الحياة والشقاء. وكانت دهشتى لوجودى فى العراء دهشة جمود فى أول الأمر، ولكن سرعان ما انقلبت خيبة مرة، فكدت أبكى أسفًا، لأنى لا أزال على قيد الحياة، وكانت السماء قد أمطرت فى أثناء إغفائى، فنفذت البلولة إلى ملابسى، وأحسست ببرودة قاسية فى أضلاعى، وأخذ الظلام يمد رواقه، فتمكنت بصعوبة من رؤية ملامح الشرطى الواقف أمامى.

قال: "كذا،ذا، ذا، قم فانهض!".

فنهضت فى الحال، ولو أمرنى أن أعود فأرقد لأطعته أيضًا، فقد كنت ضيق الصدر، خائر العزيمة، أضف إلى هذا أنى ابتدأت فى هذه اللحظة أحس الجوع ثانية.

وصاح بى الشرطى: "انتظر قليلًا، الغبى ينسى قبعته! كذا، ذا، ذا، الآن سر!".

وقد بدا لى كذلك كأنى نسيت شيئًا بالفعل، فقلت متلعثمًا وفى حالة غيبوبة: "أشكرك، عم مساءً".

وعدت إلى التسكع ثانية.

لو أنى أملك قطعة صغيرة من الخبز فقط! رغيفًا صغيرًا من خبز الجويدار العظيم، الذى يمكن القضم منه فى أثناء المسير فى الطرقات. واستأنفت السير، وأخذت أتصور هذا النوع العجيب من خبز الجويدار، الذى كان يكون الأكل منه الآن شيئًا بديعًا. وكنت أتضور من الجوع، فتمنيت لو أنى مت وعفى أثرى، وتحركت عواطفى، فبكيت. فإن شقائى لم يشأ أن يقف عند حد! ووقفت مرة واحدة فى الطريق، وأخذت أدب على الأسفلت، وأسب بصوت عال، بأى شئ دعانى الشرطى؟ غبى؟ سأرى هذا الشرطى، كيف يدعونى بالغبى! وعدت أدراجى أجرى، وكنت أتقد غضبًا، فعثرت عند نهاية الشارع، فسقطت على الأرض، ولكنى لم أهتم لذلك، وعدت أثب جاريًا، ولم أكد أبلغ ميدان المحطة، حتى صرت تعبًا، بحيث وجدتنى فى حالة لا تسمح لى بالعودة ثانية إلى الميناء، كما أن ثائرتى قد هدأت فى أثناء جرى، فوقفت آخذ نفسى، وأخيرًا ألا يستوى ما يقوله هذا الشرطى برد نعم، ولكنى مع ذلك لن أترك المسألة تمر كذلك! ثم أقاطع نفسى بنفسى! الغاية، هو مبلغ فهمه ! ووجدت هذا الاعتذار مرضيًا، فأعدت على نفسى: هذا هو مبلغ فهمه، وعلى ذلك عدت أدراجى.

وأخذت أفكر غاضبًا: إلهى أنى لى أن أدرك هذا! وكيف لى أن أسير فى هذه الطرقات المبللة من المطر كالمخبول فى حلك الليل! وعضنى الجوع بأنيابه، فاستسغت ريقى المرة بعد المرة لأشبع نفسى بهذه الطريقة، وقد ظهر فيها شئ من العون، وقبل أن تصل بى الحال إلى هذا الحد، كان قد مضى على عدة أسابيع لم أتناول فيها إلا قليلًا من الطعام، فتناقصت قواى فى الأيام الأخيرة تناقصًا كبيرًا، وكنت إذا حالفنى الحظ وحصلت بشق النفس على خمسة ريالات بهذه المحاولة أو تلك، لم تكن تكفى قط لإنعاشى قبل أن تهاجمنى المجاعة، فتشلنى. وآلمنى ظهرى

ومنكبى جد الألم، وأما ذلك الحز البطئ الذى يحز فى صدرى، فقد كان فى استطاعتى مكافحته مؤقتًا إذا سعلت بشدة، أو انحنيت، بانتظام ولكن ألم الظهر والمنكبين لم أجد لى معه حيلة، ليتنى أدرى لماذا كتب على ألا أرى يومًا صحوًا؟ أوليس لى كذلك الحق فى الحياة كأى إنسان آخر، كالباشا (Pasha) بائع الكتب القديمة، أو هينيشن (Hennechen) الشحان؟ أوليس لى مثلًا منكبان كمنكبى الجبار، وذراعان قويان للعمل، أو ترانى لم أبحث عن عمل فى قطع الأخشاب فى شارع مولر (Moller) لأكسب قوت يومى؟ أو كنت كسلان؟ أو لم أبذل جهدى فى الحصول على وظيفة، واستمعت للمحاضرات، وكتبت مقالات للصحف، ودرست واشتغلت ليل نهار كالمخبول؟ أو لم أحى حياة شح على الخبز واللبن فى اليسر، وعلى الخبز وحده فى العسر؟ وإذا صفرت يدى تضورت جوعًا؟ ترى، هل سكنت يومًا فى فندق، أو اتخذت لى جناحًا فى الدور الأول فى إحدى الدور؟ لقد سكنت فى مخزن، وفى معمل صفيح، فر الناس منه فى الشتاء الماضى، هربًا من قسوة قره، ألحق أنى لم أعد أستطيع إدراك كل هذا!

فكرت فى كل ما مر بى. غير أنه لم يكن ثمة ذرة من الضغينة أو الحقد أو الغضاضة فى نفسى.

ووقفت عند حانوت صباغ، ونظرت فى نافذته، وعالجت أن أقرأ عناوين بعض الصناديق المحكمة السد، ولكن الظلام كان مخيمًا، فحنقت على نفسى لهذا الخاطر الجديد، وضربت النافذة مرة فى ثورة غضبى، لأنى لم أستطع أن أتبين مخبآت هذه الصناديق. واستأنفت المسير، وفى أعلى الشارع رأيت شرطيًا، فأسرعت الخطا، حتى صرت ملاصقًا له، وقلت له، بدون أدنى سبب:

الساعة عشر.

فأجاب مندهشًا: "هى، لا، هى الثالثة".

فقلت: لا، الساعة عشر، الساعة عشر، وتقدمت إليه بضع خطوات مزمجرًا، وكورت يدى، وقلت : "اسمع، فلتعلم أنها الساعة العاشرة،":

فوقف مكانه يفكر مليًا، ثم تأمل شخصى ثم حدق فى مذهولًا، وأخيراً قال وهو هادئ غاية الهدوء:

"على أية حال، حان الوقت الذى تذهب فيه إلى دارك، أو تحب أن أصحبك إليها؟".

فكسرت رقته من حدتى، وأحسست الدموع فى عينى، فأسرعت بالجواب:

"لا، أشكرك! إنما تأخرت قليلًا فى بعض مشارب القهوة، أشكرك كثيراً".

فوضع يده على قبعته عند انصرافى، وغلبتنى رقته على أمرى، وبكيت، لأنى لا أملك خمسة ريالات كنت أُعطيها له، وبقيت واقفًا أنظر إليه وهو يقطع الطريق متباطئًا، ولطمت جبهتى، وكلما ابتعد عنى زاد بكائى، وعنفت نفسى على الضر الذى أعانيه، وخلعت عليها صفات تهكمية، فاخترعت لى ألقاباً جارحة، وأمطرت نفسى بهذه الاختراعات الطريفة الطلية من ألقاب التعنيف، واستمررت على هذه الحال، حتى اقتربت من الدار، ولما بلغت بابها اكتشفت أنى فقدت مفاتيحى.

فقلت لنفسى ممرورًا: "نعم، طبعًا! لماذا لا أفقد المفتاح؟ ألست أسكن هنا فى دار، الدور الأرضى منها اصطبل، والدور الأعلى مصنع صفيح، وبابها يغلق فى الليل، فلا يمكن لأحد فتحه؟ فلماذا لا أفقد المفتاح؟ ألست مبللًا كالكلب وبى شئ من الجوع، شئ قليل، وبركبتى بعض التعب الذى لايؤبه له - فلماذا لا أفقد المفتاح أيضًا؟ وعدا ذلك، فلم لا تنتقل الدار بأسرها إلى أكر (Aker) عندما أريد الدخول فيها؟... وضحكت فى سرى، وقد جمدت فى مكانى من الجوع والانحطاط.

وسمعت حوافر الخيل داخل الإصطبل، وتمكنت من رؤية نافذتى العليا، غير أنى لم أقو على فتح الباب والولوج فيه، فعقدت العزم على العودة إلى الميناء، على رغم تعبى ومرارة نفسى، لأبحث عن المفاتيح.

وعادت السماء تمطر، وشعرت بالماء يجرى بالفعل على منكبى، وخطر لى خاطر طيب عند دار البلدية، أن أسأل رجل البوليس أن يفتح لى الباب،

وفى الحال قصدت شرطيًا ورجوت منه فى إلحاح أن يأتى معى لمساعدتى على فتح الباب إذا كان فى مكنته.

نعم إذا كان فى مكنته! ولكنه ليس فى مكنته، فليس لديه مفاتيح، مفاتيح البوليس ليست هنا، إنها فى قسم البوليس السرى، فماذا أصنع إذن؟

أن أذهب إلى أحد الفنادق، وهناك أرقد ليلتى؟

أذهب إلى أحد الفنادق، ولكن هذا ليس فى مقدورى، إذ ليس لدى نقود. فقد تأخرت الليلة فى مقهى.. ومفهوم جيداً أن!..

ووقفنا برهة قصيرة على سلم دار البلدية، وأخذ الشرطى يفكر ويتدبر فى الأمر ويتأملنى وكان المطر يهطل فى الخارج.

ثم قال: وعليه يلزمك أن تذهب إلى (النوبتجى) وتذكر له أنك بدون مأوى.

بدون مأوى؟ وهذا ما لم يخطر لى على بال. أى نعم، ياللشيطان، إنها لفكرة طيبة! وشكرت فى الحال للشرطى نصيحته الثمينة هذه. كل ما أحتاجه أن أذهب ببساطة إلى هناك وأقول: أنا بدون مأوى؟

بمنتهى البساطة!

وسألنى (النوبتجى): ما اسمك؟

طانجن (Tangen) - أندريا طانجن (Andreas Tangen).

ولا أدرى لماذا كذبت؟ فقد حَلّقَت أفكارى فى الفضاء، وهدتنى إلى عدة تصورات كان فى مكنتى استخدامها، فتذكرت فى الحال هذا الاسم المستبعد، وألقيت به بدون حساب. كذبت بدون حاجة للكذب.

المهنة؟

فسد هذا السؤال على الباب، حسنًا، وقد ظننت فى أول الأمر أن أعمل منى.

صانع صفيح، ولكنى لم أخاطر فقد أعطيته اسماً لا يحمله صُنّاع الصفيح، وعدا ذلك فإنى أحمل نظارة فوق أنفى، فرأيت أن أتواقح، فتقدمت خطوة إلى الأمام، وقلت فى ثبات وثقة:

صحفى.

فانكمش (النوبتجى) فى نفسه قبل أن يكتب، ووقفت بعظمة أمام الحاجز، كأنى عضو فى مجلس البلاط لا مأوى له. ولم أثر أى شك، فقد حمل النوبتجى ترددى فى الجواب على محمل حسن، وليت شعرى، كيف يكون حال صحفى فى دار البلدية بدون مأوى!

بأية صحيفة يا سيد طانجن (Tangen)؟

فقلت بصحيفة المورجنبلاط (Morgenblatt) آسف لتأخرى الليلة قليلاً...

فقاطعنى: نعم، لا نود أن نتكلم فى هذا الموضوع، ثم زاد على ذلك وهو يبتسم: إذا خرج الشباب للتسلية، إذن نفهم. والتفت إلى أحد الشرطة، وقال: وقد نهض واقفاً، وانحنى فى أدب أمامى : ارشد السيد إلى القسم المخصوص. عم مساءً.

فأحسست ببرودة تسرى فى ظهرى لقحتى، ولكى أتشجع كورت يدى عند الانصراف. لو أنى لم أخلط المورجنبلاط فى الأمر! فأنا أعرف أن فريلا (Friela) رئيس التحرير سيحرق أسنانه إذا علم بذلك، وذكرنى صرير المفتاح فى القفل بصوتها.

وقال الشرطى وهو لدى الباب: هذا الغاز يظل يشتعل عشر دقائق. ويطفأ بعد ذلك؟

فجلست على الفراش أستمع كيف أدير المفتاح فى الباب. وبدت لى غرفة السجن (الزنزانة) الوضيعة ممتعة، فقوت عزيمتى، وحسبتنى فى دارى، وأخذت أصغى للمطر فى الخارج بلذة شديدة، ولم أكن لأتمنى شيئاً أفضل من (زنزانة) جميلة كهذه! وتزايد إغتباطى، وكان لابد لى أن أفكر - وأنا جالس على السرير، وقبعتى فى يدى، وعينى على ضوء الغاز

المثبت فى الحائط - فى اللحظات الأولى لمقابلتى لرجل الشرطة، اللحظات الأولى، وكيف سلكت هذا المسلك الجنونى! الصحفى طانجن؟ ماذا من فضلك؟ ثم المورجنبلاط! وكيف أصبت الرجل فى قلبه بالمورجنبلاط، لا نريد أن نتحدث فى هذا الموضوع! كان جالساً بكامل ثباته فى حديقة ستيف (Stifs garden) حتى الساعة الثانية، ونسى المفتاح ومحفظة نقوده مع بضعة آلاف من الريالات فى الدار. أرشد السيد إلى القسم المخصوص..

وانطفأ الغاز فجأة، فجأة بدون أن يتناقص أو يتقلص، أجلس فى ظلام دامس، لا أستطيع أن أرى يدى، لا، ولا الحيطان البيضاء التى حولى، لا أرى شيئًا، فلم يبق أمامى شئ آخر سوى الدخول فى الفراش فخلعت ملابسى.

ولكنى لم أستطع النوم. وبقيت مدة طويلة راقداً أحدق فى الظلام فى قطعة الظلام الكثيفة التى لا غور لها. والتى لا أستطيع إدراكها، فقد كانت أفكارى قاصرة عن تصورها، فلقد كانت ظلمة فوق كل الظلمات. فشعرت بانقباض فى نفسى. فأغمضت عينى، وألقيت بنفسى على السرير، وابتدأت أُغَنّى بصوت خافت، كيما أسرى عنى، ولكنى عبثًا حاولت. فقد تملكت الظلمة أفكارى، ولم تتركنى لحظة واحدة فى أمن. فكنت كأنى قد ذبت فيها، وصرت وإياها واحداً، فاعتدلت فى السرير، وأخذت أضرب بذراعى حولى.

وطغت العصبية على، فأخذت أعالج الدفاع عن نفسى بكل قواى، ولكن هذا لم يجدنى نفعاً، إذ كنت فريسة للتخيلات الغريبة، وأردتَ أن أطمئن نفسى، وأدخل عليها الأمن، حتى سال عرقى من شدة الجهد، فحدقت فى الظلام، ولم أر فى حياتى ظلمة كهذه من قبل، ولم أشك فى أنى أواجه نوعًا خاصًا من الظلام، عنصراً سيئًا مما لم يخطر ببال أحد، وشغلتنى الأفكار السخيفة، وأخافنى كل شئ، فأخذ جانبًا عظيمًا من وقتى ثقب صغير فى الحائط قرب سريرى، فتصورت ثقب المسمار الصغير، هذا الذى وجدته فى الحائط، علامة على شئ ما، فتحسسته ونفخت فيه، وأخذت أحزر عمقه. إنه ثقب غير برئ بالمرة، لا، لا، إنه ثقب مملوء بالأسرار، وعلى أن أحمى نفسى منه، وذهبت بى الأفكار بشأن هذا الثقب كل مذهب،

فكان على فى النهاية أن أنهض من فراشى فى ثورة من الخوف والفضول، وأبحث عن نصف سكينى، كى أسبر به عمقه، أتحقق من أنه لا ينفذ إلى (الزنزانة) المجاورة.

وعدت فرقدت محاولًا أن أنام، وفى الواقع معاوداً الكفاح مع الظلام، وانقطع المطر فى الخارج، ولم أعد أسمع أى صوت بعد، وبقيت زمنًا طويلًا أتسمع وقع الأقدام فى الشارع، ولم يهدأ لى بال حتى سمعت وقع قدم أحد المارة، فأمكننى الحكم من خطواته على أنه أحد الشرطة، وفجأة شمرت عن ساعدى عدة مرّات، وطفقت أضحك، إلى الشيطان هو أيضًا! ها - ثم تصورت أنى قد وجدت كلمة جديدة، فاعتدلت فى سريرى وقلت: "كوبوءا". هذه كلمة لا توجد فى معاجم اللغة، قد اخترعتها، إنها تتألف من حروف هجائية، ككل كلمة أخرى، وأقسم بالله العزيز أنى قد وفقت لاختراع كلمة.. كوبوءا.. وأنها لذات مغزى كبير فى النحو.

وقامت هذه الكلمة أمامى فى الظلام فى غاية الوضوح.

فجلست مكانى بعينين مفتوحتين مندهشًا لاختراعى، أضحك من شدة الجذل، ثم ابتدأت أهمس: ربما يسمعنى أحد، مع أنى أفكر فى الاحتفاظ باختراعى سرًا. وكنت فى ذلك الوقت قد وقعت فى هذيان الجوع، وشعرت بخلو المعدة وخلوى من الآلام، كما كانت أفكارى بلا ضابط، وأخذت أتشاور مع نفسى فى هدوء، وأخذت أبحث بين تقلبات الفكر العجيبة عن معنى أضعه لكلمتى الجديدة، ليس ثمة من داع لوضعها علمًا على "الله" أو على "تيفولى" (Tivoli). وفى حنق كورت يدى، وقلت مرة أخرى: من ذا الذى قال إنه لابد أن يفهم منها معرض الحيوانات؟ ولما قلبتها على جميع النواحى لم أجد أنها تدل على "قفل" أو على "مطلع الشمس"، وأن ليس من الصعب إيجاد معنى لكلمة كهذه، فلأتمهل قليلًا، ولابد أنى واقع على المعنى المطلوب، وفى خلال ذلك أستطيع أن أنام.

رقدت على السرير أضحك فى خفوت، ولا أقول شيئًا، متجنبًا القطع فى الأمر، وانقضى بضع دقائق صرت بعدها عصبى المزاج، فقد ضايقتنى الكلمة الجديدة بدون انقطاع، وأخذت تعودنى باستمرار، وتملكت من

حواسى، ومع كل ذلك لم أقطع بعد فيما يجب أن تدل عليه. هذه مسألة ثانوية! أقول لنفسى بصوت عال، وأنا أمسك ذراعى وأكرر هذه مسألة ثانوية، المهم أن هذه الكلمة قد وجدت والحمد لله. ولكن التفكير قد ضايقنى إلى ما لا نهاية، وعاقنى عن الرقاد، ولم يرضنى شئ لهذه الكلمة الغريبة العجيبة "الهجرة" "مصنع دخان"! إن أحداً لا يستطيع أن يضعها على هذا المسمى، ولو صح أنها تفيد شيئاً من ذلك لقضيت به منذ زمن طويل، وتحملت المسؤولية على عاتقى؛ لا، ففى الواقع أنه يفهم منها شئ يتناسب مع الروح، أو الإحساس، أو الحال - ألم يكن فى مكنتى إدراك هذا؟ وأخذت أفكر فى إيجاد شئ روحى، فأتخيل فجأة أن أحداً يتحدث إلى، ويتدخل فى شؤونى، فأجيب غاضباً: من فضلك، ماذا؟ لا، إن الدهر لن يسمح بأحمق مثلك! غزل الحياكة، ليكن مثواك الجحيم! فلأضحك. ومن ذا الذى يضطرنى لأن أضعها على غزل الحياكة ما دمت لا أرضى هذه التسمية؟ أنا وحدى قد اخترعت هذه الكلمة، فمن حقى وحدى أن أصوغ لها المعنى. وهذا ما أريد. وعلى ما أعلم فإنى لم أقطع فى المسألة بشئ بعد.

ولكن ذهنى أخذ باستمرار يزداد ارتباكاً. فقفزت فى النهاية من السرير أبحث عن حنفية الماء، ولم يكن بى ظمأ، ولكن رأسى يكاد يحترق من الحمى، وأحسست بالغريزة إلحاحاً نحو الماء، ولما شربت عدت إلى السرير، وحاولت بالقوة أن أنام، فأغمضت عينى، واضطررت نفسى إلى السكون. ورقدت على هذه الحال بدون حراك عدة دقائق، فغرقت فى بحر من العرق، وأحسست الدم يندفع فى عروقى بشدة. لا، لقد كان مليحاً حقاً أن يبحث عن نقود فى القرطاس! لقد سعل مرة واحدة. تراه ذهب هناك؟ وجلس على مقعدى.. الصدفة الزرقاء... السفن.....

وفتحت عينى وأنى لى أن أثبت على إغماضها وأنا لا أستطيع الرقاد! وقد خيم على نفسى الظلام، تلك الظلمة الأبدية الحالكة البعيدة الغور، التى حاول أن يعلوها فكرى ولم يقو على إدراكها. وياليت شعرى بأى شئ يمكن مقارنتها؟ بذلت جهود الجبابرة لأجد لفظاً يكون من السواد بمكان، لوصف هذه العتمة، لفظاً أسود قاتماً يسود فمى عند لفظه. مولاى، كم كانت الدنيا مظلمةً وأعود، فأتذكر الميناء والسفن وهذه الوحوش

السوداء الجاثمة هناك تنتظرنى، والتى وددت أن تجذبنى إليها، فتقبض على، وتقلع بى فوق الأرض، وعبر البحر، وفى أراض مظلمة لم يرها إنسان. وأحس أنى على ظهر السفينة يجذبنى الماء إليه، أترجح فى العراء هابطًا، هابطًا.. فصدرت عنى صرخة فزع خشنة، وتشبثت بالسرير. فقد قمت برحلة خطرة كنت فيها حزمة فى مهب الريح. وعندما ضربت بيدى على السرير الخشن أحسست النجاة! وقلت فى نفسى: هذا هو الموت. فلأمت الآن! ورقدت فى مكانى برهة طويلة، وطفقت أفكر فى ضرورة موتى الآن. ثم اعتدلت فى فراشى أتساءل فى شدة: من ذا الذى قال: إنه لابد لى أن أموت؟ إذا أنا اخترعت هذا اللفظ فمن حقى وحدى أن أقرر مدلوله... وأدركت أنى أسرحِ فى عالم الخيال، وما زلت أدركه بينما كنت أتحدث لنفسى. وكان خبلى عبارة عن هذيان الضعف والهزال، ومع ذلك لم أفقد رشدى. وأصابتنى بصدمة فى مخى فكرة أنى قد صرت مخبولًا. فغادرت السرير وقد تملكنى الرعب أترنح نحو الباب أحاول فتحه، فألقى بنفسى عليه عدة مرات كيما أزحزحه عن مكانه، وأنطح الحائط برأسى، وأولول بصوت عال، أعض أصابعى، وأبكى وأسب.

وكان كل شئ ساكنًا. ولم يكن من حس سوى صوتى ترجعه الحيطان. فخررت على الأرض عاجزًا عن الاستمرار فى (الزنزانة) فى ثورة غضبى؛ ولمحت فوقى وقبالة نظرى مربعًا رماديًا ذا لَوْن أبيض، وميض - ضوء النهار - وما كدت أشعر به أنه ضوء النهار، حتى تشربته بكل مسام جسدى. فتنفست الصعداء وكيف تنفست! انطرحت على الأرض أبكى من الفرح لوميض النهار المبارك. وولولت من الشكر، وطفقت أرسل القبلات فى الهواء قبالة النافذة أخدع نفسى كالمجنون. وكنت فى تلك اللحظة أعى كذلك ما أصنع.. وقد انصرف عنى كل وهن دفعة واحدة، وتوقف كل يأس وألم، وعلى ما أذكر لم يكن لدى فى تلك اللحظة أية أمنية لم تشبع، فاعتدلت على الأرض، وشبكت يدى أنتظر بفارغ الصبر طلوع النهار.

وأخذت أفكر مندهشًا: يا لها من ليلة! تلك التى لم يسمع فيها صوت ما! ولكنى كنت برغم ذلك فى القسم المخصوص، فوق كل المساجين، ومستشار مجلس البلاط الذى لا مأوى له، إذا جاز لى أن أستخدم هذا

التعبير، وبينما أن ملق بنظرى على زجاج النافذة، الذى أخذ يظهر لى جليًا شيئًا فشيئًا، أخذ مزاجى يصفو باستمرار، فأخذت أسرى عن نفسى بتمثيل دور مستشار البلاط. ودعوت نفسى طانجن، وخلعت على حديثى أسلوب الدواوين، ولم تقف تصوراتى عند حدٍّ. غير أن عصبيتى قلت عما كانت من قبل، لَوْ لَم يكن لدى عادة السهو المؤسفة، فأنسى محفظة نقودى فى الدار! أو يسمح لى بالتشرف بأن أقدم لحضرة مستشار البلاط فراشًا؟ ثم ذهبت إلى الفراش فى منتهى الجد، وفى كثير من الحفاوات، ورقدت عليه.

ووضح النهار بحيث كان فى مكنتى أن أرى إلى حد ما شكل (الزنزانة) وسرعان ما تمكنت من رؤية قبضة الباب الثقيلة، فسرى عنى هذا، فقد تحطمت هذه العتمة المملة الكثيفة المثيرة، التى عاقتنى عن النظر، وأخذ يهدأ دمى، وسرعان ما أحسست عينى تغمضان.

وَأيْقَظَتْنى بضعة طرقات على الباب. وبأسرع ما يمكن قفزت من فراشى، وارتديت ملابسى، وكانت لا تزال مبللة من مساء أمس.

قال الشرطى: لابد لك من مقابلة (النوبتجى) فى الدور الأسفل.

ففكرت منزعجًا: إذن توجد رسميات أخرى لابد من إتمامها.

ودخلت فى الدور الأسفل غرفة فسيحة يجلس فيها ثلاثون أو أربعون شخصًا، كلهم بلا مأوى. وكان يُنادى عليهم واحدًا بعد واحد من دفتر القيود، ليأخذ كل واحد منهم قسيمة بوجبة طعام. وكان (النوبتجى) يقول باستمرار للشرطى الذى على جانبه:

"هل أخذ قسيمة؟ نعم، لا تنس أن تعطيهم القسائم، يظهر عليهم أنهم فى حاجة إلى وجبة من الطعام".

ووقفت مكانى أنظر إلى هذه القسائم، وتمنيت واحدة منها.

"(أندريا طانجن) الصحفى!".

فتقدمت إلى الأمام وانحنيت.

"ولكن قل يا عزيزى: ومن جاء بك إلى هنا؟".

فشرحت له القصة بأكملها، وأعدت قصة أمس عينها على أحسن ما يكون، وكذبت بعينين مفتوحتين لا يطرف لهما طرف. كذبت بإخلاص! آسف فقد تأخرت قليلًا فى أحد المقاهى وفقدت مفتاح الباب.

فقال مبتسمًا: "نعم، مثل هذا يحدث أيضًا! تُرى طاب لك النوم؟".

فأجبت : "كمستشار البلاط!". كمستشار البلاط.

فقال وقد هم واقفًا: "لقد سرنى ذلك، عم صباحًا".

وانصرفت.

قسيمة واحدة، قسيمة واحدة لى أيضًا! فمنذ ثلاثة أيام وثلاثة ليال طوال لم أتناول شيئًا من الطعام. رغيف واحد! ولكن أحدًا لم يقدم لى قسيمة. ولم أجرؤ على طلب واحدة منها حذر أن أثير الريبة حولى. فقد يتدخل بعضهم فى شؤونى الخصوصية، فيتعرف حقيقة أمرى - وغادرت دار البلدية ويدى فى سترتى رافع الرأس أسير سير صاحب الملايين.

وقد نشرت الشمس حرارتها. وكانت الساعة العاشرة. وكانت الحركة فى ميدان يونج (Yougs Lorvet) على أشدها، إلى أين أذهب؟ فأضرب على جيبى أتحسس أصول مقالى، فقد كنت أريد أن أعالج مقابلة رئيس التحرير فى الساعة الحادية عشرة، ثم أقف فترة فوق السور أراقب الحياة من تحتى، وفى غضون ذلك أخذت ملابسى تتبخر، وعاودنى الجوع، وقرصنى فى صدرى، وتحرك فى أحشائى، فأصابنى بقرصة صغيرة رقيقة أوجعتنى، أحقًا أن ليس لى صديق واحد ومعرفة يمكننى أن أقصده؟ أبحث فى ذاكرتى لعلى أجد رجلًا يمكن أن يقرضنى عشرة (أورات) فلا أجد. ولقد كان يومًا بهيجًا، فالشمس والضوء يغمراننى من كل ناحية، وقد تماوجت السماء كالبحر الهادئ فوق الجبال.

وأخذت طريقى إلى الدار عن غير قصد.

وكنت فى شدة الجوع، فتناولت قطعة خشب من الطريق ألوكها فى فمى، وقد أفادتنى بالفعل، ويا ترى، كيف أنى لم أفكر فيها من قبل.

وكان باب الدار مفتوحًا، فحيانى خادم الاصطبل تحية الصباح كعادته وقال: "جو بديع!".

فأجبته: "نعم" ولم أعرف شي آخر أقوله. ترى هل فى المكنة أن أسأله فى لطف أن يقرضنى ريالًا؟ إنه سيصنع ذلك بلا شك عن طيبة خاطر إذا قدر عليه. وعدا ذلك فإنى كنت قد كتبت له فى مرة من المرات خطابًا.

ووقف مكانه يبتلع ريقه، على شئ كان يريد أن يقوله.

"جو جميل أيها السّيد! أى نعم، لابد لى أن أدفع اليوم كراء الدار فهل تتفضل وتقرضنى خمسة ريالات، ماذا؟ فقط لبضعة أيام. وقد سبق لك وصنعت معى معروفًا".

فأجبته: "لا، الواقع أنى لا أقدر يا ينس أولاف (Yens Olaf) الساعة لا. ربما مؤخرًا، ربما فى العصر". وعلى ذلك صعدت فى السلم إلى غرفتى وأنا أترنح.

وهناك ألقيت بنفسى على السرير ضاحكًا. أى حظ سعيد هذا، أن يبدأنى هو بالسؤال! لقد أنقذ شرفى. خمسة ريالات - حفظك الله يا بنى! لقد كان يجمل بك أن تسألنى خمسة أسهم فى أسهم المطاعم، أو دارًا فى (آكر).

وكلما فكرت فى هذه الخمسة ريالات تعالى ضحكى بدون انقطاع، أولم أكن حقًا أخًا للشيطان، أولم أكن؟ خمسة ريالات! نعم لقد كنت ابن بجدتها، وتزايد مرحى، واستسلمت له. أف للشيطان، أية رائحة طعام هذه التى أشمها هنا، رائحة ضلع طازج حقيقى من طعام الظهر، أف له؟ ودفعت النافذة كى أصرف الرائحة الكريهة. يا غلام على بنصف شريحة من لحم البقر، واتجهت إلى المائدة، تلك المائدة الشوهاء التى كان لابد لى أن أسندها بركبتى عندما أكتب عليها، وأغرقت فى الانحناء ثم سألت: أو تطلب قدح نبيذ؟ أليس كذلك؟ اسمى (طانجن) (طانجن) مستشار البلاط، آسف فقد تأخرت قليلًا.. مفتاح باب الدار...

وعادت فشردت أفكارى فى كل ناحية، وكنت فى وعى على الدوام، بحيث لم ألفظ كلمة بدون أن أسمعها وأفهمها. وقد قلت لنفسى: أنت الآن تعود فتتكلم بدون اتساق فى حديثك، غير أنى لم أكن قادراً على مقاومة ذلك، وكنت كالراقد اليقظان أتكلم فى النوم، وكان رأسى خفيفاً لا ألم ولا ضغط، وكانت نفسى صافية، وسرت إلى هناك بدون أن أبدى أية مقاومة...

أدخل! نعم إلا دخلت؛ كل شئ كما ترى من العقيق (ألايالى، ألايالى!) الديوان الحريرى الأحمر المنقوش، ما أشد تنفسها، قبّلنى أيها الحبيب، زدنى، زدنى. إن ذراعيك كالكهرمان، وفمك يتقد.. يا غلام، أنا طلبت شريحة من لحم البقر...

وطلعت الشمس على نافذتى، وسمعت الخيل فى الدور الأسفل تلوك القرطم، فجلست مكانى ألوك قطعة الخشب، جذلان طرباً كالطفل. وكنت أتحسس على الدوام "أصول" مقالى، بدون أن أفكر فيه لحظة واحدة. وحدثتنى الغريزة أنه موجود، وذكرنى به مزاجى فاستخرجته.

وكان قد أصيب بالبلل، فطرحته فى الشمس بعد أن نشرته وأخذت أقطع غرفتى جيئة وذهوباً، كم كان كل شئ بها قابضاً للنفس، فعدا بقايا قطع الصفيح الملقاة على الأرض لم يكن يوجد بها كرسى للجلوس، ولا مسمار واحد فى حيطانها العارية، فقد انتقل كل شئ إلى "قبو العم" واستنفذ. وكان كل ما أمتلكه بضعة "دروج" من الورق على المائدة مغطاة بطبقة سميكة من التراب، وأما الملحفة الخضراء الخلق، التى كانت على سريرى، فقد أقرضنيها "هانس باولى" منذ بضعة أشهر.. هانس باولى، فشمرت عن ساعدى وقلت: "هانس باولى بيترسن، لابد أن يساعدنى، وأخذت أستذكر عنوانه، وكيف جاز لى أن أنسى "هانس باولى" أيضاً، إنه سيحنق على كثيراً، لأنى لم أقصده رأساً، وأسرعت فلبست قبعتى، وطويت "الأصول" معاً، ونزلت فى السلم مسرعاً، وناديت فى الاصطبل اصغ إلى يا "ينس أولاف"، أنا واثق كل الثقة من مساعدتك عصر اليوم! ولما بلغت دار البلدية وجدت أن الساعة الحادية عشرة قد فاتت، فقررت الذهاب تواً إلى إدارة التحرير، ووقفت أمام باب المكتب

أتحقق من تسلسل ورقى، وعنيت بصقلها بيدى ثم أعدتها إلى جيبى، وطرقت الباب، فدق قلبى دقات مسموعة عند دخولى.

وكان "المقص" فى مكانه كالعادة، فسألته فى جزع عن رئيس التحرير. لا جواب. الرجل يجلس فى مكانه وفى يده مقصه الطويل، يقص الأخبار الصغيرة من صحف الأقاليم.

فأعدت سؤالى عليه، وتقدمت نحوه.

وأخيراً قال "المقص" بدون أن ينظر إلى: لم يأت رئيس التحرير بعد".

"ومتى يأتى؟".

"غير معلوم، غير معلوم بالمرة".

"إلى متى يظل المكتب مفتوحاً؟".

فلم أتلق جواباً عن ذلك. فكان لابد لى من الانصراف، ولم يلق "المقص" على نظرة فى أثناء كل ذلك، فقد سمع صوتى فتذكرنى. وحدثتنى نفسى أنى عنصر غير مرغوب فيه، حتى إنى لا أستحق منهم عناية الجواب عن سؤالى، ولعل هذه كانت أوامر رئيس التحرير، فالواقع أنى أغرقته بسيل من مقالاتى منذ أن قبلت مقالتى الشهيرة بعشرة ريالات، فكنت كل يوم تقريباً أزحم بابه بكتابات غير مقطوعة، كان يضطر أن يتصفّحها، ثم يعيدها إلى. وربما أراد فى النهاية أن يضع حداً لهذا، وأن يحتاط للأمر... فأخذت طريقى إلى هومانسى (Homandsbyen).

وكان هانس باولى بيترسن، طالباً ريفياً يقطن بغرفة فى دار تطل على الفناء ذات أربع طباق. وعليه كان "هانس باولى بيترسن" رجلاً فقيراً، ولكنه لو ملك ريالاً واحداً لجاد به، وأنى لحاصل عليه بلا شك، بل هو الآن فى يدى، واستأنفت السير، وكنت جذلاً طول الطريق لهذا الريال، فقد كنت على ثقة منه، وكان باب الدار مغلقاً عندما بلغته. فكان على أن أطرقه.

فقلت وقد هممت بالدخول: أود محادثة الطالب بيترسن، أنا أعرف غرفته".

فأعادت الفتاة الاسم" الطالب "بيترسن" الذى كان يسكن فى الغرفة العليا؟ لقد انتقل". "إلى أين انتقل؟" لم تكن تدرى. "ولكنه رجانا أن نرسل خطاباته إلى هرمانسن (Hermansen) فى شارع طولدبود (Toldodgabu). وذكرت الفتاة رقم الدار.

فسرت أسأل عن عنوان هانس باولى مملوءًا رجاءً وإيمانًا، إذ كان هذا آخر مخرج لى. ومررت فى الطريق ببناء جديد وقف أمامه النجارون يسحجون أخشابهم، فتناولت قطعتين نظيفتين من الخشب، ووضعت واحدة منهما فى فمى، والأخرى فى جيبى إلى ما بعد، واستأنفت السير، وأخذت أئن من الجوع، وأبصرت فى نافذة أحد المخابز رغيفًا كبيرًا ممتعًا، من ذات العشرة (أورات)، أكبر رغيف يمكن الإنسان أن يحصل عليه بهذا الثمن...

أنا آت للسؤال عن عنوان الطالب بيترسن.

شارع برندت أنكر (Bernt Anker) رقم 10 على السطح - وما دمت عازمًا على الذهاب إليه أولًا أتفضل كذا فآخذ له معى بضعة خطابات وردت له.

فعدت أسلك الطريق عينه الذى سلكته قاصدًا المدينة، فمررت بالنجارين الذين كانوا الآن جلوسًا وبين ركبهم قدور من الصفيح، يتناولون منها طعامهم الطيب الحار من المطعم، ومررت بالمخبز، حيث لا يزال الرغيف مكانه، وأخيرًا بلغت - نصف مقتول من الإعياء - شارع أنكر، وكان الباب مفتوحًا، فأخذت الدرجات المؤلمة الكثيرة العدد، صاعدًا إلى السطح، وتناولت الخطابين من جيبى، كى أصلح من مزاج هانس باولى فى الحال عند مقدمى. لا شك أنه لن يتأخر عن صنع هذا الجميل البسيط، متى شرحت له حالتى ، مؤكد لا، فإنّ لهانس باولى قلبًا شريفًا، وكذلك كنت أتحدث عنه دائمًا.

فوجدت على الباب بطاقة "هـ . ب. بيترسن طالب لاهوت سافر إلى بلده".

فجلست أخذت مجلسى على الأرض الباردة، كئيبًا متعبًا ومحطمًا من شدة الإعياء، أكرر آليًا عدة مرت: سافر إلى بلده! سافر إلى بلده! ثم أصمت هادئًا. ولم يكن فى عينى أثر للدموع، ولا بى إحساس، ولا لدى أية فكرة. جلست فى مكانى أحدق بعينين مفتوحتين فى الخطابين، بدون أن أعالج أمرًا من الأمور. ومضت عشر دقائق، بل عشرون، أو قل أكثر من ذلك، وأنا جالس باستمرار فى مكانى، لا أحرك إصبعًا، وكانت هذه النشوة الكئيبة أقرب إلى النعاس، ثم سمعت بعد ذلك بعضهم يصعد فى السلم. فنهضت واقفًا.

معى خطابان للطالب بيترسن.

فأجابت المرأة: "لقد سافر إلى بلده. ولكنه سيعود بعد العطلة، فإذا شئت حفظت الخطابين لدى". فقلت: "نعم، أشكرك. إن هذا منك لجميل. فسيتسلمها منك إذا ما عاد، فقد يكون بهما شئ مهم، نهارك سعيد".

ولما خرجت وقفت فى وسط الطريق وقلت بصوت عال وقد كورت يدى: شئ واحد أريد أن أقوله يا مولاى العزيز ويا إلهى: أنت.... حسنًا بالاختصار! وأصرّ ثائرًا على أسنانى نحو السحاب، وأنت أيها الشيطان ألا أخذتنى إليك.

ثم سرت بضع خطوات، وعدت فوقفت فى الطريق، وأخذت بغتة أبدل سحنتى، فأكور يدى، وأميل برأسى ناحية، وأتساءل بصوت حلو حنون: أو قصدته تعالى، يا بنى؟.

ولكن وقع العبارة لم يكن مطابقًا.

فأقول: قصدته "بهاء كبيرة، ثلث كالمئذنة"، مرة أخرى، هل ناشدته الرحمة يا بنى؟ وأنكس رأسى، وأجعل صوتى مؤثرًا، وأجيب: لا.

ولكن وقع هذه العبارة أيضًا لم يكن مطابقًا.

إنك لا تستطيع التصنع أيها المخبول. نعم، يلزمك أن تقول نعم.

نعم. ناشدتك الله ربى ومولاى، أوعليك أن تجد لعبارتك أوجع نغمة سمعتها للآن كذا يا هذا، وعليه، مرة أخرى، نعم، هذا أحسن. ولكن عليك أن تزحر كما يزحر الحصان السقيم هكذا يا هذا!

وأسير ألقن نفسى التصنع، وأدب على الأرض قلقًا، وأدعو نفسى بالغبى كلما أخفقت، بينما يمر بى السابلة مندهشين، يرمقوننى بأعينهم.

وطفقت ألوك قطعة الخشب باستمرار، وأترجح فى الطريق مسرعًا قدر المستطاع، وقبل أن أتنبه إلى نفسى، وجدتنى فى ميدان المحطة. وكانت الساعة فى كنيسة السيد المخلص الواحدة والنصف، فوقفت فترة ساكنًا أفكر، وسال عرق خفيف على جبينى، وقطر فى عينى، فقلت مخاطبًا نفسى: هلا سرت معى قليلًا إلى الميناء! أعى إذا كان لديك وقت؟ وانعطفت، فسرت نازلًا إلى محطة الميناء، وقامت السفن فى عرض البحر. وترجرج الماء فى ضوء الشمس، فكنت ترى حركة ونشاطًا فى كل مكان، فمن صوت صفير السفن القوى، إلى حمالين يحملون على مناكبهم الصناديق، ثم إلى ألحان الأناشيد المطربة الآتية من الزوارق، وقد جلست بائعة فطير على مقربة منى، وانحنت بأنفها الأسمر فوق بضاعتها، وغصت المائدة الصغيرة القائمة أمامها بالحلوى الفاتنة. فتحولت عنها كارهًا، وقد طبقت رائحة طعامها الميناء بأسرهاّ أف لها ! فلتفتح النوافذ! وتحولت الناحية الأخرى إلى رجل كان يجلس بجوارى، وأخذت أصور له بإلحاح هذا الموقف الكريه، بائعة فطير هنا، وبائعة فطير هناك... أليس كذلك؟ نعم، ولكنك لابد أن تسلم... وداخل الشك الرجل فى أمرى، فلم يتركنى أتم حديثى له، ونهض قائمًا وانصرف، ونهضت كذلك، فسرت وراءه مصممًا أن أقنع الرجل بخطئه.

فلطمته على منكبه وقلت: "حتى ولو اعتباراً للشؤون الصحية...".

فقال، وقد حدق فى مملوءًا ذعرًا: "معذرة، أنا هنا أجنبى ولا أدرى شيئًا عن الشؤون الصحية".

كذا، ما دام غريبًا، فقد غير هذا وجه المسألة.. ربما كان فى استطاعتى أن أقدم له خدمة ما؟ أقوده فى كلّ مكان؟ إن فى هذا سروراً عظيمًا لى، ولن تكلفه المسألة شيئًا...

غير أن الرجل شاء التخلص منى، فعبر الشارع مسرعًا إلى الرصيف المقابل.

فعدت إلى مقعدى، وأخذت مجلسى، وكنت فى شدة القلق، وزاد الحال سوءًا على سوء أن ابتدأ المعزف (البيانو) الكبير يدق على مسافة ما. وكان ضربًا خشنًا، يرن رنين المعدن، وكانت القطعة من تلحين فيبر (Weber). وكانت تغنى معه فتاة صغيرة دورًا مؤثرًا، فسرى فى دمى صوت ذلك (البيانو) المملوء أسى، الشبيه صوته بصوت المزمار، فأخذت أعصابى تهتز. كما لو كانت ترجع صداه، وبعد لحظة قصيرة عدت، فغرقت فى مقعدى، وأخذت أدندن مع الموسيقى متمتمًا. وأى شئ لا يتأثر به الواحد إذا كان جائعًا؛ وأحسست أن النغم قد تشربنى، أو أنى قد تحللت فيه، أحسستنى أتدفق، ورأيت رأى العين كيف أنى أتدفق، أترجح فى العلى فوق الجبال راقصًا، فى منطقة من النور.

فقالت الفتاة الصغيرة، وقد مدت لى يدها بصحنها القصديرى، أورا، أورا واحدًا.

فأجبتها فى غير وعى: "نعم، نعم"، ونهضت واقفًا أفتش جيوبى، ولكن الطفلة ظنت أنى إنما أردت أن أضحك منها، فابتعدت عنى فى الحال، بدون أن تنبس ببنت شفة، فكبر على هذا التسامح الأصم، وحبب إلى لو عنفتها، وتملكنى الألم، فصحت بها ثانية وقلت: ليس لدى اليوم (أورا) ولكنى سأذكرك ربما كان غدًا. ما اسمك؟ نعم، إنه اسم حسن لن أنساه. وعليه، غدًا...

ولكنى أدركت تمامًا أنها لم تصدقنى، ولو أنها لم تقل ولا كلمة واحدة، فبكيت من اليأس لأن فتاة الشارع الصغيرة هذه لم تشأ أن تصدقنى، وشققت جيبى، وأردت أن أعطيها صدارى، وقلت لها انتظرى قليلًا، فإنى أود أن أعوضك خيرًا.

ولكن لم يكن لدى صدار.

وكيف جاز لى أن أبحث عنه! وقد مضت أسابيع منذ أن كان فى حيازتى. ترى ماذا ظننت؟ ولم تنتظر الفتاة المدهوشة طويلًا، بل انسحبت

مسرعة، ورأيتنى مضطراً أن أتركها تنسحب، وتجمع الناس، وأخذوا يضحكون مقهقهين. فاندس شرطى فى الجمع المحتشد، حتى بلغنى، وأراد أن يعرف القصة.

فأجبته: لا شئ، لا شئ بالمرة، أنا إنما أردت أن أعطى الفتاة الصغيرة التى هناك صدارى.. لأبيها.. وعلى ذلك لا أرى داعياً لوقوفك تضحك.. إن فى مكنتى أن أذهب إلى الدار، فأرتدى آخر.

فقال الشرطى: لا إخلال للنظام فى الطريق العام، هكذا الأمر يا هذا. سر، ودفعنى إلى الأمام. وصاح بى من خلفى: هل هذه أوراقك؟

إى نعم، ياللشيطان، هذه مقالتى، تحريرات ذات أهمية عظمى، كيف كنت كذا مهملاً...

وجمعت "الأصول" معًا، وتحققت من تسلسلها، ثم سرت رأساً إلى قلم التحرير، بدون أن ألقى نظرة على ما حولى، وكانت الساعة عندئذ فى كنيسة السيد المخلص الرابعة.

المكتب مغلق، فأنسل إلى السلم نازلاً فى وجل كاللص، وأبقى واقفاً فى حيرة خارج باب الدار. ماذا عسى أن أصنع؟ فأتكئ على الحائط، وأحدق فى الحجارة السفلى مفكراً. ولمحت أمام قدمى دبوساً يلمع، فانحنيت عليه والتقطته، ترى كم أحصل ثمناً لأزرار سترتى، لو أنى خلعتها الآن؟ قد لا يجدينى هذا نفعاً، فالأزرار أزرار، ولكنى درت وفحصتها من كل ناحية، فإذا هى من الجدة بمكان، إنها لفكرة صالحة، ففى الاستطاعة أن أخلعها بنصف سكينى، فآخذها إلى "قبو العم"، وسرعان ما أنعشنى الأمل فى بيع هذه الخمسة أزرار، وقلت: انظر، انظر، لقد قضى الأمر وتملكنى السرور، وأخذت فى الحال أقطعها واحداً بعد الآخر، وعلى ذلك عقدت الحديث الصامت الآتى.

نعم، المسألة أن يدى قصرت بعض الشئ.. ارتباك مؤقت.. تقول مستعملة؟ لا تقل مثل هذا القول. بودى أن أرى ذاك الذى له أزرار أقل استعمالاً من أزرارى، أحب أن أقول لك أنى أسير دائماً وسترتى مفتوحة، تلك عادتى، وهذه هى طريقتى.. لا، لا، إذا كنت لا تحب إذن، ولكن لابد

لى فيها من عشرة (أورات) على الأقل... يا الله فى سمائه، ولكن من الذى قال أنك لابد ؟ اصمت ودعنى فى أمن.... نعم، نعم، ادع البوليس إذا شئت. سأنتظر هنا، حتى تدعو لى البوليس، ولن أسرق منك شيئًا... حسنًا... عم صباحًا عم صباحًا، اسمى (طانجن) أنا تأخرت قليلًا...

وينزل بعضهم فى السلم، فأعود فى الحال إلى رشدى، فإذا هو المقص، فأدس الأزرار بسرعة فى جيبى. ويريد أن يمر بى بدون أن يرد على التحية ولو مرة واحدة، وينهمك فجأة فى أظافر يده، فأستوقفه، وأسأله عن رئيس التحرير:

"غير موجود".

فقلت له: "أنت تكذب"، وبقحة أدهشتنى أنا نفسى استأنفت القول: "لابد أن أراه لأمر مهم، أنى أستطيع أن أقول له شيئًا عن ستيفتجارد (Stiftgaarden).

"أولًا تستطيع أن تقوله لى؟".

"لك؟" وحدجته بنظرى.

فأفاد ذلك الفائدة المطلوبة، وعاد فصعد معى فى الحال، وفتح لى الباب، والآن ارتعدت فرائصى، فشددت على أسنانى بشدة كى أتشدد، ودققت الباب، ودخلت غرفة رئيس التحرير الخاصة به.

فقال بلطف: "سعد صباحك، أنت هو؟ تفضل فاجلس".

ولو أنه أشار لى بإصبعه فى تلك اللحظة إلى الباب لكان ذلك أحب إلى، فقد شعرت بالدموع تسيل، فقلت: "أرجو معذرة...".

فكرر قوله: "اجلس".

فأخذت مجلسى، قلت له: "إن معى مقالًا آخر، ومتشوق لأن أراه ينشر فى جريدته، وإن كنت قد عنيت كثيرًا بتنميقه، فالحق أنه قد كلفنى جهدًا عظيمًا".

فتناوله وقال: "سأقرؤه بعد؛ مؤكد أن كل ما تكتبه يكلفك كثيراً من الجهود، غير أنك تلتهب حماسة فى كتاباتك، وليتك تعتدل قليلاً، حماسة كثيرة، ومع ذلك سأقرؤه". والتفت إلى المائدة.هناك كنت أجلس، فهلا تجرأت على طلب ريال؟ وهل أبنت له سبب هذه الحماسة، محقق أنه كان يساعدنى، فهذه ليست بالمرة الأولى.

ونهضت من مكانى، حسنًا، غير أنه شكا آخر مرة كنت عنده فيها من قلة النقود، وأرسل رسول الخزانة يقتطع لى النقود من هنا ومن هناك، وربما كانت الحال نفس الحال، لا، لا يصح أن يحدث هذا اليوم، أو لم ألاحظ أنه مشغول؟

فسألنى: "هل من شئ آخر؟".

فقلت وقد تصنعت الرصانة فى صوتى: لا، متى تسمح لى بالعودة؟

فأجاب: "بعد قليل من الأيام، عندما تكون مارًا من هنا إحدى المرات، كذا".

ولم أستطع أن أنبس برجائى، وبدت لى رقة هذا الرجل لا حد لها، فأردت أن أريه أنى أعرف كيف أحترمها، فخير لى أن أموت جوعًا، وانصرفت.

وعندما وقفت فى الطريق لم أندم ولا مرة واحدة على مغادرتى المكتب بدون أن أطلب ريالًا، وأحسست عض الجوع، فتناولت من جيبى قطعة الخشب الأخرى، ودسستها فى فمى، فأفادنى هذا مرة أخرى، وليتنى أدرى لماذا لم أصنع هذا من قبل؟ وخاطبت نفسى بصوت عال: يلزمك أن تخجل! أوكان فى استطاعتك حقًا ن تفاجئ هذا الرجل بطلب ريال، فتضعه مرة أخرى فى مركز حرج؟ وقسوت على نفسى بسبب هذه القحة التى مرت بخاطرى، وقلت: أن تجرى أيها الكلب التعس إلى أحد الناس، وتخمشه فى عينه أو تكاد، لأنك تطمع فى ريال، هذا وحق الله أحط وأسفل ما سمعت به، هكذا، سر! أسرع! أسرع أيها الوغد، فسأريك.

وعقابًا لى ابتدأت الجرى فى الشوارع، قاطعها واحدًا بعد الآخر، مستحثًا نفسى إلى الأمام؛ وكلما شئت أن أقف صحت بى ثائرًا صيحات

داخلية صماء؛ وسرت على هذه الحال، حتى بلغت شارع بيل (Pilestraede)، ولما وقفت فى النهاية صرخت أو كدت من الحنق، لعدم مقدرتى على السير أكثر من ذلك، وأصابتنى هزة فى كل جسمى، فألقيت بنفسى على إحدى الدرجات، ثم قلت لنفسى: لا، قف، ولكى أعذب نفسى بحق نهضت واقفًا، وألزمت نفسى أن أبقى واقفًا، وضحكت منى، وأنعمت الفكر فى انحطاطى، وأخيرًا بعد انقضاء عدة دقائق سمحت لنفسى بعد تنكيسة أن أجلس، ولكنى أيضًا اخترت لى مكانًا خشنًا للجلوس فوق إحدى الدرجات.

مولاى، ما ألذ الراحة! ومسحت العرق من وجهى، وشهقت شهقة طويلة. وما أبعد ما جريته! ولكنى لم أندم على ذلك، فقد كنت أستحقه، فلماذا أردت أن أطلب ريالًا؟ والآن أرى نتيجة ذلك، وابتدأت أخاطب نفسى فى رفق، عاتبًا عليها بلغة الأمهات، وانقلبت رقيق المزاج، فأخذت أبكى من التعب والخور بكاءً صامتًا، عبارة عن تنهد عميق لا دموع فيه.

وبقيت جالسًا فى مكانى ربع ساعة أو يزيد، وتجئ الناس وتروح ولم يضايقنى أحد، ولعب الأطفال حولى، عن اليمين وعن الشمال، وغرد طائر على إحدى الأشجار، فى الناحية الأخرى من الطريق.

وجاءَنى الشرطى وقال:

"لماذا تجلس هنا؟".

فتساءلت: "لماذا أجلس هنا؟ لأن فى ذلك سرورًا لى".

فقال: "لقد راقبتك هنا فى نصف الساعة الأخيرة، أجلست هنا نصف ساعة؟".

فأجبته: "كذا تقريبًا. هل من شئ آخر؟"، ونهضت حانقًا وانصرفت.

ولما بلغت ميدان السوق، بقيت واقفًا أنظر إلى الشارع ورائى، لأن فى ذلك سرورًا لى، أو كان هذا أيضًا جوابًا؟ كان واجبًا عليك أن تقول من التعب، وكان عليك أن تجعل صوتك يتهدج - أنت حيوان، أنت لا تتعلم قط التصنع - من التعب، وكان عليك أن تلهث كما يلهث الحصان.

ولما بلغت دار المطافئ، عدت فوقفت لفكرة جديدة طرأت على، فشمرت عن ساعدى، وقهقهت ضاحكًا مما أدهش السابلة، وقلت: لا، يلزمك الآن حقًا أن تذهب إلى القس ليفيون (Levion)، لابد لك من هذا بلا شك. هذه مجرد محاولة، فماذا عساك تخسر؟ وفوق ذلك فالجو جميل.

وذهبت إلى دكانة "باشا" وبحثت عن عنوان القس ليفيون، ثم أخذت طريقى إليه، وقلت: هذا وقته! فدع السخافات جانبًا! أتقول" الضمير؟ دع هذا السخف، فأنت أفقر من أن يكون لك ضمير، أنت جائع، هذا هو أنت. أنت آت فى أمر ذى شأن، ملح ومقدم على سواه، فلابد لك أن تميل برأسك ناحية، وأن تنظم عبارتك فى لحن، أولا تريد أن تصنع هذا؟ إذن لن أذهب معك خطوة واحدة بعد، وأنت تعرف هذا جيدًا، وعليه فأنت تضع نفسك فى موقف الجلاد، ستكافح فى الليل القوى الظلمة والوحوش الهائلة الصامتة، وتتضور جوعًا وظمأً نحو النبيذ واللبن، ولا تحصل على شئ، وهكذا كانت حالك، والآن تقف فى مكانك، لا تملك شروى نقير، ولكنك تعتقد فى الرحمة، الحمد لله أنك لم تفقد الإيمان بعد، وثم يلزمك أن تضم يديك بعضهما إلى بعض، لتأخذ شكل الشيطان الحقيقى، كما لو كنت ترجو الرحمة، وأما عن الثروة فإنك تكره الثروة بجميع أشكالها، هذا شئ آخر من اختصاص المزمور. إنما هى ذكرى بشأن بضعة ريالات... ووقفت عند باب القس وقرأت: مواعيد الزيارة: من 12 - 4.

فقلت: لا سخافة بعد الآن! فلتجد، ولتمل برأسك، أمله قليلًا... ودققت جرس مسكن القس، وقلت للفتاة: أحب أن أكلم حضرة القس، ولم أستطع أن أضيف اسم الله إلى اسمه.

فأجابتنى: "لقد خرج".

خرجّ خرجّ لقد أفسد على هذا مشروعى؛ شوش على كل شئ كنت أفكر فى قوله. فأية فائدة لى الآن من كل هذا الطريق الطويل؟ إلا أنى ظللت واقفًا مكانى، فسألتنى الفتاة: "هل من شئ خاص؟".

فرددت عليها: "لا شئ مطلقًا، لا، لا شئ بالمرة، غير أن الجو كان اليوم مباركًا، فأردت الخروج للرياضة وتحية حضرة القس.

ووقفت مكانى، ووقفت مكانها. وأبرزت صدرى إلى الأمام عامداً كى ألفت نظرها إلى الدبوس الذى أجمع به سترتى، ولكن هذا المخلوق المسكين لم يفهم شيئًا.

"جو مبارك، إى نعم، والحرم المصون ترى ليست أيضًا بالدار؟".

"نعم، ولكنها تشكو النقرس، فهى ترقد على الأريكة بدون أن تقدر على الحراك...".

إذا كنت أريد أن أترك خبراً أو شئ آخر؟

"لا، مطلقًا، إنما أنا أقوم بمثل هذه الرياضات طلبًا للحركة، فهذا مما يستحسن بعد تناول طعام الغذاء.

وأخذت طريقى عائداً، وأية فكرة كنت أستفيدها لو أطلت الحديث، وعدا ذلك فقد أحسست دواراً، كما لو كنت على وشك التحطم. مواعيد الزيارة من 12 - 4 فكأنى طرقته متأخراً ساعة من الزمن، مضت ساعة الرحمة.

وأخذت مجلسى ستورتف (Stortov) على مقعد قرب الكنيسة، مولاى، ما أظلم الدنيا أمام عينى الآن! ولكنى لم تدمع لى عين، فقد كنت جد تعب. وجلست مكانى أكابد أشد الآلام بدون أن أعالج شيئًا، جلست لا أبدى حراكًا وأنا أتضور جوعًا، وكان صدرى يتقد بحق، ففى طيه كانت تشتعل الآلام المقطوعة النظير، ولم أعد أحب أن ألوك قطعة الخشب مرة أخرى، قد تعبت ضروسى من هذا العمل غير المثمر، فتركتها تستريح، واستسلمت للأقدار، ولكنى وجدت قشرة برتقال سمراء على الطريق فأخذت أقرض فيها فى الحال، فسببت لى قيئًا لعلى كنت مريضًا! فقد انتفخت شرايين معصمى بالزرقة.

وماذا عسى أرجو بعد! جريت اليوم طوله هنا وهناك من أجل ريال أمد به من أجلى بضع ساعات. وفى الواقع ألا يستوى عندى وقوع ما لابد من وقوعه متقدماً يوماً أو متأخراً؟ ولو أنى سلكت مسلك رجل عادى لعدت منذ زمن طويل إلى الدار، وأرحت نفسى، واستسلمت للقدر. وكانت أفكارى فى تلك اللحظة صافية، ووددت لو مت الساعة، وكان الوقت

خريفًا، فكان كل شئ يغط فى النوم، لقد عالجت كل الوسائل واستغللت كل مورد للمعونة أعرفه، ولعبت فى رأسى هذه الأفكار، وكنت كلما طمعت فى سبب من أسباب الخلاص أتمتم محتجًا: أيها الأخرق لقد أخذت تهيئ نفسك لمقابلة الموت، فما هذا؟ وكان على أن أكتب أولًا بضعة رسائل، وأنجز كل شئ، ما دمت قد أعددت نفسى لهذا الأمر، وأحببت أن أغتسل بعناية، وأرتب فراشى، وأضع رأسى على بضعة (دروج) من الورق الأبيض، وأنظف ما تحتوى عليه يمينى، أما الملحفة الخضراء فإن فى استطاعتى....

الملحفة الخضراء، وتيقظت دفعة واحدة، وتصاعد الدم فى رأسى، ودق قلبى دقات قوية، فأنهض من مقعدى وآخذ فى الانصراف، وقد سرت الحياة من جديد فى كل أطرافى، وطفقت أكرر بدون انقطاع تلك العبارة الركيكة: الملحفة الخضراء، الملحفة الخضراء، وأسرعت بكل ما فى من قوة كما لو كنت أهتم بقضاء أَمر من الأمور، وبعد زمن قصير أجدنى فى دارى، أو فى مصنع الصفيح.

وبدون أن أتوقف لحظة أو أتردد فى عزمى أذهب إلى الفراش وألف ملحفة "هانس بولى"، وإذا لم ينقذنى هذا الخاطر البديع، فسيكون ذلك نادرة من النوادر، وفى النهاية سموت فوق تلك الشكوك الصماء التى تيقظت فى صدرى، ذلك الصوت الداخلى الخافت الذى أخذ يتحدث عن وصمة العار والبقعة السوداء التى سيتطلخ بها شرفى، فقد استوى لدى كل شئ، فما كنت قديسًا، ولا نموذجًا للغفلة، إذ ما زلت أدرك...

وتأبطت الملحفة وذهبت إلى شارع ستينر (Stenergade) رقم 5، وهناك قرعت الباب ودخلت لأول مرة إلى صالة الاستقبال العظيمة، ودق جرس الباب دقات طويلة موئسة فى رأسى، وجاء من الغرفة المجاورة رجل يلوك طعامًا امتلأ به فمه، ثم تقدم إلى مائدة المحل.

فقلت: "أرجو أن تقرضنى نصف ريال على نظارتى! وسأعيده بلا ريب بعد بضعة أيام".

"ماذا؟ لا! نظارة من صلب؟".

"نعم".

"لا، هذا لا يمكننى".

"آه، لا، نعم هذا لايمكنك، إنما أردت فى الواقع أن أمزح، إن معى ملحفة لا لزوم لها عندى، وظننت أنك ربما تأخذها منى فى نهاية الأمر".

فأجاب: "آسف فلدى مخزن غاص بمختلف صنوف الفرش، ولما بسطتها أمامه ألقى بعض نظرات عليها وصرخ.

"لا، معذرة، ليس لها نفع لدى!".

فقلت: "إنما أردت أن أريك فى الأول ناحيتها السيئة، فالناحية الأخرى أحسن بكثير".

"نعم، نعم! ولكن هذا لن يجدى، فإنى لا أريدها. ولن يعطيك أحد فيها أكثر من عشرة (أورات).

"لا، هذا معلوم، إن قيمتها ليست كبيرة، ولكنى حسبت أنك قد تستطيع ضمها إلى أشياء أخرى عشيقة فى أحد المزادات".

"ممكن، ولكن فائدة من ذلك".

فقلت: "خمسون (أورا)؟".

"لا، لا أريدها مطلقاً أيها الناس، لا أريدها قط فى دارى".

فتأبطت الملحفة ثانية، وعدت إلى دارى.

وتصنعت أمام نفسى كأن لم يحدث شئ، وبسطت الملحفة ثانية على السرير، وسويتها جيداً كعادتى، وحاولت أن أخمد فى نفسى مل أثر من آثار هذا التصرف الأخير. محال أنى كنت فى وعيى ساعة قررت ارتكاب هذه الجريمة، فإنى كلما فكرت فى الأمر، بدت لى فظاعة مجسمة. لابد أن نوبة ضعف أو ضرباً من وهن النفس قد أخذنى على غرة. فلم أكد أقع فى تلك الهاوية، حتى أدركت ما لهذا الفعل من نهاية سيئة. فعالجت فى بداية الأمر نظارتى، وقد سرنى أن الفرصة لم تمكنى من ارتكاب هذه الجريمة، التى كانت ستلطخ ساعات حياتى الأخيرة.

وعدت فقصدت المدينة.

وأخذت مجلسى مرة أخرى فوق أحد المقاعد، عند كنيسة المخلص، وقد مال رأسى على صدرى، وتراخت أعصابى من الثورة الأخيرة، كما نهكنى الجوع وأذلنى. وعلى هذا الحال انقضى الوقت.

وأردت كذلك أن أبقى تلك الساعة فى الخلاء، فثمة نور أكثر مما فى غرفتى، وعدا هذا تخيلت أن الهواء الطلق قد يخفف من لواعج صدرى، كما أن الوقت كان مبكراً للذهاب إلى الدار.

وكافحت النوم، وفكرت، وكابدت من الأهوال ما لا يوصف، ثم وجدت حجراً صغيراً فنظفته، ودسسته فى فمى، لكى أحس شيئًا فوق لسانى، وأما ما عدا ذلك فلم أتأثر بشئ، ولا حركت طرفى مرة. وكانت الناس تجئ وتروح، وتملأ الجو جعجعة العجلات ووقع حوافر الخيل.

ولكن أما كان فى مكنتى أيضًا أن أعالج مسألة الأزرار؟ لا فائدة بالطبع. وعدا هذا فإنى كنت مريضًا.

غير أنى لما أعملت فكرى جيداً فى الأمر وجدت أن لابد لى من مرورى فى طريقى إلى الدار كذا أو كذا "بالعم" "عمى" إياه...

وأخيراً نهضت، وجررت نفسى جراً، وكنت أترجح فى الطرقات، وأحسست ألماً محرقًا فوق حاجبى، وحمى تقترب منى، فأسرعت بقدر ما أستطيع، مررت ثانية بالمخبز، حيث رغيف الخبز، فقلت مصممًا تصميماً لا يعتوره التردد: لن نقف هنا الآن، ولكنى لو دخلت هنا وسألتهم كسرة خبز؟ هذه كانت خاطرة، لمحة خاطر، فهززت رأسى وتمتمت: أف! واستأنفت السير هازئًا من نفسى. فقد كنت أعلم علم اليقين أن لا فائدة ترجى من الدكانة عن طريق الرجاء.

وفى ربسلاجرجانج (Rebslagergang) وقف محبان عند الباب يتهامسان، وعلى مسافة قليلة منهما أطلت فتاة برأسها من النافذة، ومضيت مطمئنًا غاية الاطمئنان والحذر، فكنت أرى كأنى أفكر فى أمر من الأمور، خرجت الفتاة إلى الطريق.

"كيف حالك أيها الشيخ؟ كيف؟ أمريض أنت؟، وقانى الله... يا له من وجه!" وانسحبت الفتاة مسرعة.

فوقفت فجأة فى مكانى، وماذا عسى يكون بوجهى؟ ومررت بيدى فوق خدى: هزيلان؟ لا شك أنى هزيل، وكان الخدان عبارة عن كفتين

مقلوبتين، يالله، وانسللت مبتعداً.

ولكن عدت فتوقفت ثانية، لابد أنى فى شدة الهزال، فعيناى الغائرتان قد وجدتا ثانية طريقهما فى رأسى، ترى كيف كان منظرى، نعم إنه لجحيم أن يتحرك المرء يشوهه الجوع حياً. وأحسست دفعة واحدة ثورة تتأجج فى صدرى، انتهت صورتها بتشنج عصبى، ليكن الله مع وجهى، ياله من وجه! أنطلق أتضور جوعاً إلى حد التشويه فى وسط مدينة كريستيانيا ولى رأس لا نظير له على الأرض، وقبضتان - وليسامحنى المولى - فى مقدورهما أن يسحقا أحد الناس سحقاً! أكان هذا من العدل فى شئ؟ لقد اشتغلت ليل نهار كالحصان، ودرست، حتى سقطت العين من الجمجمة وجاع الذهن فى رأسى - فياللشيطان ما استفدت من كل ذلك؟ حتى البغايا فى الطرقات أردن أن يتخلصن من النظر إلى، والآن لا بد لى من وضع حد لهذا، - أفهمت؟ لابد من وضع حد لهذا، وليأخذنى الشيطان إليه... وتحت تأثير الحنق المتطاير شرره باستمرار، واصطكاك الأسنان تحت تأثير الضعف، وتحت تأثير البكاء والسباب، مضيت فى سيرى أسب وألعن، بدون أن أعير السابلة أى اهتمام، ثم عدت إلى تعذيب نفسى من جديد، فتعمدت الجرى مصادماً بجبهتى أعمدة النور، وأغرز أظافرى فى كفى، وأعض لسانى فى حالة جنون إذا هو لم يلفظ الكلمات بوضوح، وكلما وجعنى كنت أضج كأنى مجنون.

ولكنى عدت فى النهاية، وأجبت نفسى: نعم، ولكن أى شئ فى مقدورى؟ ودببت عدة مرات فوق الأرض وكررت: أى شئ فى مقدورى؟ - ومر بى أحد الناس فى تلك اللحظة، فتأملنى وضحك.

"اذهب إلى السجن".

فتطلعت إليه، فإذا هو أحد معارفى، طبيب أخصائى فى أمراض النساء، يدعى، "الدوق". حتى ذلك الرجل الذى عرفته، ووضعت يدى فى يده، لم يفهم حقيقة موقفى، وكنت هادئاً، أسجن؟ لقد كنت مخبولاً عنده حق. وأحسست الخبل يسرى فى دمى، وأحسسته يطاردنى فى رأسى، وعليه لابد من وضع حد لهذا مع نفسى أيضاً، نعم، نعم، وعدت فأخذت طريقى متباطئاً كئيباً، وهذا أيضاً لابد من وضع حد له.

وأعود مرة واحدة فأقف هادئًا وأقول: كل شئ إلا السجن، كل شئ إلا هذا، وكدت أبح من الجزع، وأخذت أرجو وأتوسل فى الهواء: كل شئ إلا السجن إذ معنى هذا أن أعود ثانية إلى دار البلدية، فأحبس فى (زنزانة) مظلمة، حيث لا يرى فيها بصيص من نور، كل شئ إلا هذا، فما زالت توجد مخارج مفتوحة أمامى وأحب معالجتها، أريد أن أثابر وأصبر وأصابر، وأنتقل من دار إلى دار، فهناك مثلًا إيزلر (Eisler) تاجر الآلات الموسيقية، فإنى لم أذهب إليه ولا مرة واحدة ما زالت هناك حلول... وهكذا أخذت أسير وأنا أتحدث إلى نفسى، حتى اضطررت للبكاء ثانية من شدة التأثر، كل شئ إلا السجن.

إيزلر؟ ربما كان هذا إلهامًا سماويًا؟ فقد خطر لى اسمه بدون سبب، وكان يسكن بعيداً، ولكن برغم ذلك أردت أن أزوره، وأحببت أن أسير متباطئًا، حتى أهدئ ثائرتى فى أثناء سيرى، وكنت أعرف الدكانة، فقد ترددت عليها كثيراً فى يسرى، واشتريت منه بضع (نوتات)، ترى هل يصح أن أسأله نصف ريال؟ ربما أخجله هذا، فلا بد لى أن أسأله ريالًا كاملًا.

وبلغت الدكانة، وسألت عن المدير، فقادنى أحدهم إلى مكتبه، وهناك كان يجلس الرجل يقلب فى أوراقه، مرتديًا أحسن الثياب وأفخرها.

فتممت بعض اعتذارات وشرحت له حاجتى، وأن الضرورة أرغمتنى أن ألجأ إليه... ولن يمضى وقتٌ طويلٌ حتى أرد إليه مبلغه..... عندما آخذ أجر مقالى.... وأنه يصنع معى معروفًا كبيراً.

وفى أثناء كلامى عاد فالتفت إلى الدرج، واستأنف عمله. ولما انتهيت نظر إلى شزراً، وهز رأسه الجميل وقال: "لا"، ولم يزد شيئًا على لا، فلا إيضاح ولا كلام.

فاهتزت ساقاى اهتزازًا شديداً، حتى اضطررت أن أسند نفسى إلى الخزانة الصغيرة، وأردت أن أعالج الأمر مرة أخرى. ترى لماذا خطر لى اسمه بصفة خاصة وأنا واقف بعيداً عنه فى فاترلاند (Vaterland)، وشعرت بألم فى حاجبى الأيسر، وأخذ العرق يتصبب منى، فقلت: الواقع أن حالى قد رقت كثيراً، وأنا مريض للأسف، وأؤكد لك أنه لن يمضى

وقت طويل، حتى يكون فى مقدورى رد مبلغك إليك. فهلا تتفضل بإجابة سؤالى.

فقال: "لماذا قصدتنى أنا يا عزيزى؟ أنت مجهول عندى كل الجهل، تجيئنى من عرض الطريق، اذهب إلى صحيفتك عند الرجل الذى تعرفه".

فقلت: لليلة واحدة فقط! فقلم التحرير قد أغلق أبوابه، وأنا الآن فى شدة الجوع.

فهز رأسه متأسفًا، وما زال يهزه، حتى أمسكت بقبضة الباب، فقلت": إلى الملتقى".

ابتسمت بمرارة.. ودار فى خلدى أن ما كان لم يكن إلهامًا سماويًا فقد كان فى طاقتى أنا نفسى أن أشير بمثل هذا ما دامت المسألة قد انتهت إلى ما انتهت إليه. وجررت نفسى جراً من قسم إلى قسم، وأخذت أستريح هنا وهناك على الدرج، لو أنى فقط لا أسجن، فقد لزمنى الرعب من (الزنزانة) طول الوقت، ولم يتركنى فى أمن، وكنت كلما أبصرت شرطيًا على الطريق أسرعت إلى الشارع المجاور، كى أتجنب لقياه، ثم قلت: الآن فلنعد مائة خطوة، ولنعد بعدها نعالج حظنا! ولابد أن يواتينا الحظ مرة.

وكانت توجد ثمة دكانة (غزل) صغيرة، دكانة لم تَخْطُ فيها قدمى خطوة، ووراء مائدة الدكان كان يقوم رجل واحد بالخدمة، وخلف محل الحسابات ذى (اليافطة) البورسلانية، المعلقة على الباب، رفوف محملة فى صفوف طويلة. انتظرت حتى غادر أخر عميل الدكانة، وكانت سيدة فى مقتبل العمر بوجه ذى غمزات ملحوظة، وكم كان يبدو الحظ عل محياها! ولم أعالج أن أستدر عطفها بدبوسى الذى أشبك به سترتى، بل بالعكس تحولت عنها.

فسألنى المساعد: "هل تريد شيئًا؟".

فقلت: "هل مدير المحل موجود؟".

فأجاب: "سافر فى رحلة فى الجبال فى يوتون هايمن (Yotunhejmen) هل من شئ خاص؟". فقلت وقد عالجت الابتسام: "بضعة (أورات) فقط أمسك بها رمقى، فأنا جائع، وليس لدى ولا (أور) واحد".

فقال وقد أخذ يرتب حزم الخيوط: "إنك إذن لتضارعنى ثروة" وغنى.

فقلت وقد سرت البرودة بغته فى سائر جسدى حتى إخمص قدمى: "آه، لا تطردنى - لا تفعل هذا الآن! فالواقع أنى أكاد أموت جوعاً، فمنذ عدة أيام لم أتبلغ بشئ من الطعام".

وباهتمام عظيم، وبدون أن يلفظ كلمة واحدة، أخذ يقلب جيوبه واحداً بعد الآخر، كما لو كنت لم أصدق كلامه.

فقلت: "فقط خمسة (أورات) وسأعيدها لك عشرة بعد أيام قليلة".

فسألنى وقد فقد صبره: "هل تريد يا عزيزى أن أختلسها لك من الخزانة؟".

فقلت: "نعم، نعم، خذ خمسة (أورات) من الخزانة".

"حقاً إنى لا أستطيع إتيان هذا!" ثم زاد على ذلك: "أحب أن أقول لك: حسبك هذا وكفى".

فانسحبت مريضاً من الجوع، حران من الخجل. لقد صار منى كلب من أجل عظمة حقيرة، ومع ذلك لم أصل إليها، لا، لا بد من وضع حد لهذا، فالحق أن الأمور قد سارت بعيداً، لقد ضبطت نفسى سنين طوالاً، وثبت فى الساعات الشداد، وهأنذا الآن قد انحدرت دفعة واحدة إلى هاوية الشحاذة العمياء، إن هذا اليوم قد قسى أفكارى، وسخم نفسى بالقحة، فلم أخجل من إذلالها أمام صغار الباعة، فأعرض نفسى أمامهم وأبكى، وأية فائدة عادت على من ذلك؟ ألم أزل بدون كسرة خبز أستطيع دسها فى فمى؟ وكل ما بلغته أنى أصبحت أتقزز من نفسى، نعم، نعم، الآن لابد من وضع حد لهذا، وإذا أنا لم أشأ اليوم أن أنام فى دار البلدية، فعلى أن أسرع، فقد اقترب موعد إيصاد باب الدار..

أمدتنى هذه الفكرة بقوة، إذ لم أكن أريد أن أنام فى دار البلدية، وبرأس منكس، ويدى فوق ضلعى الأيسر لأخفف بعض الشئ من وقع الألم، تلمست طريقى متقدماً، وقد ثبت عينى على الأرض، حتى لا أضطر إلى

تحية أحد من معارفى، وأسرعت ميممًا دار المطافئ، ولله الحمد، فقد كانت الساعة فى كنيسة المخلص سبعًا، فلا يزال ثلاث ساعات بعد على إيصاد باب الدار... ولشد ما جزعت.

وعليه لم يبق شئ لم أعالجه، فقد صنعت كل ما يمكن صنعه. حقًا إنه ليوم بأكمله لم يشأ أن يصادفنى فيه الحظ ولو مرة واحدة. وإذا أنا قصصت هذا على أحد، فلن أجد له مصدقًا، أو دونته على الورق فسيقول الناس هذا اختراع من بنات أفكاره، فلا توفيق فى مكان واحد، نعم، نعم لم يبق من حل بعد. وقبل كل شئ لم يبق معنى للتأثر أو الجرى هنا وهناك. أف لك، إن هذا لَمما يقزز النفس وأنى لأوكد لك أنى قد قرفت منك، وإذا كانت الآمال كلها قد تحطمت فقد انتهى كل شئ، أو ما كان فى قدرتى أن أسرق قبضة من القرطم من أحد الاصطبلات؟ بصيص من النور - فقد كنت أعلم أن الاصطبل قد أغلقت أبوابه.

وطفقت أخفف عن نفسى، وانسللت فى طريق ملتوية إلى الدار، وسرنى أنى أحسست ظمأً لأول مرة فى يومى، فتلفت حولى أبحث عن مكان أستطيع أن أشرب منه، وكنت قد ابتعدت كثيرًا عن السوق، ولم أشأ أن أطرق إحدى الدور، فقد أستطيع الصبر على الظمأ حتى أصل إلى الدار، ولن يستغرق هذا أكثر من ربع ساعة، ومن يدرى أنى أقوى على تحمل جرعة ماء وقد كنت أحس بتقزز نفسى حتى من لعابى الذى أبتلعه.

ولكن الأزرار، لم أعالج الأزرار بعد، وقفت مكانى وأخذت أبتسم، ربما كانت لا تزال أمامى حيلة بعد، وأن لم يقض على القضاء الأخير، سأحصل منها بلا شك على عشرة (أورات) وغدًا أعالج الحصول على عشرة أخرى من أى مكان، وفى يوم الخميس ربما تسلمت أجر مقالى، ربما لم يكتب على الشقاء كله، وكيف أنى نسيت الأزرار؟ استخرجتها من جيبى وتأملتها، ومضيت فى السير، وقد أظلمت عيناى من الفرح، ولم أعد أرى الشارع أمامى.

وأنى لى أن لا أعرف بالضبط القبو العظيم، ملجئى فى الليلة الظلماء، صديقى ممتص الدماء، ففى هذه القرارة ذهبت ممتلكاتى واحدًا بعد واحد حتى التوافه التى جاءتنى من الدار، لا بل حتى آخر كتاب. وكنت أذهب

بلهفة لأشاهد أيام المزاد. وكم كان يسرنى أن تقع كتبى فى يد طيبة. أخذ الممثل ماجلسن (Magelsen) ساعتى، ففاخرت بهذا أو كدت. واشترى أحد معارفى تقويم العام الذى عالجت فيه أسفارى. وحل معطفى بدار مصور، ليعيره فى داره لراغبى التصوير. وعليه لم يكن فى كل ذلك ما يمكن المؤاخذة عليه.

هيأت الأزرار فى يدى، وتقدمت، وكان "العم" جالسًا على مكتبه يكتب. فأقول: "لست على عجل، وأنا أخشى أن أكون قد ضايقته، فأحرج صدره، وقد وقع صوتى منى موقعًا من الضعف غريبًا، حتى لم أكد أتعرفه، ودق قلبى فى صدرى كمطرقة.

فجاء نحوى يبتسم كعادته، وبسط يده على مائدة الدكانة، وحدق فى وجهى، ولم ينبس ببنت شفة. "نعم، معى شئ، وأردت أن أسألك إذا كان ذا نفع لديك... إنه عقبة فى طريقى فى الدار، وأؤكد لك أنه يضايقنى، بصفته أزرار".

وعليه ما حكايته وما حكاية هذه الأزرار؟ وألقى بنظرة على يدى، ربما كان فى مكنته أن يعطينى فيها بضعة (أورات). حسب تقديرى. حسب تقديره هو.

فحدق فى "العم" مذهولًا: فى هذه الأزرار؟

"ما قيمة ثمن سيجارة أو ما يماثلها. أنا إنما كنت مارًا من هنا، فأردت أن أستفهم عن ذلك.

وعلى ذلك ضحك المرتهن العجوز، وعاد إلى مكتبه بدون أن يقول كلمة واحدة. وبقيت واقفًا مكانى. "الواقع أنى لم أؤمل شيئًا كثيرًا وعدا ذلك فقد ظننت أن من الممكن أن أنال مساعدتك، فكانت ضحكاته بمثابة حكم الإعدام على، والآن قد لا تجدى معالجة النظارة؟

فقلت وقد خلعت نظارتى: "طبعًا ستدخل النظارة فى هذه العملية، فقط عشرة (أورات) أو إذا شاء خمسة (أورات) فقط.

فقال "العم": "أنت تعلم أنى لا أستطيع أن أقرضك شيئًا على نظارتك. فقد سبق أن قلت لك ذلك.

فأجبت ببلادة: "ولكنى فى حاجة إلى طابع بريد ولن أستطيع إرسال الكتب التى لابد لى من كتابتها، طابع بريد من فئة الخمسة أو العشرة (أورات). أترك هذا لتقديرك.

فأجاب ملوحًا بيده: "أسرع بالله عليك، وانج بنفسك".

فقلت فى نفسى: نعم، نعم، فلأتركه وشأنه. وعدت فلبست النظارة بطريقة آلية. وأخذت الأزرار فى يدى وانصرفت قائلًا: سعد مساؤك. وأغلقت الباب ورائى كما هى العادة، وعليه لم يبق ما يمكن عمله! وقفت أمام الباب من الخارج ونظرت إلى الأزرار مرة أخرى، وقلت: إنه لا يريدها بالمرة إنها تكاد تكون جديدة. أنا لا أفهم ذلك!

وبينما أنا واقف مكانى غارقًا فى هذه التأملات، مر بى رجل نازل إلى القبو، وأصابنى فى عجلة صدمة خفيفة، فاعتذر كلانا للآخر، والتفت أنظر إليه.

فقال فجأة وهو فى أسفل السلم: "لا، أهو أنت؟".

وعاد فصعد السلم فوق وقال: "ليرعك الله، ما بالك ترى كذلك ماذا كنت تفعل فى القبو؟".

"آه - أشغال. وأنت كما ترى تريد النزول إلى هناك؟".

"نعم، وماذا أحضرت معك؟".

فاصطكت ركبتاى، وأسندت نفسى إلى الحائط، ومددت يدى نحوه بالأزرار.

فصاح بى: "ياللشيطان؟! لا، لقد سارت الأمور بعيدًا!".

فقلت: "سعد مساؤك!" أردت الانصراف، فقد أحسست البكاء فى صدرى.

فقال: "لا، انتظرنى لحظة واحدة".

لماذا أنتظره؟ لقد كان هو نفسه فى طرقه إلى "العم"، وربما أحضر معه خاتم الخطبة. فقد يكون تضور جوعاً عدة أيام، أو أنه مدين لصاحبة الدار.

فأجبته: "نعم، إذا أنت أسرعت...".

فقال وقد أمسك بذراعى: "بالطبع، ولكنى أحب أن أقول لك: إنى لا أثق بك، فأنك أخرق، الأوفق أن تنزل معى".

فأدركت ما يرمى إليه، وفجأة أحسست أثراً من العزة يعاودنى، فأجبته:

"لا أستطيع، لقد وعدت بعضهم أن أكون فى شارع برنت أنكر (Bernt Anker) فى منتصف الساعة الثامنة، و.....".

"منتصف الساعة الثامنة، حسن جداً، نعم، ولكن الساعة الآن الثامنة، وإليك الساعة التى سأنزل بها هناك، فهى فى يدى. تقدم أيها الجائع الأثيم، فسأحصل لك على خمسة ريالات على الأقل.

ودفعنى إلى الداخل.

الفصل الثالث

وانقضى أسبوع فى هناء وسرور. وعدوت السوء كذلك هذه المرة على أهون ما يكون. فكان لدى طعام كل يوم، وتشددت عزيمتى، وأعددت العدة للأمر، فأخذت فى كتابة ثلاث مقالات بل أربعًا، سلبت من ذهنى المكدود كل بارقة أو فكرة فيه. وقد ألفيتها تفضل سابقاتها، وأما المقال الأخير الذى كلفنى كثيرًا من الجرى وراءه، والذى علقت عليه آمالًا كبار، فقد رده إلى قلم التحرير، فأبدته فى الحال - ولم أعد النظر فيه من شدة الحنق والألم. وأردت أن أعالج فى المستقبل صحيفة أخرى لكى أجد لى عدة مخارج، وإذا ما تعسرت الأمور، ولم يسعفنى هذا أيضًا، فهناك السفن لا تزال ملجأ أمامى، فثمّة النّنى (Nanne) تقف فى مؤخرة الميناء، متهيأة للرحيل، وربما أخذتنى معها عاملًا إلى الأرخبيل أو إلى أى مكان آخر تذهب إليه، وعليه لن أعدم رجاء من هذه الناحية أو تلك.

وكانت قد لعبت بى الأزمة الأخيرة دورًا مؤلمًا، فأخذت أفقد شعر رأسى بكميات كبيرة، واشتد وجع رأسى، وعلى الأخص فى الصباح، ولم تشأ أن تقف حدتى عند حد. وكنت أجلس فى مكانى فى النهار أكتب عاصبًا يدى بمنديل، فقد كنت لا أطيق وقوع نفسى عليها. وإذا أغلق (ينس أولى) باب الاصطبل بعنف، أو إذا دخل كلب فى فناء الدار الخلفى وابتدأ يعوى أصابتنى رعدة لا تفتأ تسرى فى كل أطرافى، فقد انحطت فى الواقع قواى.

وانهمكت فى عملى يومًا بعد يوم. وقل أن سمحت لنفسى بفراغ من الوقت، فكنت أزدرد طعامى، وأعود فأجلس للكتابة. وكان السرير فى ذلك الوقت مثله مثل مكتبى الصغير المتأرجح، غارقًا بالمذكرات والأوراق المخطوطة، التى كنت أغير فيها وأبدل. فكنت أزيد أشياء جديدة مما يقع لى فى أثناء النهار وأنقص وأجدد فى المواضيع الضعيفة

هنا وهناك بكلمات منتقاة، وأنتقل من عبارة إلى عبارة بعناية فائقة. وفى عصر أحد الأيام انتهيت من كتابة إحدى المقالات، فدسستها فى جيبى فرحان جذل، وقصدت "الرئيس"، فقد حان الوقت لبذل جهد للحصول ثانية على بعض النقود، إذ لم يبق لدى كثير من (الأورات).

فرجانى "الرئيس" أن أنتظر قليلًا، ففى أسرع وقت سَـ... وعاد يكتب.

فنظرت حولى فى ذلك المكتب الصغير، فرأيت تماثيل نصفية، ومطبوعات حجرية، ومقطوعات، وسلة مهملات هائلة، تكاد تبتلع إنسانًا بأكمله، فانقبضت نفسى عند رؤية هذه البالوعة السحيقة، فم الأفعوان المفغور على الدوام، والمستعد لابتلاع الكتابات الجديدة المرفوضة - أو الآمال الجديدة المحطمة.

قال "الرئيس" من مكتبه فجأة: "فى أى يوم نحن؟".

فأجبته فرحًا لتمكنى من تقديم خدمة له: "فى الثامن والعشرين".

"فى الثامن والعشرين". وما زال دائبًا على الكتابة، وأخيرًا وضع القلم ناحية، ثم دار فوق كرسيه، ونظر إلى، وعندما لاحظ أنى لا أزال واقفًا عند الباب لوح لى بيده تلويحة، نصفها جد، ونصفها دعابة، وأشار إلى الكرسى.

فتجنبت نظراته حتى لا يرى أنى بدون صدار عندما أفتح سترتى لأخرج الأصول من جيبى.

وقلت: "إن هذا المقال ممتاز عن المصور كريجوس (Correggios) ولكنه للأسف ليس مكتوبًا..." فتناول الأوراق من يدى وأخذ يقلب فيها والتفت إلى ...

فشاهدته عن قرب، شاهدت ذلك الرجل الذى سمعت اسمه فى باكورة شبابى، والذى أثرت فى صحيفته كل هذه السنين أكبر تأثير. كان ذا شعر أجعد، وحاجبين سمراوين جميلين، فيهما شئ من الحركة. وكان من عادته أن يطرد الهواء من أنفه من وقت لآخر. وليس فى استطاعة قس من قساوسة اسكتلندا أن يباريه فى الهدوء، ذلك الكاتب الخطير الذى

كان لكلماته وقع السياط الدامية. فتملكنى شعور خاص من الخوف والإعجاب نحو هذا الرجل الجالس قبالتى. فأوشكت الدموع أن تنحدر من عينى. واندفعت خطوة للأمام على غير وعى منى لأقول له كيف أنى احترمه من قرارة نفسى لكل ما علمنيه، ولكى أرجوه أن لا يزيد فى محنتى، فما أنا إلا عاجز فقير، قد ساءته الأيام كل الإساءة.

فرفع نظره وجمع "الأصول" مع بعضها ببطء وهو جالس مكانه يفكر، فمددت يدى بعض الشئ كيما أخفف عنه جواب الرفض، وقلت: "آه، لا، طبعاً غير صالحة؟". وتبسمت لأريه أن الأمر أهون مما قدر.

فأجاب: "نحن لا نستطيع أن ننشر غير الأشياء المطروقة. أنت تعرف أى قراء قراؤنا. ولكن ربما كان فى طاقتك أن تأخذها معك وتبسط عباراتها، أو تفكر فى شئ آخر يسهل على الناس فهمه؟".

وأدهشنى أدبه كل الإدهاش. فمع أنى أدركت أن مقالى قد رفض، فأنه لم يكن ليوجد رفض أكثر أدباً من هذا، ولكى لا أطيل عليه قلت له:

"مؤكد أستطيع".

وأذهب إلى الباب، وهو يكاد يعتذر عن شغلى وقته بهذه الأشياء... فأنحنى وأتلمس مقبض الباب.

فيقول: "إذا كنت فى حاجة إلى قليل من النقود، ففى مكنتك أن تحصل على مقدم أجر بسيط، وفى استطاعتك أن تكتب لنا نظيره شيئاً.

فرأيت فى تفضله شيئاً من الإذلال، بعد أن رأى أنى لا أصلح للكتابة، فأجبته:

"لا، أشكرك، أنى أستطيع أن أدبر أمورى بضعة أيام. أشكرك كثيراً، إلى الملتقى".

فأجاب الرئيس: "إلى الملتقى". والتفت فى الوقت نفسه إلى مكتبه.

ومع كلّ ذلك، فقد عاملنى بكرم لا أستحقه، وإنى شاكر له ذلك، وسأظل أعترف له به. واعتزمت أن لا أعود إليه مرة أخرى قبل أن آتيه بمقال أطرب له أنا نفسى، ويندهش له "الرئيس" بعض الاندهاش، فيجعله يأمر لى بعشرة ريالات بدون أن يتردد لحظة واحدة وعدت ثانية إلى الدار وأخذت فى الكتابة من جديد.

وحدث باطراد فى الليلات التالية حوالى الساعة الثامنة عند إشعال مصابيح الغاز ما يأتى:

لا أكاد أخطو عتبة الدار طلباً للارتياض فى الطرقات، بعد عناء النهار ومتاعبه، حتى أجد امرأة متشحة بالسواد، واقفة قرب عمود المصباح قبالة الباب تماماً، فتتجه نحوى بوجهها، وتتبعنى بنظراتها كلما مررت بها، ولاحظت أنها ترتدى على الدوام نفس الرداء، ونفس القناع الصفيق الذى يخفى ملامح وجهها، وينزل إلى صدرها، وتحمل فى يدها مظلة ذات حلقة من العاج فى مقبضها.

وقد رأيتها هناك فى ذلك المكان على الدوام ثلاث ليال، ليلة بعد الأخرى، وكلما مررت بها كانت تتلفت ببطء، وتسير نازلة فى الشارع مبتعدة عنى.

وأعملت ذهنى، وسرعان ما استولى على خاطر سخيف، وذلك أن مجيئها إلى هنا إنما كان من أجلى، وأوشكت أن أتحدث إليها، وأن أسألها أكانت تبحث عن أحد الناس، أو أكانت فى حاجة إلى مساعدة ما، أو تريد أن أصحبها إلى الدار بملابسى السيئة كما هى الحال الأسيفة التى كنت عليها، كى أحميها من تلك الطرقات المظلمة. ولكنى استشعرت خوفاً مجهولاً، فقد يتطلب ذلك منى نقوداً أو كأساً من النبيذ أو عربة ركوب، ولم يكن لدى نقود، وكان لجيوبى الفارغة الموئسة أسوأ تأثير فى نفسى ولم تكن لدى الشجاعة الكافية للتحديق فيها عند مرورها بى، وعاد الجوع فاتخذ مسكنه بين أضلاعى، فلم أكن قد تناولت طعاماً منذ الليلة الفائتة، والواقع أن هذا لم يكن بالزمن الطويل، فكثيراً ما تحملته عدة أيام، ولكن قواى اليوم قد وهنت، فلم يعد فى طاقتى أن أتحمل الجوع كما كنت أتحمله فيما سلف، فيوم واحد كان يكفى لإسكارى، ولا أكاد أتجرع الماء حتى أقاسى ألم القئ، أضف إلى هذا أنى كنت أبرد فى الليل، فأرقد فى الفراش بملابسى التى أروح بها وأغدو فى النهار، لا بل كنت أجمد من القر كل ليلة، وأنا ذاهب لأرقد فأفقد الحس فى غضون الليل، ولم تعد الملحفة العتيقة تقوى على وقايتى من الريح، فإذا تنبهت فى الصباح وجدت أنفى قد ورم من الهواء القارس الذى يهب من الخارج.

وأسير فى الطرقات أفكر فيما عساى أصنع لأمسك رمقى، حتى أنتهى من كتابة مقالى التالى. ولو أنى كنت أمتلك شمعة لعالجت العمل فى

الليل فما هى إلا بضع ساعات وأنتهى من عملى إذا أنا أسرعت بالفعل فى إنجازه، وبذلك أستطيع أن أقصد "الرئيس" فى غدى.

وتغلغلت بدون اكتراث فى ندوة (أبلاندسكى) أبحث عن صديقى الشاب الذى يعمل فى المصرف، لأسأله عشرة (أورات) ثمنًا لشمعة، فلم يعترضنى أحد عن ارتياد الغرف جميعها. فمررت بعشرات من الموائد يجلس إليها الزوار يتحدثون، ويأكلون ويشربون، فنفذت فى القهوة، حتى طرفها الآخر، حتى الغرفة الحمراء، فلم أجد صديقى، فانسحبت إلى الشارع حانقًا خائر القوى، وعدت فى اتجاه القصر ثانية.

أوليس من المؤلم أن متاعبى لا تعرف لها حدًا! رفعت ياقة سترتى بشكل غير مألوف، وسرت الطريق كله بخطوات جبارة وألعن نجمى، فمنذ سبعة بل ثمانية شهور لم أر بحق ولا ساعة واحدة خلواً من الهم، حتى ولا الضرورى من الطعام الذى يكفينى لمدة أسبوع واحد قصير. وها هو الجوع يذلنى الآن. ومع كل هذا فقد نشطت وبقيت فى وسط كل هذا البؤس شريفًا، وشريفًا، ها، ها بل آية فى الشرف! ليرعنى الله فكم كنت أحمق! وحدثت نفسى كيف أن ضميرى كان سيئًا يوم أردت أن أرهن ملحفة (هانس بولى). وضحكت ساخراً من شرفى الرفيع، وبصقت باحتقار على الطريق. ولم أجد كلمة من القوة بحيث تكفى للتعبير عن حماقتى. وما أشد حاجتى لها الآنّ فلو أنى وجدت الساعة (أورات) بعض التلميذات المدخرة على الطريق، أو (أورات) أرملة بائسة لا تملك سواها لالتقطتها من الأرض ودسستها فى جيبى، سأسرقها بنفس مطمئنة وأنام بعد ذلك الليل كله كالحجر. ولم يكن عبثًا أنى شقيت كل الشقاء، فإن صبرى قد نفذ، وأصبحت مستعداً لعمل كل شئ.

سرت ثلاث أربع مرات حول القصر، وهناك قررت العودة إلى الدار، وعملت جولة صغيرة فى البستان، ثم أخذت طريقى عائداً عن طريق شارع (كارل يوحنا).

وكانت الساعة تقريبًا الحادية عشرة، وكانت الشوارع تكاد تكون مظلمة. والناس يجتالون فى كل مكان، فمن زوج صامت إلى جيوش عاجة. فثمة الساعة الخطيرة، ساعة الوصال التى تقع فيها الأمور الخفية،

وفيها تبتدئ المغامرات الطلية، فمن حفيف ثوب فتاة، إلى ضحكة قصيرة ذات مغزى هنا أو هناك، نهود تترجح، وأنفاس حارة تشهق، وهناك على بعد عند (جراند) دعا داع: إما! (Emma) وكان الشارع كله أشبه بالمستنقع الذى يتصاعد منه البخار الحار.

وأخذت من غير قصد أبحث فى جيوبى عن ريالين، فالهوى الذى يرعش كل حركة من حركات المارة، حتى نور مصابيح الغاز القاتمة، والليلة الهادئة المليئة بالحوادث، كل هذا أخذ يستولى على مشاعرى - ذاك الهواء الممتلئ بالهمسات وتطويق الأذرعة، والاعترافات المضطربة، والكلمات المتقطعة، والتنهدات القصيرة. وفى مدخل طريق بلوم كويست (BlomQuist) كان بعض القطط يغازل بعضًا بصوت مسموع، وأما أنا فلم يكن لدى ريالان. إنها لحسرة وتعس لا نظير لهما أن تكون هكذا محرومًا! فيالها من ذلّة ويالها من فضيحة! وعدت ففكرت فى أنى لن أتورع عن سرقة آخر فلس تملكه امرأة فقيرة، وأنى لن أتعفف عن بيع قبعة أحد التلامذة أو منديله، أو جراب بعض الشحاذين، لبائع الخلقان، لأنفق من ثمنها عن سعة. ولكى ألهم نفسى العزاء، وأعوضها خيرًا، أخذت أعد على الناس المرحين الذين يمرون بى أخطاءهم، وهززت منكبى حانقًا، وحدجتهم بازدراء، وهم يمرون بى أزواجًا أزواجًا، أولئك الطلبة الذين يرضون بالقليل، ويتناولون الحلوى ويعتقدون أنهم زير نساء على الطريقة الغربية إذا لطموا إحدى الفتيات على صدرها! وأولئك المتحذلقون وموظفو المصارف وكبار التجار وسباع الطرقات الذين لا يأنفون من شئ! ونسوة البحارة ونسوة (كتورف) الغلاظ الذين يسقطن من أجل كوبة بيرة عند أول باب!... فبصقت على الطريق غير مبال أن يصادف بصاقى أحد معارفى، فقد كنت ثائرًا؛ وقد امتلأت نفسى احتقارًا لهؤلاء الناس الذين يتمايلون بعضهم على بعض، ويتغازلون أما عينى، ورفعت رأسى شاعرًا أن نفسى قد سمت وبوركت لأنى سرت فى طريقى نقيًا.

وفى ميدان ستورتنج (Storting) التقيت بفتاة أخذت تحدق فى عند اقترابى منها.

فقلت: "عمى مساءً!".

"عم مسًا"، ووقفت مكانها.

"أو ترتاضين وحدك فى وقت متأخر كهذا؟ أوليس من خطر على فتاة مثلك أن تسير فى مثل هذا الوقت فى شارع (يوحنا)؟ أليس كذلك؟ ألم يتعرض لك أحد ويضايقك؟ أعنى طلب منك فى صراحة أن يذهب معك إلى الدار؟".

فحدقت فى مندهشة منقبة فى وجهى ما أعنى بقولى. ثم دفعت يدها فجأة تحت ذراعى: "وعليه فلنذهب".

فسرت معها، وما كدنا نمر بإحدى عربات الركوب، حتى وقفت مكانى، وخلصت ذراعى منها، وقلت:

"اصغى إلى يا بنيتى. أنا لا أملك (أورًا) واحدًا"، وهممت أن آخذ طريقى.

فلم تشأ لأول وهلة أن تصدقنى. ولكنها بعد أن فتشت جيوبى جميعها ولم تجد شيئًا، هزت رأسها ودعتنى أحمق.

فقلت: "عمى مساءً".

فنادتنى: "قف قليلًا، أنظارة ذهبية تلك التى تحملها؟".

"لا".

"إذن فلتذهب إلى الشيطان".

فمضيت فى طريقى.

فجرت فى الحال ورائى ونادتنى ثانية.

وقالت: "إن فى مكنتك على الرغم من ذلك أن تأتى معى". فشعرت بالذلة لطلب هذه البغى البائسة. وقلت لا، فالوقت متأخر وعندى موعد، وأنت لا تطيقين مثل هذه التضحية.

"نعم أنا أريدك الآن معى".

"ولكنى لا أذهب معك على هذه الحال".

فقالت: "طبعاً تريد أن تذهب إلى أخرى".

فأجبت: "لا".

آه، لم تبق لدى القوة الحقيقية، فقد صارت الفتيات لدى أقرب للرجال فقد قتلتنى البائسة، وأحسست بسوء موقفى أمام هذه البغى العجيبة، فقررت أن أتظاهر على الأقل بإنقاذه.

فسألتها: "ما اسمك؟"، فقالت: "مارى"، "حسنا! أصغى إلى الآن يا مارى!"، وأخذت أشرح لها ما غمض عليها من مسلكى، فأخذ العجب الفتاة، فقلت: "لعلك حسبتنى أحد أولئك الذين يسيرون فى المساء يتصيدون الفتيات فى الطرقات؟ أو لعلك اعتقدت حقاً أن بى شيئاً من تلك السفالات؟ هل قلت لك شيئاً فى أول الأمر خلواً من الأدب؟ وهل لأحد أن يسلك مسلكى إذا كانت نفسه تسول له منكراً؟ وبالاختصار طفقت أتحدث إليها وسرت معها بضعة خطوات لكى أرى إلى أى مدى تسير، وعلى أية حال فاسمى فلان، القس فلان، عمى مساءً، عودى إلى دارك، ولا تأثمى بعد.

وعلى ذلك انصرفت.

وأخذت أقلب يدى. وأتحدث إلى نفسى بصوت عال، مغتبطاً لهذا الخاطر الطيب، وأى اغتباط أن تتحول هنا وهناك وتصنع جميلاً. ربما كانت صدمتى لهذا المخلوق الساقط خطوة أولى فى سبيل الإصلاح مدى الحياة! وستعرف لى هذا عندما تفكر فيه ساعة تأخذها الوفاة، فتذكرنى بقلب ملؤه الشكر. آه إنه ليجدر بالواحد على الرغم من كل ذلك أن يكون شريفاً، شريفاً ومستقيماً، وصفا مزاجى وأحسست نشاطاً وقوة على عمل كل ما هو فى الإمكان؟ لو أن لدى شمعة، لتمكنت من إنجاز مقالتى، وسرت متثاقلاً أهز مفتاح باب دارى الجديد، أدندن وأصفر وأفكر فى وسيلة للحصول على شمعة، فلم يبق من حل سوى أن أحضر مقالاتى إلى الشارع، وأكتب تحت مصباح الغاز. وفتحت باب الدار، وصعدت فى السلم لأحضر أوراقى.

ولما نزلت ثانية أقفلت باب الدار ورائى، ووقفت تحت ضوء المصباح، وقد شمل الهدوء كل شئ، فلم أسمع غير وقع خطوات الشرطى الثقيلة عند مفترق الطرق، وكلب ينبح على مسافة فى اتجاه (سانت هنس هوجن) فلم يعكر صفوى شئ ما، فرفعت ياقة سترتى إلى الآذان. وابتدأت أعصر ذهنى. ولو أنى وفقت إلى خاتمة بديعة لهذا المقال الصغير لوضع عنى وزرى. فقد كنت بلغت فيه إلى نقطة صعبة يتعذر التخلص منها إلى شئ جديد بدون أن يلحظ القارئ ذلك، خاتمة ذات مجازات وكنايات تنتهى بالمقال إلى ذروة السمو، فتكون كقنبلة أو صدى لفرقعة صغيرة منفجرة. أه.

ولكن الكلمات عصتنى. فأخذت أقرأ المقطوعة كلها من الأول للآخر وأعيد جملًا بصوت عال. ولكنى لم أستطع أن أستجمع أفكارى تمامًا لأصل إلى هذه الذروة، وبينما أنا وأقف مكانى أكتب إذ جاء الشرطى كذلك، ووقف على مسافة منى فى وسط الشارع فعكر على مزاجى، فليت شعرى أى شئ يعنيه أن أقف مكانى فى تلك اللحظة أعد "للرئيس" مقطعًا عجيبًا لمقالى؟ مولاى إنه ليستحيل على إمساك رمقى مع كل ما بذلته، ووقفت مكانى ساعة كاملة. ومضى الشرطى فى طريقه وأصبح البرد لا يطاق معه الوقوف فى أمن، فعدت خائر العزيمة موهونًا بسبب هذه المحاولة الجديدة الطائشة. ثم فتحت باب الدار وصعدت إلى غرفتى.

وكانت الغرفة باردة. ولم أستطع أن أرى نافذتى فى هذا الظلام المخيم فتلمست السرير وخلعت نعلى ودفأت قدمى بين يدى، ثم رقدت - كما تعودت أن أفعل منذ زمن طويل، وبكامل ملابسى التى على رقدت.

وما كاد يتنفس النهار حتى أخذت مجلسى على السرير وانكببت على العمل. وبقيت على هذه الحال حتى الظهر، ولكنى لم أكتب أكثر من عشرة أو عشرين سطرًا ولم أبلغ النهاية.

فنهضت واقفًا، ولبست حذائى، وبدأت أذرع غرفتى جيئة وذهوبًا كى أدفئ نفسى. وكان الثلج قد كسا زجاج النافذة، فنظرت إلى الخارج، فإذا السماء تثلج. وكان فى فناء الدار طبقة من الثلج على الأرض وفوق المضخة.

وطفقت أنقب حولى فى الغرفة، وأغدو وأروح فيها بلا إرادة، أخمش بأظافرى الحائط وأضع جبهتى على الباب فى حذر، وأدق بشاهدى على الأرض، وأصغى بانتباه؛ وكل هذا بدون قصد، ولكن بهدوء وتفكير، كما لو كنت أعتزم أمراً هاماً. وفى الوقت نفسه أخذت أقول بصوت عال مسموع لى: إن هذا لخبل يا إلهى العزيز! وصرت أكرر هذا باستمرار، وبعد مضى زمن طويل لا يقل عن بضع ساعات، ضبطت نفسى، وعضضت على شفتى، واستجمعت قواى بقدر ما أستطيع، لابد لوضع حد لهذا! وأخذت أبحث عن شظية من خشب لألوكها فى فمى، وعدت فجلست وقد صممت على الكتابة.

فحضرنى جملتان قصيرتان بعد عناء عظيم تتألفان من عشرات الكلمات التافهة التى عصرتها من رأسى عصراً، ثم أجبلت، فقد كان رأسى فارغاً فلم أستطع مزيداً، ولما كنت عاجزاً عن استئناف الكتابة بالمرة، أخذت أحدق بعينى محملقتين فى الكلمات الأخيرة، وفى الصحيفة الناقصة، وأنعمت النظر فى الحروف العجيبة المضطربة التى كانت تتراءى لى كحشرة صغيرة شائكة، ولم أعد فى النهاية أدرك شيئاً من الموضوع وعدمت التفكير.

وانصرم الوقت، وأخذت أسمع صوت حركة المرور فى الشارع، صوت العربات والخيل. وكلما نادى (ينس أو ليس) على خيله فى الاصطبل رن صوته فى أذنى، وكنت منهوك القوى، فجلست مكانى لا أصنع شيئاً غير أنى بين الحين والحين كنت أتلمظ بشفتى، وكان صدرى ضيقاً حرجاً، وابتدأ ميزان النهار يميل، وابتدأت أتقوصر فى نفسى، فقد كنت تعباً، فعدت ورقدت على فراشى، ولكى أدفئ يدى بعض الشئ أخذت أمر بأصابعى فوق شعرى من الإمام إلى الخلف ومن اليمين إلى الشمال، فكانت تخرج منه خصل تعلق بأصابعى أو تتناثر على الوسادة. ولم أفكر فيها فى تلك اللحظة، كان الأمر لا يعنينى ومع ذلك فقد كان شعرى لا يزال غزيراً، وعدت أعالج النهوض من هذا الجمود العجيب الذى كان أشبه بضبابة تجرى فى أعضائى، فاعتدلت وضربت بكفى على ركبتى، وسعلت بقوة بقدر ما يسمح صدرى - ولكنى عدت إلى حالتى السابقة ولم يفدنى شئ من كل ذلك، وأخذت أتلاشى بعينين مفتوحتين حائرتين، لحظهما موجه

إلى السماء، وأخيراً وضعت شاهدى فى فمى، وأخذت أمصه فابتدأ يتحرك ذهنى، وطغت فيه فكرة، لا بل خاطر جنونى: لو أنى عضتت عليه الآن؟ وبدون أن أتدبر لحظة واحدة زررت عينى، وطبقت أسنانى معاً.

ووثبت فى الهواء، وتيقظت حواسى فى النهاية، ورشح من أصبعى قليل من الدم فأخذت ألعقه ولم يؤلمنى كثيراً، ولم يكن الجرح كذلك كبيراً، ولكنى عدت دفعة واحدة إلى نفسى، وأخذت أهز رأسى، ثم ذهبت إلى النافذة أبحث عن خرقة أضمد بها جرحى، وبينما أنا واقف هناك مشتغل به، دمعت عينى، فبكيت شفقة على نفسى، فقد بدا لى منظر ذلك الإصبع الهزيل المجروح مؤلماً. يارب السموات إلى أى مدى سارت بى الأمور!

وعسعس الليل، ولم يكن من المستحيل أن أفرغ من كتابة الخاتمة فى هذا المساء، لو أن عندى شمعة، وعاد ذهنى إلى الصفاء، وأخذت الأفكار تجئ وتروح كالعادة. ولم أعد أتألم كثيراً، ولا عدت أشعر بألم الجوع يعذبنى الساعات الطوال كما كانت الحال فيما سبق. وربما استطعت أن أتحمل آلامه إلى الغد. فقد أوفق فى ذلك للحصول على شمعة نسيئة إذ أنا ذهبت إلى الدكانة الصغيرة وحدثت صاحبها بقصتى، فهو يعرفنى حق المعرفة، ففى الأيام الطيبة، أيام كنت لا أزال أملك شيئاً من النقود، كثيراً ما اشتريت خبزاً من دكانه، ولا شك أنى سأحصل منه على شمعة بالنسبة لشرف اسمى، ولأول مرة وبعد زمن طويل نشطت مرة، وفرشت ملابسى قليلاً، ونظفت ياقة سترتى من خصل الشعر المرسلة عليها، بقدر ما يسمح به الظلام، ثم تلمست السلم نازلاً.

ولما بلغت الشارع خطر لى أنه ربما كان من الحكمة أن أطلب بدل الشمعة، رغيفاً من الخبز، وبقيت واقفاً أفكر فى الأمر بدون أن أقطع برأى. ثم حاججت نفسى: لن يكون ذلك بأية حال! فلست للأسف فى حال يسمح لى بتناول أى طعام كان. فستتكرر نفس القصص والأخيلة، والأفكار والخواطر الجنونية، ولن أنتهى من مقالى، ويهمنى أن أرى "الرئيس" قبل أن يعود فينسانى، لن يكون ذلك بأية حال، وقضيت فيما بينى وبين نفسى أن أطلب الشمعة، وعلى ذلك سرت إلى الدكانة.

فوجدت امرأة عند خوان الدكانة، واقفة تبتاع بعض الحاجيات، وعلى مقربة منى صففت عدة قراطيس صغيرة ذات أوراق مختلفة ألوانها، فترك المرأة غلام الحانوت الذى كان يعرفنى، ويعرف ما تعودت شراءه ولف لى رغيفًا من الخبز فى إحدى الصحف بدون كلفة ووضعه أمامى.

"لا، إنما أردت الليلة شمعة".

قلت ذلك فى خفوت وانكسار حتى لا أغضبه، ولا أفقد الرجاء فى الحصول على شمعة.

فكان جوابى له غير متوقع، فهذه هى المرة الأولى التى طلبت إليه فيها شيئًا غير الخبز.

فقال، وقد عاد فتحول إلى المرأة: "نعم، إذن عليك أن تتريث قليلًا".

وتناولت حاجياتها ودفعت قطعة من فئة الخمسة ريالات، وتناولت الباقى وانصرفت.

وبقيت أنا وغلام الدكانة وحدنا.

فقال: "نعم، وعليه تريد شمعة"، وفتح حزمة وتناول واحدة منها.

ونظر إلىّ ونظرت إليه، وعجزت عن التلفظ برجائى.

فقال فجأة: "آه، حقًا لقد دفعت". يقول ببساطة إنى دفعت، لقد سمعت كل كلمة. ثم يأخذ يعد من الخزانة النقود الفضية، ريالًا فوق ريال، نقودًا بيضاء سمينة - ويعيد إلى باقى الخمسة ريالات، ريالات المرأة الخمسة.

ويقول: "تفضل!".

فأقف عندئذ فى مكانى وأنظر إلى هذه النقود لحظة طويلة، فأحس أن شيئًا فى غير موضعه، ولكنى لا أفكر فى شئ مطلقًا، وإنما أدهش لهذه الثروة القائمة تتوهج أمام عينى، ثم أجمع النقود بطريقة آلية.

وأظل أقف أمام خوان الدكان مأخوذًا من الدهشة، مهزومًا متلاشيًا، ثم آتى بخطوة نحو الباب، ثم أعود فأتوقف، وأصوب نظرى خاصة فى الحائط حيث علق جرس فى طوق من الجلد تحت حزمة من الحبال، أقف مكانى أحدق فى هذه الأشياء.

ويظن غلام الدكانة أن لدى متسعاً من الوقت، وأنى أريد أن أتحدث إليه، فيقول وهو يعد قراطيس من الورق موضوعة على الخوان:

إنه ليبدو كأنا على أبواب الشتاء".

فأجبته: "نعم إنه ليبدو كأنا صائرون إلى الشتاء، نعم إنه ليبدو كذلك". وبعد قليل أضيف إلى ذلك: "آه، نعم أليس الوقت مبكراً".

وسمعتنى أنا نفسى أقول هذا الهزل، وكانت كلماتى من الوضوح كأنها صادرة عن شخص آخر.

فقال غلام الحانوت: "أوتظن ذلك حقاً؟".

فدسست يدى بالنقود فى جيبى. وقبضت على مقبض الباب وانصرفت، وسمعتنى أحييه تحية المساء، وسمعته يرد على تحيتى.

وما كدت أخطو خطوات مبتعداً عن الدرج حتى سمعت باب الدكان يفتح والغلام يناديني. فالتفت إليه فى غير دهشة، ولا وجل، بيد أنى قبضت على العملة فى يدى وأعددت نفسى مقدماً لإعادتها إليه ثانية.

فقال الغلام: "تفضل لقد نسيت شمعتك".

فأجبته فى هدوء: "آه، أشكرك! شكراً لك!".

وعدت أتسكع فى الطريق والشمعة فى يدى.

وكانت أفكارى محصورة فى النقود، فسرت إلى عمود المصباح، وعددتها من جديد، ووزنتها فى يدى وتبسمت، إنها لمعونة كبرى لى - معونة عظيمة عجيبة، تكفى لمدة طويلة، لمدة طويلة من الزمن! ثم دسست يدى ثانية بالنقود فى جيبى، ومضيت.

ووقفت أمام مطعم فى قبو فى شارع ستور (Stor) وفكرت فى هدوء ما إذا كنت أخاطر، وأمتع نفسى بتناول وجبة صغيرة. وسمعت أصوات الأطباق والسكاكين، وسمعت كيف يدق اللحم فكانت فتنة شديدة فدخلت.

وطلبت شريحة من لحم البقر.فنادت الخادمة من طاقة صغيرة: "شريحة من لحم البقر!"، وأخذت مجلسى على مائدة صغيرة عند الباب، لا يشاركنى فيها أحد، وبقيت أنتظر، وكان النور ضعيفاً فى تلك

الناحية، فأحسستنى قد اختفيت عن العيون، وأخذت أفكر، وكنت ألحظ الخادمة تنظر إلى من وقت لآخر بعينين ملؤهما الفضول لأول مرة أخون، أسرق لأول مرة! إلا أن سخافاتى السابقة التى لا تحصى لن تعد شيئًا بجانب هذا. سقطتى الأولى الصغيرة.الكبيرة.... ولوّ سبق السيف العذل، ومع ذلك فالأمر هين، فإذا ما سنحت فرصة طيبة سويت الأمر مع غلام الحانوت، فليس معنى هذا أن قضى على بالهبوط إلى أبعد من ذلك، كما أنى لست ملزمًا أن أكون أشرف من بقية الناس، فما من عهد على ذلك.

"هل تظنين أن طلبى ينتهى سريعًا؟".

"أى نعم، حالًا". وفتحت الخادمة الطاقة الصغيرة، ونظرت داخل المطبخ.

وإذا عرفت المسألة يومًا ما؟ إذا خامر غلام الحانوت الشك، وابتدأ يفكر فى مسألة الرغيف، وفى الخمسة ريالات التى أخذت المرأة بقيتها؟ فمن الجائز أن تظهر له الحقيقة ذات يوم عندما يرانى مرة أخرى، آه، مولاىّ... ثم هززت كتفى.

وقالت الخادمة فى رقة وقد وضعت طبق اللحم على المائدة: "تفضل ولكن أولًا أن تنتقل إلى الغرفة الأخرى، لأن هنا ظلام؟".

فأجبتها: "لا، أشكرك. سأبقى هنا. وتحركنى رقتها دفعة واحدة، فأدفع الثمن فى الحال، وأعطيها كل ما خرج فى يدى، وأطبق يدها عليها، فتبتسم فأقول مازحًا وعيناى تدمعان: "اشترى لك دارًا بالباقى.... بورك لك فيه!".

وأخذت أتناول طعامى. وتزايد شرهى فأخذت أزدرد قطعًا كبيرة من اللحم بدون مضغ فكنت أمزق اللحم كآكل لحوم البشر.

وتعود الخادمة فتتقدم إلى.

وتنحنى أمامى قليلًا وتقول: "أولًا تحب أن تشرب شيئًا؟".

فالتفت إليها فغضت من بصرها، وتكلمت بصوت شديد الخفوت فيه شئ من الحياء.

"أنا أعنى قدحًا من البيرة، أو أى شئ آخر تريده... منى... مع الطعام... إذا شئت....".

فأجبتها: "لا، أشكرك، ليس اليوم، سآتى مرة أخرى".

فتنسحب وتأخذ مجلسها وراء مائدة الأطباق، حقًا إنها لطفل عجيب!.

ولما انتهيت من تناول الطعام! أسرعت فى الحال إلى الباب فقد شعرت بالقئ، فنهضت الخادمة واقفة. وتجنبت النور عند مفارقة الفتاة، حتى لا أريها شيئًا من بأسائى التى لم تمر لها ببال، وقلت مسرعًا: "سعد مساؤك". وانحنيت ثم انصرفت.

وابتدأ الطعام يؤثر فى نفسى، فتألمت منه كثيرًا، ولم أعد أطيقه طويلًا، فذهبت إلى ناصية مظلمة، مررت بها وأفرغت ما فى معدتى، وكافحت كثيرًا هذا القئ الذى فرغ جوفى من جديد، وكورت يدى، واستجمعت قواى، ودببت بقدمى، ولكن عبثًا! وأخيرًا قفزت فى مدخل أحد الشوارع وحنيت رأسى، وقد أعمانى الدمع الذى ملأ عينى، وعدت فأفرغت ما فى جوفى مرة أخرى.

وامتلأت نفسى مرارة، وسرت فى الطريق أبكى، وألعن القوى الغاشمة التى تقفو أثرى، وتمنيت لها الجحيم المقيم لانحطاط صنيعها معى. حقًا أنها لقليلة النخوة إزائى، وما من أحد ينكر عليها ذلك!.... وقصدت رجلًا يحدق فى نافذة أحد الدكاكين وسألته فى لهفة عن رأيه فيما يحسن إعطاؤه من الغذاء لرجل لم يتناول طعامًا ما مدة من الزمن طويلة، وقلت إن حياته فى خطر، ومعدته لا تطيق اللحم.

فأجاب الرجل فى شدة الاندهاش: "سمعت أن اللبن يفيد فى مثل هذه الحال، اللبن المغلى، من أجل من تسأل؟".

فقلت: "شكرًا لك! نعم اللبن المغلى أظنه أفضل شئ".

ومضيت.

ذهبت إلى أول مشرب قهوة فاخر مررت به، وطلبت لبنًا مطبوخًا. وجاء اللبن فكرعته كما هو ساخن حتى الثمالة، وبلعت بشره كل نقطة من نقطه، ودفعت الحساب وانصرفت إلى الدار.

غير أنه حدث أمر عجيب، فأمام باب بيتى قام شبح رأيته عن بعد، اتكأ على عمود المصباح فى وسط النور - سيدة ترتدى السواد، وهى نفس

السيدة صاحبة الرداء الأسود فى المساء الفائت، ولا مجال للخطأ فيها، فقد جاءت للمرة الرابعة، ووقفت فى نفس المكان، وكانت تقف هناك بدون حراك.

فأجد هذا أمراً مستغرباً فأتثاقل فى خطواتى عن غير قصد. وكانت أفكارى فى تلك اللحظة فى غاية الانتظام، ولو أنى كنت ثائر النفس فقد أهاجت الوجبة الأخيرة أعصابى فأمر كالعادة ملاصقاً لها وأقترب من باب الدار، وأصبح على وشك الدخول، ثم أقف فى مكانى، فيخطر لى بغتة، وبدون سابق تقدير أن ألتفت ورائى، ثم أقترب من السيدة، وأحدق فى وجهها، ثم أحييها.

"عمى مساءً أيتها الآنسة!".

فتجيب: "عم مساءً!".

معذرة هل تبحثين عن أحد؟ لقد رأيتك من قبل. ربما أستطيع أن أقدم لك خدمة؟ وأعود فأسألك ألف معذرة.

"نعم" ولا تدرى بالضبط...

"وراء هذا الباب لا يسكن أَحدٌ غير ثلاثة أربعة أفراس وأنا. وعدا هذا فلا يوجد غير اصطبل ومحل صفيح. محقق أنك ضللت الطريق إذا كنت تبحثين عن أحد هنا".

فحولت وجهها وقالت:

"لا أبحث عن أحد، أنا إنما أقف هنا فقط، لقد خطر لى...".

"كذا يا هذه! أنت إنما تقفين هنا فقط، تقفين هنا مساءً بعد مساء اعتباطاً. إن هذا الشئ فيه شئ من الغرابة"، وكددت ذهنى بشأن هذه السيدة، فأخذت أفكارى تتبلبل، ثم قررت أن أستجمع شجاعتى وخشخشت بالنقود فى جيبى، وعزمتها على كأس من النبيذ فى أى مكان تشاء... بمناسبة الشتاء الذى هجم، ها، ها.... ولن يطول مكثنا... ولكنها لا تريد؟...

آه لا، شكراً، هذا لا يتفق، ليس فى طاقتها. ولكن لو تفضلت فصحبتها بضع خطوات تكون.... فالطريق إلى الدار مظلمة، وتستحى أن تسير وحدها فى شارع كارل يوحنا، فالوقت متأخر.

وانطلقنا، وقد سارت عن يمينى، فأولانى الإحساس بأنى أجد نفسى على مقربة من فتاة شابة شعوراً غريباً فى بابه، فرائحة شعرها والحرارة التى تخرج من جسمها، وهذا العطر النسائى الذى يحيط بها، ونفسها الحلو الذى أشمه فى كل مرة تحول وجهها فيها إلىّ، كل هذا تغلغل فى، وأندفع إلى حواسى بدون ممانع، وأمكننى أن أميز من تحت الحجاب وجها الممتلئ، الممتقع بعض الامتقاع، وصدرها المقبقب من تحت المعطف، فأطار صوابى التفكير فى كل هذا النعيم المستور، الذى قدرته تحت الحجاب والمعطف، وأسكرنى الفرح بدون سبب معقول، ولم أعد أطيق الصبر أكثر من ذلك، فلمستها بيدى، ومسحت كتفها وضحكت ضحكة بلهاء، وسمعت دقات قلبى.

وقلت: "ما أبدعك!".

وكيف كان ذلك؟

وعليه كانت أولًا معتادة أن تقف مساءً بعد مساء عند باب الاصطبل بدون سبب ما غير أنه خطر لها...

كما أنه من الجائز أن يكون عندها أسباب لذلك. وعدا هذا فإنها تحب السهر، وتميل إليه دائماً، وتساءلت عما إذا كنت أحب الذهاب إلى الفراش قبل الساعة الثانية عشرة.

أنا؟ إذا كنت أبغض شيئًا على وجه الأرض فهو النوم قبل الساعة الثانية عشرة.

وعليه أرأيت! وأنها اعتادت أن ترتاض دائماً فى المساء إذا لم يكن لديها عمل. وهى تسكن فى ميدان القديس (أولافس).

فصرخت: (يلايالى).

"ماذا؟".

"أنا إنى قلت (يلايالى)... استمرى".

تسكن وحدها فى ميدان القديس (أولافس) مع أمها التى لا يمكن التحدث إليها لصممها، وإذا كانت تحب الارتياض قليلًا، فأى شئ غريب فى ذلك.

فقلت: "لا شئ".

حسنًا وعليه؟ - وأدركت من صوتها أنها تبتسم.

وسألتها إذا كان لها أخت؟

نعم لها أخت أكبر منها. وكيف عرفت ذلك؟ لقد سافرت إلى همبورج.

منذ مدة قصيرة؟

منذ خمسة أسابيع، وكيف عرفت أن لها أختًا؟

أنا لا أعرف عن ذلك شيئًا، وإنما ذلك عن طريق السؤال.

وصمتنا، ومر بنا رجل يحمل تحت إبطه حذاء، وما عداه فقد كان الطريق إلى أقصى ما يصل إليه النظر خلوا من المارة.

وأمسكت السماء أن تثلج، وأصبح أديمها صافيًا.

فقالت السيدة فجأة، وقد نظرت إلىّ: "يالله ألا تحس البرد، وأنت بدون معطف؟".

أوكان لزامًا على أن أحدثها عن سبب عدم ملكى لمعطف؟ وأكشف لها فى الحال عن حقيقة موقفى، وأخيفها من البداية؟ ولقد كان المسير بجوارها، وتركها فترة تعمه فى الجهالة أمرًا ممتعًا، وعليه ضحكت وقلت:

"لا، أبدًا". ولكى أحول مجرى الحديث سألتها: "هل رأيت معرض الوحوش فى تيفولى؟".

فأجابت: "لا، هل هناك ما يستحق المشاهدة؟".

ولو خطر لها الآن الذهاب إلى هناك؟ حيث يتلألأ، وحيث يوجد خلق كثير! فقد يربكها بل ربما ساقها إلى باب الخروج منظر بذلتى الرثة، ووجهى الهزيل الذى فوق ذلك لم أغسله منذ يومين، بل ربما اكتشفت أن ليس لدى صدار.

ولذلك قلت: "آه، لا، مؤكد، لا يوجد شئ للتفرج عليه، ثم خطرت لى عدة خواطر مبهجة، استخدمت منها شيئًا فى الحال، بعض عبارات ساذجة كانت لا تزال فى ذهنى الجاف، أى شئ يمكن أن ينتظره الواحد من مثل معرض الوحوش الصغيرة هذا؟ والحيوان فى القفص لا يهمنى بالمرة، هذه الحيوانات تعرف أن الإنسان يقف أمامها ليتفرج عليها، وتدرك مئات اللحظات المتشوقة وتتأثر بها. لا، إنما أنا أطلق الحيوانات التى لا تدرك أن الإنسان يحدق فيها، تلك المخلوقات الجافلة التى تجول فى مغارتها، ذوات العيون الخضراء اللامعة، الراقدة تلعق مخالبها وتفكر. أليس كذلك؟

نعم إن الحق بجانبك بدون شك.

الرهبة الغريبة التى للحيوان، وحشيته العجيبة هى أبدع ما فيه، فخطواته غير المسموعة التى يسترقها فى ظلام الليل، ورهبة الغابة المتأثرة بالجو، وصرخة طائر، والريح، ورائحة الدم، والدوى من فوقنا فى الخلاء، وبالاختصار روح المملكة المفترسة فى الحيوان المفترس... شعور الغير العارف.

ولكنى خفت أن أضنيها بهذا الحديث، أو أن يتملكنى الوعى بالنسبة لبأسائى العظيمة من جديد، فيطرحنى أرضًا. لو أن لباسى كان على شئ من الهندام لشاركتها فى المسرة فى هذه الرحلة القصيرة إلى (تيفولى) أنا لا أفهم هذا الشخص الذى يجد غبطة فى أن يقاد طول شارع كارل يوحنا من سائل نصف عار، ماذا عساه بالله يظن؟ ولأى سبب أسير وأتدلل وأبتسم كالأبله لغير شئ؟ وترى هل من سبب معقول لأستسلم لهذا الطائر الرقيق يجرنى كل هذا الطريق البعيد؟ أولا يكلفنى هذا مجهودًا؟ أولم أشعر ببرد الموت فى صدرى عندما تهب علينا أرق نغمات الريح؟ أولم يسر الخبل فى رأسى لأن الغذاء ينقصنى منذ شهور؟ إنها لتحول

حتى بينى وبين الذهاب إلى الدار لآخذ شيئًا من اللبن على لسانى، ملعقة لبن ربما أمكننى الاحتفاظ بها فى جوفى، ولماذا لم تدر لى ظهرها وتدعنى أذهب إلى الجحيم...

أيست، وأخرجنى يأسى عن الحد فقلت:

"الحق أنه لا يليق بك أيتها الآنسة أن تسيرى معى، إنى لأفضحك أمام كل الناس، فقط بلباسى. نعم هذه هى الحقيقة. وأنا أعنى بصدق ما أقول".

فجفلت لحظة. وألقت بنظرة سرية إلى ثم صمتت، وأخيرًا قالت:

"يالله العزيز"، ولم تزد حرفًا.

فسألتها: "ماذا تعنين بذلك؟".

"أف، لا، أخجلتنى... لم يبق أمامنا مسافة طويلة" وعند هذا أسرعت الخطأ بعض الشئ، فانثنينا فى شارع الجامعة، فطلعت علينا الأنوار فى ميدان القديس (أولافس) ثم عادت فتباطأت فى المسير.

وقالت: "لا أحب أن أكون متطفلة، ولكن قل لى ألا تريد أن تذكر لى اسمك قبل أن نفترق؟ وألا تحبين أن ترفعى الحجاب لحظة حتى أتمكن من رؤيتك؟ إنى لأكون لك من الشاكرين".

يسود سكون. وأنتظر.

فقالت: "لقد رأيتنى مرة من المرات".

فأجبتها: "يلايالى!".

"أليس كذلك؟ لقد طاردتنى يوم بأكمله حتى باب دارى. أكنت يومئذ نشوان؟". ثم عدت فسمعتها تبتسم.

فقلت: "نعم كنت فى ذلك اليوم نشوان".

"لقد كان هذا منك شيئًا إذًا".

فسلمت مغلوبًا على أمرى أن هذا كان منى شيئًا إذًا.

وكنا قد وصلنا إلى النافورة، فرفعنا رؤوسنا إلى النوافذ المضيئة فى الدار رقم 2.

فقالت: "أبعد من هذا لا يصح أن تسير معى. أشكر لك هذا المساء!".

فحنيت رأسى ولم أتجاسر على قول شئ. ثم رفعت قبعتى ووقفت أمامها عارى الرأس، لعلها تمد لى يدها.

فتساءلت همسًا وهى ملقية بنظرها إلى مقدم حذائها: "لم لا تسألنى أن أمشى معك قطعة من الطريق؟".

فأجبتها غير متمالك نفسى: "الله، الله! لو فعلت هذا!".

"نعم، ولكن قطعة صغيرة من الطريق".

وعدنا

واشتدت بى الحيرة، ولم أدر أأسير أم أقف، فقد قلبت هذه المخلوقة مجرى أفكارى، طفح على السرور وتملكنى فرح عجيب حتى كادت نفسى من فرط السعادة تنسحق. أبدت فى توكيد رغبتها فى العودة معى، ولم يكن هذا من خواطرى بل كانت رغبتها الخاصة، وأنظر إليها، فأتشجع باستمرار، وكانت كل كلمة تقولها تيقظ مشاعرى وتجذبنى إليها، فنسيت لحظة من الزمن بأسائى، مهانتى، بل كل وجودى التعس، وأحسست حرارة الدم تجرى فى جسمى - كما كانت الحال فى حياتى الأولى قبل أن أتحطم - قررت أن أحوم حول الأمر بغمزة لينة.

فقلت: "أنا لم أطاردك المرة السابقة، إنما كنت أقصد أختك".

فقالت وقد بهتت: "أختى؟" وبقيت واقفة مكانها تنتظر جوابًا. ثم سألتنى جادة كل الجد.

فأجبتها: "نعم، أعنى صغرى السيدتين اللتين كانتا تسيران أمامى".

"الصغرى؟ نعم؟ ها، ها، ها!". وأخذت تضحك ضحكًا عاليًا صادرًا من قلبها كما يضحك الطفل، لا، إنك لداهية! إنما تقول هذا كى أرفع الحجاب. أليس صحيحًا؟ لقد لاحظت ذلك ولكنك أخطأت.... عقابًا لك".

وضحكنا ومزحنا، وطفقنا نتحدث طول الطريق بدون انقطاع، ولم أدر ما قلته لها، فقد كنت طربًا، وحدثتنى أنها رأتنى منذ مدة فى أحد الملاهى مع ثلاثة من الرفاق، وأن مسلكى كان أشبه بمسلك المخبولين. آسف، فأنى كنت فى هذا اليوم أيضًا نشوان!.

ولماذا تعتقد ذلك؟.

لأنى أكثرت من الضحك.

كذا؟ نعم، كنت فى ذلك الحين لا أزال أضحك!.

والآن ألم تعد تضحك؟.

نعم، والآن أيضًا.

وبلغنا شارع كارل يوحنا فقالت: "لن نسير إلى أبعد من هذا!"، وعدنا إلى شارع الجامعة. جئنا إلى النافورة من جديد، أخذت أتلكأ فى السير، فقد عرفت أنه لا يصح أن أسير معها أبعد من ذلك.

فقالت وقد وقفت فى مكانها: "يلزمك الآن أن تعود من حيث أتيت".

"نعم، هذا ما لابد منه".

ولكنها عنت بذلك أنى أقدر أن أشيعها إلى باب بيتها. يالله! ولكن كأنا لم نفعل شيئًا أليس كذلك؟

فقلت: "لا".

ولكنا لما وقفنا أمام باب الدار، عاد شقائى فتغلب على. وأنى للإنسان أن يحتفظ بشجاعة إذا كان محطمًا مثل هذا التحطيم؟ هنا أقف أمام سيدة فى نظارة الشباب قذرًا ممزق الثياب مشوهًا من الجوع وبدون اغتسال وأكاد أكون عاريًا! لقد كان موقفًا يحسن بصاحبه أن يغوص فى الأرض. فصغرت نفسى وأذللت من كبريائها عن غير وعى، وقلت لها:

"ألا تسمحين أن نلتقى مرة أخرى؟".

ولم أعلل النفس بالطمع فى السماح لى بمقابلة أخرى، بل كنت أطمع منها فى رفض حاسم يقوى عزيمتى ويجعلنى لا أكترث بها.

فقالت بصوت خافت لا يكاد يسمع: "بلا شك".

"متى؟".

"لا أدرى".

فترة صمت.

فقلت: "ألا تريدين أن ترفعى الحجاب لحظة واحدة، حتى أرى مع من أتحدث؟ لحظة واحدة. لابد لى أن أرى مع من أتحدث".

فترة صمت.

فقالت: "تستطيع أن تنتظرنى هنا يوم الثلاثاء. أتحب؟".

"نعم أيتها العزيزة إذا سمحت لى!".

"فى الساعة الثامنة".

"حسنًا".

ومسحت بيدى على معطفها وأنزلت الثلج من عليه، فقط لاجد لى حجة لألمسها، فقد كان السماح لى بالاقتراب منها مسرة ليس بعدها مسرة.

فقالت، وقد عادت تبتسم: "ولكن، يلزمك أن لا تظن بى سوءًا".

"لا....".

وأتت فجأة بحركة ثابتة، وزحزحت الحجاب حتى أعلى جبهتها.

فنظر أحدنا إلى الآخر لحظة طويلة فصحت بها: "يلايالى!".

فنصبت قوامها، وطوقت عنقى بذراعيها، ثم قبلتنى فى فمى مرة واحدة فى الفم، وفى سرعة، وفى سرعة مضطربة، فأحسست نهديها يرتفعان وهى تلهث بشدة.

ثم خلصت نفسها بعد لحظة ونادت وهى خائرة القوى هامسة: "ليلتك سعيدة!"، وتحولت عنى بدون أن تلفظ بلفظ واحد آخر، وصعدت فى السلم، وأغلق باب الدار.

وأثلجت السماء فى اليوم التالى أكثر من سابقه، فهطل ثلج كثير ممتزج بمطر، فكان ما يتساقط منها عبارة عن خرق كبيرة مبللة تنقلب إلى مستنقعات. لقد كان جوًا مثلجًا قاسيًا.

واستيقظت فى الصباح متأخرًا فقد كان رأسى مضطربًا اضطرابًا عجيبًا من جراء ثورة أمس، كما كان الفؤاد مفعمًا فرحًا من المصادفة الحلوة ورقدت متيقظًا مدة من الزمن وأنا فى غير وعى متصورًا (يلايالى) عن جانبى. وفتحت ذراعى وطوقت نفسى بنفسى وأخذت أقبل فى الهواء، وأخيرًا انتصبت واقفًا، وشربت قدحًا من اللبن وأكلت معه

شريحة من لحم البقر، فلم أحس بعد ذلك جوعاً؛ غير أن أعصابى عادت فتهيجت بشدة.

فنزلت إلى سوق الملابس إذ خطر لى أنى ربما استطعت الحصول على صدار قديم بثمن بخس. أى صدار كان، لألبسه تحت سترتى. فصعدت فى سلم السوق فوجدت صداراً أخذت أفحصه بدقة. وبينما أنا مشغول به مر على أحد معارفى وأومأ لى بيده ثم نادانى فتركت الصدار معلقاً ونزلت إليه. وكان صانعاً فنياً يتأهب للذهاب إلى مكتبه.

فقال لى: "تعال معى نشرب قدحاً من البيرة، ولكن أسرع فليس لدى متسع من الوقت. من تكون هذه السيدة التى كُنْتَ ترتاض معها أمس؟".

فقلت وقد دبت فى الغيرة لمجرد تفكيره: استمع لى، وإذا كانت خطيبتى؟

فصرخ: "ياللشيطان!".

"نعم، فقد تقرر ذلك أمس".

فخجل أشد الخجل، وصدقنى بدون أن يرتاب فى قولى، وأخذت أبالغ فى الكذب عليه لأتخلص منه. وجاءت البيرة وشربنا وانصرفنا.

وقال فجأة: "وعليه صباح الخير!... استمع لى، أنا مدين لك بريالين، ومن العار ألا أردهما لك منذ زمن مضى، ولكن نقودك ستصلك فى القريب العاجل".

فأجبته: "أشكرك"، وكنت أعلم أنى لن أحصل منه على الريالين أبداً.

ومما يؤسف عليه أن البيرة صعدت فى الحال إلى رأسى وسخنت واستولى على التفكير فى مجازفة البارحة فكاد يطير صوابى. وما العمل إذا هى لم تأت يوم الثلاثاء؟ كلما ابتدأت تفكر، وتثير الشكوك.... وبأية مناسبة تثير الشكوك؟ ونشطت أفكارى فجأة ودارت كلها حول النقود، فخفت وارتعدت فرائصى، ومججت نفسى مجاجاً ليس بعده من مزيد. وعصفت بى جريمة الخيانة بتفاصيلها، فرأيتها رأى العين، رأيت الدكانة الصغيرة وخوانها ويدى الهزيلة وهى تقبض على النقود. وتخيلت منظر

الشرطة وهم آتون للقبض. وقد كبلت يدى ورجلى، لا، بل يدى فقط وربما كانت يداً واحدة. ورأيت قفص الاتهام، وتحرير "النوبتجى" للمحضر، وصرير ريشته التى تخدش الورق، رأيته، وقد تناول للغاية نفسها ريشة أخرى، ونظراته، نظراته المرعبة! والآن، السيد (طانجن) الزنزانة، الظلام الأبدى.

ولكى أشجع نفسى شبكت يدى بشكل عصبى، وسرت مسرعًا فبلغت ستورتورف (Stortorf) وهناك أخذت مجلسى.

ما هذه السخافة! إن الأمر لا يخرج عما هو معلوم فى كل مكان، فأنى لأحد أن يقيم البرهان على ارتكابى السرقة؟ وعدا ذلك فلن يجرؤ صبى الدكان على إثارة ضجة حول المسألة حتى ولو تذكر ذلك يوما من الأيام، فإن وظيفته أحب إليه بكثير. سيقول أتوسل إليك، لا داعى للضجة والشوشرة!

وعلى الرغم من ذلك بقيت هذه النقود إثمًا ثقيلًا فى جيبى، وسلبت منى راحتى، ففحصت عن موقفى فظهر لى فى جلاء أنى كنت فيما مضى أسعد حظًا منى الآن، أيام كنت متمتعًا بكامل شرفى أَشْقى وأكافح. و(يلايالى) ألم أنزل بها بيدى الأثيمتين إلى الحضيض، يالله فى سمائه! مولاى وإلهى! يلايالى.

فقفزت فجأة ومضيت رأسًا إلى بائعة الفطير عند صيدلية الفيل، لا أزال قادرًا على انتشال نفسى من هذا العار، فلا يزال هناك وقت لذلك. وسأرى العالم بأسره أنى قادر على ذلك! وفى الطريق أعددت النقود، وقبضت عليها كلها فى يدى، وانحنيت أمام خوان المرأة كما لو كنت أريد شراء شئ، وألقيت بالنقود فى يدها بدون تردد، ولم أفه بحرف واحد. ومضيت فى طريقة.

ما أبدعه من شعور أن تعود فتحس أنك عدت رجلًا شريفًا! فلم تعد تثقلنى جيوبى الفارغة. إنها لمتعة أن تعود خاوى الوفاض. وإذا أنا فكرت فى الأمر جد التفكير، فإن هذه النقود قد كلفتنى فى الواقع همًا عظيمًا. فالحق أنى كنت كلما فكرت فيها، فكرت فى فزع، فلم أكن قاسى القلب، وكانت طبيعتى الشريفة تثور ضد كل عمل حقير. وإنى لأحمد الله، فقد

عدت فرفعت نفسى أمام الملأ. وقلت وقد ألقيت نظرة على جمهور الناس الذين فى السوق: اصنعوا صنيعى! أتحداكم أن تصنعوا صنيعى! لقد أسعدت بائعة الفطير العجوز الفقيرة. وإنه لمثل أضربه لكم على المساعدة، فإنها م تدرى لها مخرجًا، ولن يذهب أولادها هذا المساء جائعين إلى فراشهم.

وبهذه الأفكار أيقظت مشاعرى. ووجدت أنى سلكت مسلكًا شريفًا. وحمدت الله أنى تخلصت الآن من هذه النقود.

وفى حالة عصبية مضيت فى طريقى أفخر بنفسى، فالغبطة بمقابلة يلايالى عفًا نقيًا، والقدرة على النظر فى وجهها كادا يفلتان زمام نفسى من يدى. ولم أعد أحس ألمًا، وخف رأسى ونقى، وبدا لى كأن رأسًا من نور الخيلاء يضئ فوق كتفى. واشتهت نفسى أن آتى بعض السخافات، فأرتكب أشياء قد تكون غريبة فى بابها: أن أقيم المدينة وأقعدها. وكان سلوكى إلى أقصى حد سلوك المخبولين. وكنت أحس فى أذنى طنينًا خفيفًا. كما كان شعاع النشوة يعمل عمله فى رأسى. وخطر لى قحة منى فى حالة تَحَمُّسى أن أذهب إلى أحد السعاة الذى لم يقل لى شيئًا وأحدثه عن سنى، وَأَهزُّ يَدَهُ وأحدق فى وجهه بوقاحة ثم أغادره بدون أن أبين له سببًا لذلك. وكنت أميز أبسط الفروق فى أصوات المارة وضحكاتهم وراقبت عصفورين كانا يحجلان أمامى فى الحارة. وطفقت أدرس مغزى أحجار الرصيف، فوجدت علامات شتى وصور بديعة فوقها. وفيما أنا كذلك بلغت ميدان ستورتنج (Stortinj).

وفجأة وقفت فى مكانى أحدق فى العربات، وكان السائقون يروحون ويغدون وهم يتجاذبون الحديث، وقد وقفت الخيل فى مواقفها. منحنية إلى الأمام فى ذلك الجو الردئ. فناديت أحدهم ولطمته بمرفقى: "تعال!" وأسرعت إلى أول عربة وصعدت فيها. وقلت بصوت عال: "شارع اليفولدسفى (Ulevoldsvey) رقم 37!، ودارت بنا العجلات.

وأخذ السائق فى الطريق ينظر حواليه، ويحنى نفسه ليطل فى العربة حيث أجلس تحت سقفها. تراه أساء بى الظن؟ لا شك فى ذلك فإن بذلتى الرديئة لفتت النظر إلى.

ولكى أكون أنا البادئ، ناديته: "لابد لى من لقاء بعض الناس!"، ثم أبنت له فى إلحاح ضرورة مقابلتى لهذا الرجل.

ووقفنا أمام رقم 37 فقفزت إلى الخارج، وصعدت فى السلم إلى الطبقة الثالثة. وأمسكت حبل الجرس ودققته فدق فى الداخل ست سبع دقات عنيفة.

ففتحت بنت الباب، وكان فى أذنيها حلق ذهبى، وعلى ثوبها أزرار رمادية، فنظرت إلى فزعة.

فسألتها عن كيرالف (Kierulf) يواخيم كرالف (Yoachim Kierulf) وإذا شاءت. أن أقول لها من هو، فهو تاجر الصوف، وبالاختصار فإن اسمه لا يحتمل الخطأ...

فهزت الفتاة رأسها، وحدقت فى وأمسكت بقبضة الباب تستعد للانسحاب ولم تحاول أية محاولة أن تتعرف الرجل، وقد ظهر عليها فى الواقع كأنما تعرف الشخص الذى سألت عنه، لو أن هذه المخلوقة الكسلى أعملت فكرها قليلًا! فحنقت وأدرت لها ظهرى، ونزلت فى السلم جاريًا.

وصحت فى السائق: "غير موجود!".

"غير موجود؟".

سر بنا إلى تومتجادن (Tomte gaden) رقم 11.

وكنت فى أشد حالات الهياج النفسانى، فأصبت السائق بعدواى، فصدق بالفعل أنها مسألة حياة، وسار من هناك لا يلوى على شئ وأعمل سوطه فى ظهر الخيل.

ثم أدار ظهره على كرسيه وسألنى: "ما اسم الرجل؟".

"كيرالف، تاجر الصوف كيرالف".

واتفق السائق معى أيضًا أن اسم الرجل لا يحتمل الخطأ، وسألنى عما إذا كان هو الرجل الذى تعود أن يلبس معطفًا زاهى اللون؟

فصحت به: "ماذا؟ معطف زاهى اللون؟ أمجنون أنت بحق؟ أوتحسب أنى أسأل عن فنجان شاى؟" فقد بدا لى المعطف الأبيض غير لائق به، وقبح ذلك لى صورة الرجل التى كنت قد تصورتها.

"ماذا قلت؟ اسمه كيرالف؟".

"أى نعم، أو عجيب ذلك؟ إن الاسم لا يعيب صاحبه".

"أليس هو الرجل ذا الشعر الأحمر؟".

ربما صح ذلك وأن الرجل ذو شعر أحمر. فإن السائق عندما ذكر لى ذلك صدقته فى الحال. وشكرت السائق المسكين من باب المجاملة وقلت له: إنه أصاب الرجل المطلوب، وإنه لكما ذكر، وإنه ليندر أن يرى رجل مثله بدون شعر أحمر.

قال السائق: "لابد أن يكون هو بعينه. فقد ركب عندى مرات. ألا يحمل معه عصاً ذات رأس معقود؟".

عندئذ نظرت للرجل فى نشاط وقلت له:

"ها، ها، لم يقع نظر أحد على الرجل حتى اليوم، ولم تكن معه عصاه المعقودة الرأس. يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية، أن تطمئن غاية الاطمئنان".

نعم، لقد وضح أنه نفس الرجل الذى أركبه فقد تعرفه أخيراً...

ومضينا بعد فى طريقنا والشرر يتطاير من حولنا من أقدام الخيل.

وفى أثناء كل هذه الظروف المثيرة لم أفقد لحظة واحدة حضور ذهنى فقد مررنا فى طريقنا على شرطى فلاحظت أنه يحمل رقم 69 فوقع هذا الرقم منى موقعاً سيئاً، وبقى فجأة كشظية فى رأسى 69، 69 بالضبط. لن أنساه فى حياتى، الرقم 69 لن أنساه أبداً!

وعدت فأسندت ظهرى إلى العربة، وتقوصرت وراء سقف العربة فريسة لنوبة جنونية، حتى لا يرى أحد أنى أحرك فمى، وأنى أخذت أتحدث مع نفسى كما يفعل البله. وثار الخبل فى رأسى وخليته يثور فإنى كنت

متحققًا من أن لابد لى على كبت مؤثراته. طفقت أغرق فى الضحك بصوت منخفض بدون أى سبب، وبقيت جذلًا ثملًا من قدحى البيرة اللذين شربتهما. ثم أخذت ثورتى تنطفئ تدريجيًا، وعادت لى الطمأنينة شيئًا فشيئًا وشعرت ببرد فى أصبعى المجروح فوضعته بين رقبتى وياقة قميصى كى أدفئه قليلًا. وهكذا وصلنا تومتجادن، فأوقف السائق العربة، ونزلت منها متباطئًا. خالى الذهن متراخى الأعضاء وقد ثقل رأسى، فدخلت باب الدار، فأتيت إلى فناء خلفى، فقطعته فعثرت على باب ففتحته، ودخلت فيه فوجدت نفسى فى رواق أشبه بمدخل غرفة نافذتين. وكان فى إحدى زواياه حقيبتان واحدة فوق الأخرى. وعلى طول الحائط سرير عتيق بدون طلاء، وعليه غطاء، كما سمعت فى الطابق الثانى طرقًا على درع من الحديد كل هذا تحققت منه لأول وهلة عند دخولى.

فأسير فى هذا الرواق حتى الباب المقابل غير مسرع أو مفكر فى الهرب، وأفتح هذا الباب كذلك، فأخرج إلى شارع بوجنماند (Bognmand) وأرفع بصرى إلى الدار التى بلغتها الساعة، فأرى دارًا للإقامة ونزلًا للسائحين.

ولم يخطر لى أن أفر أو أنسل من السائق الذى ينتظرنى، بل سرت فى شارع (بوجنماند) مطمئن النفس، بخطوات ثابتة، وبدون وجل، و(كيرالف) تاجر الأصواف هذا، الذى طالما كان يتراءى فى خيالى، كان لابد له من وجود، ولابد لى من أراه، ذلك الإنسان الذى عنيته - قد تقلص من مخيلتى، ومحته نوبات الخبل الأخرى التى كانت تأتى وتروح واحدة بعد الأخرى، ولم أعد أذكره إلا كخاطر أو ذكرى.

وكلما جددت فى السير عادت إلىّ حواسى، فأحسست ثقلًا وضعفًا. فأخذت أجر قدمى جرًا، ولم يزل يتساقط الثلج فى شكل خرق بالية عظيمة رطبة، وأخيرًا سرت إلى جرونلاند (Groenland) فلغت الكنيسة، وهناك جلست على مقعد لأستريح، فأخذت المارة ترمقنى متعجبين، وأنا غارق فى بحار أفكارى.

يالله الرحيم، ما أسوأ هذه الحال! لقد مللت هذه الحياة التعسة وعفتها، وأصبحت لا أجد فائدة تذكر من إطالة الكفاح للاحتفاظ بحياتى. لقد

طغى سوء الحظ، وكان قاسيًا فى طغيانه. لقد كتب علىّ السقوط، ولم يبق منى إلا خيال يرى، وهوت كتفاى إلى ناحية، فقد كنت تعودت الانحناء إلى الأمام عند مشيى، لأبقى على صدرى ما قدرت. ومن يومين فحصت جسمى فى وقت الظهيرة فى غرفتى، فبكيته يومئذ، وقد مرت على عدة أسابيع وأنا أحمل على جسدى قميصًا واحدًا يبس من العرق القديم، وأصاب جسمى بجروح من الاحتكاك، ونز من الجروح ماء مشوب بدم، ولكنه لم يؤلمنى كثيرًا. ومما يؤسف عليه أن الجرح كان فى وسط البطن، ولم أجد له علاجًا، فقد أبى أن يلتئم وحده، فكنت اغسله وأجففه بعناية، ثم ألبس فوقه نفس القميص، ولكن كل هذا لم يفد شيئًا...

جلست هناك على المقعد أفكر فى كل شئ، وأنا منقبض الصدر، وتحسرت على نفسى، وحتى يداى بدتا لى كريهتين، وحز فى صدرى ارتخاء يدى ومنظرهما الوقح، فأزعجتا راحتى، ومنظر إصبعى الهزيل ترك فى أثرًا مؤلمًا، فكرهت كل جسدى المحطم، وأرعدنى حمله، أرعدنى مجرد الإحساس به حوالى، يالله! لو أن لهذا نهاية الساعة! فإنى لأحب من صميم قلبى أن أموت.

وانتصبت واقفًا بشكل آلى، مغلوبًا على أمرى، مكسوا بالقار، محقرًا فى عينى، وأخذت طريقى إلى الدار، وفى الطريق مررت بمدخل مكتوب عليه: "أكفان الموتى عند الفتاة أندرسن على يمين المدخل"، فقلت فى نفسى: ذكريات قديمة! وتذكرت غرفتى القديمة فى همرسبرج، وذكرت الكرسى الصغير الهزاز، والجريدة التى تغطى الحائط عند أسفل الباب، وإعلان مفتش المنارة، والخباز (فابيان ألسن) صاحب الخبز الطازج، آه تلك أيام مضت، كانت أفضل من هذه. ففى ليلة واحدة كتبت مقالة بعشرة ريالات، أما الآن فلا أستطيع الكتابة. لا أستطيع الكتابة بالمرة، وإذا عالجتها فسرعان ما أجد رأسى فارغًا. نعم إنى لأرجو الساعة نهاية لهذا! وبذلك سرت جادًا فى السير.

وكلما اقتربت من محل البقالة تيقظ فى شعور نصف الواعى باقترابى من الخطر، ولكنى ثبت على عزمى، فقد كنت عقدت النية على تسليم نفسى، فصعدت فى السلم فى هدوء، والتقيت عند الباب بفتاة صغيرة فى

يدها فنجانًا، فانسللت من أمامها، وأغلقت الباب ورائى، وللمرة الثانية أقف أنا وغلام الدكانة وحدنا وجهًا لوجه.

فقال: "جو ردئ!".

لم كل هذا اللف والدوران؟ ولماذا لا يتعلق بخناقى فى الحال؟ فثارت ثائرتى وقلت له: "أنا لم آت إلى هنا لأتحدث عن الجو".

فبهت لهذه الشدة، وخانه عقل البدال الضيق، فلم يخطر له ببال أنى سلبته خمسة ريالات.

ثم قلت متضجرًا: "أتعرف أنى قد خدعتك؟" وعند ذلك أخذت ألهث بشدة وأنتفض، فقد كنت مستعدًا لاستخدام القوة إذا هو خرج عن الموضوع.

ولكن هذا المخلوق البائس كان خالى الذهن.

لا، أيتها الدنيا العزيزة، أى ناس هؤلاء الأغبياء الذين نجدنا مضطرين لمعاشرتهم! وطفقت أسب وأوضحت له كيف حدث ذلك نقطة فنقطة، وأريته أين كنت أقف عند وقوع هذا الحادث، وأين كان يقف ومكان النقود، وكيف جمعتها وقبضت عليها بيدى، وفهم المسألة على حقيقتها، ولكنه مع ذلك لم يصنع أى شئ، بل أخذ يتلفت هنا وهناك ويصغى إلى خطوات الأقدام فى الغرفة المجاورة، ويهدئنى كى أتكلم بصوت منخفض، وأخيرًا قال:

"هذه نذالة منك!".

فصحت به مندفعًا بقصد معارضته، وبقصد إثارته: لا، انتظر! ليس فى عملى ذلّة ولا منقصة، كما يتصوره عقل بدال تعس، فما خطر ببالى قط أن أحتفظ لنفسى بهذه النقود، أو أجر منها مغنمًا، فهذا ما يناقض طبيعتى الشريفة....

"فأين هى إذن؟".

وإذا أبيت إلا بيانًا فقد أعطيتها امرأة عجوز فقيرة، أعطيتها كل فلس منها. إننى لا أنسى قط أمثال هؤلاء الناس من الفقراء....

فانتصب واقفًا، وفكر لحظة، وبدت عليه الحيرة فى مدى حكمه على شرفى، ثم قال:

"أولم يكن الأشرف أن تعيدها إلى؟".

فرددت عليه: "لا، استمع إلى. لم أشأ أن أثقل عليك، أردت أن أبقى عليك. ولكن هذا هو جزاء أكارم الناس، أقف أمامك وأشرح لك المسألة بجملتها، فلا تستحى كالكلب وتتقدم لتسوية النزاع بيننا، لذا سأغسل يدى من هذه المسألة إلى الشيطان، أستودعك الله!".

وانصرفت بعد أن أغلقت الباب خلفى بشدة.

ولكنى عندما وصلت إلى غرفتى، أو الجحر المزعج، كنت مبلل الجسد من الثلج الفضى، وكانت ركبتاى ترتعدان من تجول النهار - ففقدت فى الحال عجرفتى، وغشى على مرة أخرى، وندمت لتهجمى على صبى الدكانة البائس وبكيت، وشددت على عنقى لأقتص من هزالى السخيف، وعنفت نفسى غاية التعنيف. وطبيعى أنه لم يجرؤ على إثارة ضجة من أجل الخمسة ريالات التى خسرها المحل لخوفه القاتل من أن يفقد عمله، فاستغللت خوفه، وعذبته بالتكلم بصوت مرتفع، وأغضبته بكل كلمة تفوهت بها، وقد يكون رئيس الدكانة جالساً فى الغرفة المجاورة، فلا يبعد إذ ذاك أن يدخل عندنا ليرى ما يجرى فى دكانه. لا، إن الدناءة التى كنت قادراً عليها، لم يعرف لها حداً.

حسناً، ولكن ترى لماذا لم يقبضوا على؟ إنهم لو فعلوا لوضعوا حداً لكل هذا، ولمددت يدى للأغلال بدون أدنى مقاومة، لا، بل كنت على العكس أساعدهم، يا إله السموات والأرضين، يوم من حياتى مقابل لحظة واحدة سعيدة. حياتى كلها نظير وجبة من العدس! استمع إلىّ يارب مرة واحدة!....

ورقدت فى الفراش بملابسى المبللة، وتولتنى أفكار مضطربة، وإنى ربما قضيت نحبى فى تلك الليلة، ولذلك بذلت ما فى طاقتى لأجعل فراشى منتظماً بعض الشئ، حتى يرى فى الصباح على شئ من الترتيب، ثم بسطت يدى، وتخيرت لى مكاناً.

وفجأة خطرت (يلايالى) ببالى. وكيف أنى نسيتها طول المساء! فعاد وتغلغل بصيص من النور فى صدرى، شعاع بسيط أرسل فى حرارة

سماوية، وازداد النور، ضوء لين رقيق لا حار ولا بارد، لمسنى فانتشيت من الفرح، واشتدت حرارته، وأحرقنى فى موضع صدغى، وغلت واتقدت فى مخى. وانتهى الأمر أن اشتعل أمام عينى لهيب جنونى منبعث من كومة لحرق الموتى، ورأيت الأرض والسماء فى حريق، والناس والحيوانات من نار، وكذلك الجبال من نار، والشيطان من نار، والهوات والصحارى والعالم كله رأيته يحترق، رأيت نار اليوم الآخر، ثم لم أعد أسمع ولا أرى شيئًا.

وفى اليوم التالى تيقظت مبلل الجسد من العرق، وقد أنشبت فى الحمى أظفارها، فلم أعى، فى أول الأمر ما جرى لى، فنظرت حولى متعجبًا، فرأيت أنى قد تغيرت تغيراً كليًا، حتى جهلت نفسى، فتلمست ذراعى من عل، وساقى من أسفل، وأدهشنى أن النافذة تقع فى هذا الحائط ولا تقع فى المقابل له. وكان طرق الخيل التى فى الفناء تحتى، يصلنى من عل، وأصابنى غثيان.

وتدلى شعرى على جبهتى، وكان رطبًا مبللًا، فاعتدلت فى مكانى معتمداً على معصمى، ونظرت إلى وسادة الرأس، فوجدت عليها كذلك خصيلات من الشعر المبلل. وقد انتفخت قدماى فى حذائى من كثرة المشى طول الليل، ولم تكونا تؤلمانى، ولكنى كنت غير قادر على تحريك أصابعهما، فقد جمدت فى مكانها.

ولما انتصف النهار، وأخذ النور فى الانصرام، نهضت واقفًا، وحاولت أن أقوم بحركة فى غرفتى. فعالجت أولًا المشى، ولكن بحذر، وبخطوات قصيرة، باذلًا جهدى فى المحافظة على توازنى، ولم أستخدم قدمى أكثر من طاقتى، فلم أتألم كثيراً ولم أبك، ففى الواقع لم أكن كئيبًا، بل على العكس كنت مسروراً غاية السرور، ولم يخطر قطعًا ببالى فى هذه الساعة أن شيئًا آخر كان يمكن أن يكون غير ما كان.

ثم خرجت.

وكان الجوع هو الشئ الوحيد الذى كان يعذبنى بعض الشئ على رغم كراهيتى للطعام، فعدت أحس شهوة لا تعرف الخجل، نهماً داخليًا يتزايد

لحظة بعد لحظة، أخذ يعض فى صدرى بلا رحمة، ويعمل عمله بهدوء غريب.

فربما كان هناك عشرون جرثومة دقيقة صغيرة قد ألقت برؤوسها إلى ناحية وأعملت أسنانها، ثم حولت رؤوسها إلى ناحية أخرى، وأعملتها مرة أخرى، ثم سكنت فترة من الزمن، ثم أخذت تدأب من جديد فى عملها، بدون صوت ولا تسرع، فكانت تترك وراءها فى كل مكان خطوطًا مقفرة.

ولم أكن مريضًا ولكنى كنت أحس ضعفًا وأخذت أتصبب عرقًا ووددت أن أقصد (ستورتف) لأروح عن نفسى بعض الشئ، ولكن الطريق كان طويلًا وشاقًا. وأخيرًا اقتربت منه، فتوقفت عند ناصية السوق فى شارع السوق، وسال العرق فى عينى فظلل نظارتى وأعمانى، فظللت واقفًا أجفف نفسى قليلًا، ولم أدرك أين أنا، ولا فكرت فى ذلك، وكان الضجيج حولى مزعجًا.

وفجأة رن فى الهواء صدى نداء بارد جاف "احترس!" سمعت النداء، سمعته جيدًا، فتراجعت ناحية ثائر العصب، وخطوت خطوة سريعة بقدر ما تمكننى ساقاى الضعيفتان من الحركة، فمرت مسرعة عربة خبز هائلة، ومست سترتى بعجلاتها، ولو أسرعت قليلًا لنجوت، وربما كان فى طاقتى أن أسرع، أن أسرع بعض الشئ لو أنى أجهدت نفسى قليلًا، ولكن لم يكن سبيل إلى ذلك، فإن إحدى قدماى كانت تؤلمنى، فقد ضغطت بعض أصابعها، فأحسستها فى الحذاء قد تقلصت معًا.

وأوقف السائق الخيل بكل قوته، وتلفت حواليه، منزعجًا، وسألنى عن الحادث. والآن، لقد كان من المحتمل أن ينتهى الأمر إلى أسوأ مما كان.... ولا خطر هناك.... ولا أعتقد أن قد تحطم... آه، أرجو.....

وسرت بأقصى سرعتى إلى أحد المقاعد، فإن هذا الجمع الغفير الذى ظل واقفًا يحدق فى قد أزعجنى. والحق أنها لم تكن صدمة قاتلة. ولو وقعت هذه المصيبة لجرت الأمور على خير ما يرام، وأسوأ ما فى الأمر أن أصيب حذائى بتلف، فقد تمزق مقدمه، فرفعت قدمى، فرأيت الدم فى فتحة الحذاء، حسنًا، على أية حال، لم يحدث ما حدث عن عمد، فما قصد الرجل أن يسئ إلى أكثر مما أنا عليه، فقد بدت عليه آثار الأسى. ولو

كنت سألته قليلًا من الخبز الذى فى العربة لأعطانيه بدون شك، وبكل سرور. سرى الله عنه جزاءً له!....

واشتد بى الجوع، ولم أدر ماذا أصنع بشهوة الطعام التى لا تعرف الخجل، وأخذت أتلوى على المقعد يمينًا وشمالًا، وأسندت صدرى على ركبتى حتى كاد يلتصق بهما، وأوشكت أن أجن. ولما أرخى الليل سدوله سرت أتبختر حتى دار البلدية - ويعلم الله كيف بلغتها - وأخذت مكانى عند نهاية شارع بالو (Balu Strade)، وانتزعت جيبًا من جيوبى وأخذت ألوكه آليًا فى فمى، وأنا عابس الوجه محدق أمامى، بدون أن أرى شيئًا، وسمعت أصوات جمع من الأطفال يلعبون حوالى، كما كنت أرهف الأذن بالغريزة كلما مر بى أحد المرتاضين، ولم أشعر بشئ غير ذلك.

وفجأة خطر لى أن أنزل إلى إحدى الأسواق فأحصل على قطعة لحم نىء.

وعلى ذلك انتصبت واقفًا، واجتزت شارع (بالو) إلى الجهة الأخرى الواقعة فوق سطح السوق، ثم نزلت إليها، ولما بلغت دكانة اللحم تصنعت أن كلبًا لى عاد جافلًا، وناديته عند فاتحة السلم، ثم قصدت أول جزار صادفته.

وقلت له: "أرجو أن تتفضل وتعطينى قطعة عظم لكلبى! قطعة واحدة، لا ضرورة لأن يكون بها شئ من اللحم، مجرد شئ يحمله فى فمه.

فحصلت على قطعة عظم صغيرة مليحة، مكسوة بقليل من اللحم، فأخفيتها تحت سترتى، وشكرت الرجل من صميم قلبى، حتى حدق فى مندهشًا.

وقال: "ليس فى الأمر ما يستحق الشكر".

فتمتمت: "كلا، لا تقل ذلك، لأنه صنيع منك جميل".

وعندئذ عدت فصعدت فى السلم، فأخذ قلبى يدق بشدة.

وانسللت فى مدخل دار الحدادة، وتغلغلت فيه إلى أقصى ما يمكن من التغلغل، وبقيت واقفًا أمام الباب المهدم الموصل إلى الفناء الخلفى، ولم يكن ليرى فيه أثر لنور، فاكتنفنى ظلام ممتع، فأخذت أَعْتَرِقُ قطعة العظم.

ولم يكن لها طعم فى فمى، وتصاعدت منها رائحة الدم، وسرعان ما هاجت على نفسى، ثم عدت وعالجت العظمة من جديد. آه، لو قدرت المعدة على الاحتفاظ بها لعملت عملها إذ لا فائدة منها ترجى إذا أنا لفظتها، ولكن نفسى هاجت على مرة أخرى، فثارت ثائرتى؛ وعضضت غاضبًا على اللحم، وانتزعت منه قطعة صغيرة، وازدردتها فى جهد، ولكن ذلك لم يفدنى، فبمجرد أن أصابت قطع اللحم الصغيرة الدفء الذى فى معدتى، عادت إلى فمى، فكورت يدى كالمجنون، وأخذت أبكى لقلة حيلتى، وأقرص بأسنانى كالمخبول، بكيت حتى بللت قطعة العظم، وصارت قذرة من الدموع، بكيت حتى تفطر قلبى، ثم قئتُ عدّة مرات فطفقت ألعن قوات العالم كلها بصوت عال. سكون شامل، لاَ أحد حوالى ولا نور ولا أصوات، وأنا فى أشد حالات الاضطراب والجزع ألهث بشدة، وأبكى عاضًا على أسنانى فى كل مرة أضطر فيها إلى لفظ ذرة لحم ربما كان فيها إطفاء شئ من جوعى، ولما لم تُغْنِ محاولاتى المتعددة شيئًا، ألقيت بالعظمة إلى الباب، وصرخت مهددًا السماوات، وأفلت زمامى من الخبل، وامتلأت نفسى سخيمة لا مزيد عليها، فأعوى فى خشونة وشدة ضد اسمه تعالى، وألوى أصابعى كما يفعل المهرجون.....

يسود سكون.

وأنتفض من الهياج وكثرة التحديق، وأنا لا أزال باقيًا فى مكانى، أهمس باللعنات، وألفاظ السباب، ألهث بعد البكاء المر، محطمًا مسترخى العضلات، بعد نوبات الغضب الجنونية، وربما بقيت ساعة من الزمن أزحر وأدمدم ممسكًا جيدًا بالباب، ثم أسمع أصوات حديث بين رجلين كانا قد دخلا إلى "مدخل دار الحدادة"، فأبتعد عن الباب، وأجر نفسى جرًا على طول الجدران، فأعود إلى الشوارع المضيئة. وبينما أنا أسير فى شارع يونجباكن (Youngbakken) يبدأ ذهنى بغتة، فيتجه اتجاهًا غريبًا، فيخطر لى أن المغارات السفلى الحقيرة القائمة فى آخر السوق، تلك الحجر الخاصة بأدوات العمل، والمقسمة إلى أقسام خشبية عتيقة، إنما هى لطخة عار فى هذه الجهة، فأنها لتفسد منظر الميدان كله، وتشوه المدينة. بئست هى! ولتسقط هذه القاذورات! وعملت فى رأسى حسابًا تقديريًا لتكاليف نقل هذا المعهد الجغرافى، أو تلك العمارة البديعة، التى

كانت تناشدنى بإلحاح فى كل مرة مررت بها. وإن عملية كهذه ربما لا تقل نفقاتها عن 70.000 - 72.000 ريالًا - مبلغ طيب. يحق للواحد أن يقول ذلك مبلغ طيب لنفقات الجيب اليومية. ها، ها، للبداية، أليس كذلك؟ وأطرقت برأسى الفارغ، وسلمت بأنه مبلغ طيب للبداية، وكان جسمى لا يزال ينتفض، وكنت أزحر بشدة من وقت لآخر بعد البكاء.

وأحسست كأن لم يبق فى كثير من آيات الحياة، كأنى فى الرمق الأخير. ولكنى لم أكترث لشئ فى ذلك الوقت، ولا شغلنى هذا الإحساس لحظة واحدة، بل على العكس مضيت فى طريقى إلى المدينة، حتى (كدى لاندنج) مجبرًا على الدوام فى الابتعاد عن غرفتى، وكان من السهل على أن أتمدد على الأرض طلبًا للموت، وسلبتنى الأوصاب شيئًا فشيئًا الإحساس، فكانت قدمى ترتعد وتدق على، حتى كأن الألم يسير إلى بطن ساقى، ومع ذلك لم أحس له ألمًا خاصًا، فلقد كنت تعودت المنغصات.

وبلغت رصيف محطة السكة الحديدية، ولم يكن هناك مسافرون ولا عجيج، فلا يرى إلا شخص يسير هنا أو هناك، حمال أو بحار يختال ويداه فى جيوبه، ولفت نظرى أعرج حدجنى بنظره عند مرورى عليه، فاستوقفته آليًا، وسألته عابسًا: هل أقلعت الباخرة نونا (Nonne) ولم أتمالك ضبط نفسى من أن أفقع له أصابعى تحت أنفه قائلًا: ياللدمار ويالللشيطان! نعم الباخرة (نونا)! الباخرة (نونا) التى نسيتها تمام النسيان! فقد كان عقلى الباطن على الرغم من ذلك مشغولًا بالتفكير فيها وأسير أحمل هذه الأفكار وأنا لا أدرى بها.

نعم، لا قدر الله، ارتحلت الباخرة (نونا).

ولا يستطيع الرجل أن يقول لى إلى أين أقلعت؟

فأعمل الرجل فكره وقد انتصب واقفًا على ساقه الطويلة، تاركًا ساقه القصيرة معلقة فى الهواء تترجح قليلًا.

وقال: "لا، هل تعرف أنت شيئًا عن حمولتها؟".

فأجبته: "لا".

ونسيت لساعتى الباخرة (نونا) وسألت الرجل كم تكون المسافة إلى ساحل هولما (Holma) بحساب الأميال الجغرافية القديمة الجيدة؟.

"إلى ساحل (هولما)؟ أظن....
أو إلى بابلونجسنايس (Baeplungsnaes)؟
"أردت أن أقول: أظن أن المسافة إلى ساحل هولما ....؟".

قعدت وقاطعته: "استمع إلى قبل أن أنسى، هل تتفضل على وتعطينى قليلًا من الدخان. أريد شيئًا قليلًا منه!".

فأعطانيه وشكرت للرجل فضله ومضيت، ولم أصنع شيئًا بالدخان، بل وضعته فى الحال فى جيبى. وظل الرجل يرقبنى بعينيه، فقد أكون أثرت شكوكه لسبب ما. فكنت أينما كنت أو مضيت تتبعنى نظرات الشك، وضايقتنى ملاحقة الرجل لى، فعدت إليه أجر نفسى جرًا، وحدقت فيه وقلت له:

"صانع إبر".

فقط هذه العبارة: "صانع إبر"، ولم أزد عليها شيئًا، وأحدق فيه النظر عند قولى هذا، وشعرت كأنى أحدق فيه بكل جسدى لا بعينى وحدها. ووقفت برهة قصيرة بعد أن قلت له هذه العبارة. ثم انسللت إلى ميدان محطة سكة الحديد. ولم ينبس الرجل بكلمة ولكنه أتبعنى بنظره.

صانع إبر؟ وفجأة أقف ساكنًا. نعم، لقد كان على أن أذكر ذلك لساعتى. فقد قابلت هذا الكسيح فى مكان ما فى (الجرنسا) فى صباح مشرق عندما رهنت صدارى، وبدا لى كأن دهرًا قد انقضى منذ ذلك اليوم.

وبينما أنا متكئ على جدار أحد البيوت عند ناصية ميدان شارع هافنجادا (Havnegade). أفكر فى الأمر. أنتفض فجأة فأحاول أن أعود إلى ما كنت عليه، ولما لم أستطع إلى ذلك سبيلًا أعود فأحدق أمامى بسرعة وبكل قحة، حيث لم يكن لى مفر من التحديق - فقد كنت أقف من (المدير) وجهًا لوجه.

فتتزايد جرأتي إلى حد عظيم، وأتقدم منه خطوة لأستلفت نظره إلى، وما صنعت ما صنعت لأيقظ فى نفسه الرحمة على، لا، بل لأحقر نفسى وأشهر بها، فلقد كان بودي أن أتلوى على الأرض وأسأل "المدير" أن

ينصرف عنى، وأن يدوس على وجهى. ثم أتقدم منه ولا أقول له حتى "مساء الخير".

وربما قَد أدرك "المدير" أن بى شيئًا فقد تباطأ قليلًا فى مشيته وأنا أقول له لأستوقفه:

"كنت أحب أن أزورك وآتيك بشئ ولكنى لم أنته بعد".

فقال مستفهمًا: "كذا؟ لم تنته بعد؟".

فسالت الدموع فى مآقى من رقة "المدير" وسلكت حلقى وسعلت لأقوى نفسى، فنظر إلى "المدير".

وسألنى : "ألديك فى المدة الأخيرة ما تتقوت منه؟".

فقلت: "لا، ليس لدى شئ، ولم أذق كذلك طعامًا فى يومى ولكن.....".

فقال، وهو يضع فجأة يده فى جيبه: "يالله، يستحيل أن تتضور جوعًا يابنى!".

وعندئذ تيقظ فى إحساس الخجل، فتراجعت إلى جدار الدار أترنح، وأمسكت نفسى جيدًا، ورأيت كيف يبحث "المدير" فى كيس نقوده. ولكنى لم أقل شيئًا، فيعطينى ورقة مالية بعشرة ريالات بدون أية كلفة - يعطينى ببساطة ورقة مالية بعشرة ريالات، وهو يكرر فى الوقت نفسه أنه يستحيل أن أتضور جوعًا.

فأعتذر متمتمًا ولا أتناول الورقة فى الحال، إنها قحة منى..... وإنه كذلك لكثير أن....

فيقول وهو ينظر فى ساعته: "أسرع! إنى أنتظر القطار وأسمع الآن صوت قدومه".

فأخذت النقود وقد شغلنى الفرح، فلم ألفظ بكلمة أخرى، حتى ولا بكلمة شكر.

وأخيرًا قال "المدير": لا داعى للخجل فإنكَ تستطيع أن تكتب لنا بهذا المبلغ".

وعلى ذلك انصرف.

ولم يكد يخطو بضع خطوات حتى خطر لى أنّى لم أشكر له هذه اليد، فحاولت أن ألحق به، ولكنى لم أَسْتَطِعْ أن أتقدم كثيراً، فقد تعوج ساقاى، فكنت على الدوام أكاد أنكب على وجهى، وكان البعد باستمرار يزداد بيننا، فقطعت الأمل فى اللحاق به، وأردت أن أناديه، ولكن الشجاعة خانتنى، ولما تشجعت فى النهاية وناديته مرة مرتين، كان قد ابتعد عنى كثيراً، وكان صوتى كذلك ضعيفاً.

فوقفت على الرصيف أنظر إليه، وأبكى نفسى صامتاً، وقلت لنفسى: شئ مثل هذا لم يحدث من قبل، أعطانى عشرة ريالاتّ ثم كررت راجعاً، ووقفت حيث وقف، وقلدت حركاته كلها. فأضع الورقة المالية ذات العشرة ريالات أمام عينى، وأنظر لها من ناحيتها، ثم ألعن وأسب، أسب بأعلى صوتى، فإن هذا الذى أمسك عليه بيدى حق لا ريب فيه - ورقة مالية من فئة العشرة ريالات.

وسرعان ما وجدتنى واقفاً وحيداً أمام رقم 11 فى شارع (تومتا) وربما طال بى الوقوف، فقد كان السكون قد خيمّ فى كل مكان - وما كدت أقف لحظة أستجمع فيها أفكارى حتى أخذتنى الدهشة، وولجت للمرة الثانية الباب المؤدى إلى "دار للإقامة، ونزل للمسافرين"، وهناك، سألت عن غرفة، فأعطيت سريراً فى الحال.

يوم الثلاثاء.

نور ساطع وسكون، يوم صحو بديع، انتهى الثلج، ففى كل مكان نسيم وحياة ووجوه مستبشرة، وابتسامات وضحكات، والماء بتفجر من النافورات فى شكل أقواس ذهبية زرقاء، كساها شعاع الشمس لونه الذهبى كما خلعت عليها السماء زرقة من زرقتها.....

وفى فترة الظهر غادرت مسكنى فى شارع (تومتا) الذى كنت لا أزال أقيم فيه، وقصدت المدينة، وقد كنت منشرح الصدر إلى أقصى حد، فأخذت أتنقل طوال العصر فى الشوارع العامرة، وأشاهد الناس، وقبل الساعة السابعة قمت برياضة فى ميدان القديس (أولاف) وتطلعت خفية إلى نوافذ الدار رقم 2، بعد ساعة من الزمن سأراها! وأخذت أتمشى طول

المدة واستولى على إحساس من الخوف عجيب، وماذا عساه أن يكون؟ وماذا عساى أن أقول عند نزولها من السلم؟ ثم أقرر فيما بينى وبين نفسى الاكتفاء بالابتسام، وبالطبع سأنحنى أمامها غاية الانحناء.

وأخجلنى بعض الشئ تبكيرى فى الطريق، فأنسل إلى شارع (كارل يوحنا) أغدو فيه وأروح فترة قصيرة من الزمن، ونصب عينى ساعة الجامعة، ولما صارت الساعة الثامنة، عدت فقطعت شارع الجامعة، وفى الطريق خطر لى أنى قد أصل متأخراً بضع دقائق، وعلى ذلك أسرعت الخطا بقدر ما أستطيع، وكانت قدمى تؤلمنى كثيراً، وفيما عداها لم أكن أحس ألماً.

ووقفت عند النافورة لآخذ نفسى، وبقيت واقفاً مدة طويلة أتطلع إلى نوافذ الدار رقم 2، ولكنها لم تأت، لا بأس من الانتظار، فإنى لست على عجل، وربما عاقها عائق، وبقيت أنتظر لعل هذه القصة لم تكن فى النهاية إلا مجرد حلم؟ ومقابلتها الأولى ربما لم تخرج عما تخيلته فى تلك الليلة، وأنا صريع الحمى. وبدأت أفكر فى المسألة حائراً، ولم أعد على ثقة تامة من أمرى.

فأسمع من خلفى كلمة "احم!".

فأصغيت لهذه الحمحمة، فسمعت كذا خطوات لينة على مقربة منى، ولكنى لم ألتفت ورائى، بل بقيت مثبتاً نظراتى فى السلم الذى أمامى.

وعند ذلك قلت: "مساء الخير".

ونسيت أن أبتسم أو أن أسارع إلى رفع قبعتى، وأخذنى العجب أن أراها آتية من تلك الناحية.

تسألنى وهى تلهث قليلاً بعد إسراعها فى السير: "هل انتظرت طويلاً؟".

فأجبتها: "لا، أبداً، لقد وصلت منذ لحظة من الزمن، وعدا ذلك فأى ضرر فى ذلك لو أنى انتظرت طويلاً؟ أظن أنك جئت من ناحية أخرى".

"لقد شيعت والدتى إلى بيت الأسرة، فهى الليلة ليست فى الدار".

فقلت: "كذا- ذا".

وابتدأنا عندئذ نسير إلى غير قصد، وقد وقف عند ناصية الشارع شرطى ينظر لنا.

ثم توقفت وقالت: "ولكن، إلى أين نحن سائرون؟".

"إلى حيث تشائين، إلى حيث تشائين فقط".

"أف، نعم، إنه لمما يضايق أن يبت الإنسان وحده فى مثل ذلك".

صمت يسود.

"بيتك مظلم كما أرى".

فأجابت فى تحمس: "نعم، آه، نعم! إن الخادمة كذا قد استأذنت فى الخروج، فأنا وحدى فى الدار".

فينظر الواحد منا إلى الآخر ثم نتطلع إلى نوافذ رقم 2 كان لم يرها أحدنا من قبل.

ثم قلت: "ألا نستطيع أن نصعد إلى دارك؟ وأعدك أن آخذ مجلسى إذا أحببت حذاء الباب".

وعندئذ ترجحت من شدة التأثر، وندمت من أعماق قلبى لجرأتى، فكيف يكون الحال إذا هى غضبت وانصرفت عنى؟ ولم يسمح الدهر لى برؤيتها بعد ذلك؟ ما أحقر البذلة التى ألبسها! وأنتظر جوابها آيساً.

فقالت: "لست فى حاجة بالمرة لأن تجلس حذاء الباب". وكانت رقيقة فى عبارتها. فإليك كلماتها بالحرف الواحد: "لست فى حاجة بالمرة لأن تجلس حذاء الباب".

وصعدنا إلى دارها.

وكان الظلام مخيماً خارج المدخل، فأخذت بيدى وقادتنى وهى تقول: "لا داعى بالمرة لأن أصمت كل هذا الصمت، أقدر أن أتكلم، وولجنا الباب، وبينما هى تشعل الشمعة - وليس مصباحاً بل شمعة - بينما هى تشعل تلك الشمعة، قالت لى وهى تتضاحك:

"لا يحق لك الآن أن تنظر إلىّ، أف، أنى لأستحى من نفسى، وأحب أن لا أعيد ذلك أبداً؟".

"ما هو هذا الذى لا تحبين أن تعيديه؟".

"أبداً.... لا، لا قدر الله.... لا أريد أن أُقبلك مرة أخرى".

فقلت، وكلانا يضحك: "أبداً؟، وبسطت لها ذراعى، فوثبت إلى ناحية، وانسلت إلى الناحية الأخرى من المائدة، فحدق أحدنا فى الآخر لحظة وقد قام النور بيننا.

ثم قالت: "حاول أن تمسكنى إذا أمكنك".

وتحت الضحكات الرنانة حاولت أن أمسكها، وفى أثناء دورانها حلت خمارها، وخلعت قبعتها وهى تثبت عينيها المشتعلتين فىّ، تراقب حركاتى، وأصبت بسقطة جديدة، عثرت بالبساط وسقطت، إذا لم تعد تقوى قدمى الجريحة على حملى، ونهضت من عثرتى وأنا فى شدة الحيرة.

فقالت: "يالله، ما أشد احمرارك! ولكنه كان كذلك أمر مربك".

فأجبتها: "نعم، حقًا إنه كان كذلك!".

وعدنا نجرى بعضنا وراء بعض.

"أظن أنك تعرج؟".

"نعم أظن أنى أعرج قليلًا، ولكن قليلًا جداً".

لقد كان أصبعك أخر مرة مجروحًا، والآن قدمك، شئ مؤلم، أى بلاء مصاب به أنت".

"آه، نعم، فمنذ بضعة أيام أصابتنى عربة".

فحذرتنى بإصبعها وقد بدا الجد على وجهها: "أصابتك عربة؟ مرة أخرى ثمل؟ لا، ليكن الله معى أيها الفتى. أية حياة هذه التى تحياها!". ثم قالت: "فلنجلس! ولكن ليس عند الباب. أنت محافظ بمعنى الكلمة. هنا، أنا هنا، وأنت هناك، نعم، هكذا... أف، إن الحياة مع المحافظين لشئ ممل،

فعلى الإنسان أن يفعل ويقول كل شئ، وحده، فهم لا يساعدون بشئ، فى مكنتك مثلًا أن تسند ذراعك على مسند كرسى، وكان عليك أن تفكر فى هذا وفى أمثاله، هذا هو فكرى، ولكن إياك أن تحاول إيهامى بأنك كذا دائمًا متواضع، فآه عندما تترك لنفسك حبلها! لقد كنت جريئًا جدًا يوم كنت سكران ولاحقتنى، فقد عذبتنى بملاحظاتك الظريفة، فقدت كتابك أيتها الآنسة، بدون شك فقدت كتابك أيتها الآنسة ! ها! ها! ها! أفا لك، حقًا لقد كان منك هذا قبيحًا!".

فجلست مكانى أنظر إليها مأخوذًا، ودق قلبى دقات مسموعة، وجرى دمى حارًا فى عروقى، ألا ما أجمله من إحساس!

"لماذا لا تقول شيئًا؟".

فقلت لها: "ما أحلاك، حسبى أن أجلس هنا وأدعك تتغلبين على نفسى، بل تغزينها غزوًا.... فلا سبيل للمقاومة... أنت ذلك المخلوق العجيب الذى كان فى كل وقت.... إن عينيك لترسلان من وقت لآخر نورًا لم أر له مثيلًا فى حياتى، إنهما لتبدوان كزهرتين... أليس كذلك؟ لا، لا، ربما لا تشبهان أيضًا الزهر، بل... أنا مغرم بك إلى حد كبير، وليس من العقل... يا إلهى العظيم، طبعى، لا فائدة من اقتفاء الأثر.... ما اسمك؟ الآن لابد لكِ أن تقولى ما اسمك...."

"لا، ما اسمك أنت؟ يالله! لقد كنت على وشك النسيان! لقد فكرت البارحة طول الليل فى سؤالك، نعم، ولا أعنى بذلك اليوم كله، ولكن....".

أتعرفين الاسم الذى وضعته لكِ؟ أنا أدعوك يلايالى، أويعجبك هذا الاسم؟ لفظ متحرك....".

"يلايالى؟".

"نعم...".

"هل هذه لغة أجنبية؟".

"لا، فى الواقع، لا".

"نعم، إن وقعها على الأسماع ليس رديئًا....".

وبعد مناقشات طويلة ذكر أحدنا اسمه للآخر، وأخذت مجلسها بجوارى على الأريكة، وأبعدت الكرسى بقدمها، ثم أخذنا نتحدث معاً.

فقالت: "أنت حالق اليوم، ومظهرك على العموم أحسن بعض الشئ منه فى تلك المرة، ولكن إياك أن تخدع نفسك، فالفرق بين المرتين تافه... لا، الحق أنك كنت فى المرة الأخيرة أشعث أغبر، وعدا ذلك فقد كان على إصبعك رباط قذر، وألْحَحْتَ على وأنت على هذه الحال أن نذهب إلى أى محل لتشرب معى كأساً من النبيذ، العفو!".

فقلت لها: "وعليه فإنك لم تقبلى أن تذهبى معى بسبب مظهرى الحقير؟".

فقالت وهى تطرق برأسها إلى الأرض: "لا".

"لا، الله وحده يعلم، لماذا رفضت! فإنى لم أفكر فى ذلك لحظة واحدة قبل الآن".

فقلت: "استمعى لى، إنك بدون شك تتوهمين أنى أستطيع أن أكسو نفسى كما أشتهى؛ أليس كذلك؟ ولكن هذا ليس فى مقدورى، فأنا فى فقر مدقع".

فنظرت إلى

"أنت فقير؟".

"نعم، أنا فقير للأسف".

فترة سكون.

فقالت بهزة رأس عنيفة: "نعم، يالله العزيز، وأنا كذلك!".

فأسكرنى كل لفظ من ألفاظها، وعمل عمل نقط الخمر فى صدرى، وكانت حركة رأسها عندما تميله جانباً لتصغى إلى ينشينى، وأحسست أنفاسها تنفث فى وجهى.

فقلت: "هل تعرفين أنى... ولكن أرجو ألا تغضبى... لما ذهبت مساء أمس لأنام هيأت لَكِ ذراعى هكذا... كذا... كما لو كنت بينه... وعلى ذلك أخذنى النوم....".

"كذا ذا ذا؟ إنه لجميل!" ويسود صمت. "ولكنك لن تستطيع صنع هذا إلا عن بعد لأنه فى الواقع....".

"أولا تعتقدين أنى أقدر عليه؟".

"لا، هذا ما لا أعتقده".

فقلت لها وقد طوقت بذراعى ردفها: "نعم! يحق لك أن تتوقعى منى كل ما هو ممكن".

فتساءلت: "أيحق لى؟".

فأغضبنى إحسانها الظن بى، وكدت أجد فيه إهانة لى، وذكرت نفسى ولطمت صدرى وتناولت يدها، ولكنها سحبتها من يدى صامتة، وتباعدت عنى قليلًا؛ فخارت عزيمتى، واستحيت، فلفت نظرى إلى النافذة، والحق أنى على حالى التى كنت أجلس عليها الآن لست إلا صعلوكًا، فكيف يحق لى أن أخدع نفسى، ولقد كادت الأمور أن تكون على غير ذلك لو أننى التقيت بها يوم كنت لا أزال أعد إنسانًا بين الناس، والدهر يبتسم لى، وأنا لا أزال على الأقل أحتكم على شئ يمكن معه عمل شئ، فأحسست الهزيمة.

فقالت: "أنظر الآن! أنظر فقط؛ باستطاعة الواحد بتعبيسة بسيطة أن يقيمك ويقعدك، فإنك لتستحى أن يبتعد الإنسان عنك قليلًا....".

وضحكت بخبث ودهاء مغمضة العينين، كما لو كان لا تطيق احتمال وقع النظر عليها.

فاندفعت قائلًا: "لا، ولكن، يا إلهى القدير! لابد لك أن ترى شيئًا!".

وبذلك طوقت كتفيها بذراعى، فقد كنت أحسست شيئًا من الإهانة، أفقدت هذه الفتاة عقلها! أو تعدنى غرًا ساذجًا! كنت أحب عند الأحياء.... ليس لأحد أن يقول عنى أنى متأخر فى هذه الناحية، إنها لشيطانة! لو أنه يستحق أن ....".

وجلست فى مكانها هادئة وهى لا تزال مغمضة العينين، ولم ينبس أحدنا ببنت شفة؛ فجذبتها إلىّ، وضممت جسمها إلى صدرى بشغف، وهى لا تقول شيئًا، وسمعت قلبينا يدقان، قلبها وقلبى، فكان لهما دقات جوفاء.

وقبلتها.

ولم يعد لى سلطان على نفسى، فأخذت أحكى لها سخافات كانت تضحك منها، وأهمس فى فمها، وأدللها بأسماء التدليل المختلفة، وأمسح خديها، وأقبلها مرات كثيرة، وفككت بعض أزرار ثوبها، ونظرت إلى ثدييها ذينك الثديين البَضّيْن المستديرين اللذين كانا كآيتين بديعتين تنيران من مراء النيل.

وأقول لها وأنا أحاول فك الأزرار الباقية لأوسع الفرجة: "هل تسمحين لى أن أرى!" وأثور، فلا أقوى على حل الأزرار السفلى لشدة ضيق ثوبها فى نهايته. "أرجوك؛ هل تسمحين لى أن أرى، قليلًا، قليلًا جدًا....".

فتضع ذراعها حول رقبتى فى رقة وبطء، وتنفث نفسها الحار فى وجهى من طاقتى أنفها المرتعدتين الضاربتين إلى الحمرة، وتحل بيدها الأخرى أزرارها واحدًا بعد الآخر، وهى تضحك ضحكات الحيرة المقتضبة، وتتطلع إلى مرة بعد الأخرى لتعرف أكنت قد لاحظت جزعها، وَحلّت الأشرطة وعلقت "الكورست" فكانت فى فزعها آية فى الإبداع وتلمست بيدى الخشنتين هذه الأشرطة، ثم شددتها بعضها إلى بعض....

ولكى تصرف نظرى عما يجرى مسحت بيدها اليسرى على كتفى وقالت:

"ما أوفر الشعر الذى يتساقط منك".

فأجبتها وأنا أعالج القبض على ثديها بفمى: "نعم"، وكانت راقدة فى مكانها فى تلك اللحظة مفككة الأزرار، ولكنها عادت فجأة إلى صوابها كأنما كانت قد ذهبت معى بعيدًا؛ فغطت نفسها ثانية، واعتدلت بعض الشئ، ولكى تخفى ارتباكها بسبب ثوبها المفتوح؛ ابتدأت من جديد تتحدث بشأن وفرة الشعر المتساقط على كتفى.

"كيف يسقط شعرك هكذا؟".

"لا أدرى".

"آه، أنت تفرط بلا شك فى الشراب، وربما... أف لك، لا ينطق لسانى، أنه شعرك!... والآن أرجو أن تتفضل فتحدثنى كيف تعيش. فأنا موقنة أنها حياة فظيعة! ولكنى أريد الحقيقة الخالصة، أسمعت؟ لا تهرب! وإذا أنت أخفيت عنى شيئًا فإنى قارئته فى وجهك، وعليه حدثنى الآن!".

"لك ذلك، ولكن ألا تسمحين لى أولًا بتقبيلك فى ثديك، أليس كذلك؟".

"هل وجدت سلوتك الآن؟ ابدأ إذن وقص على قصتك!".

"لا أيتها الحبيبة الحلوة.... أرجو أن تسمحى لى أولًا؟".

"لا، لا، ليس أولًا... ربما فيما بعد.... أولًا أحب أن أعرف أى رجل أنت، آه، أنا متأكدة أنها حياة فظيعة!".

وقد آلمنى أنها تفترض بى شر الفروض، وخشيت أن أصدها عن كل الصد، ولم أطق الشكوك التى أثارتها بشأن حياتى، فأردت أن أطهر نفسى فى عينيها، وأريها أنى بها جدير، وأبرهن لها أنها تجلس على مقربة من إنسان أقرب إلى الملائكة؛ سيدى وإلهى، أنى لا أستطيع إلى اليوم أن أعد سقطاتى على أصابع يدى.

وحدثتها، حدثتها عن كل شئ، حدثتها الحقيقة فحسب، ولم أسوئ شيئًا أكثر مما كان، فلم أقصد إثارة عطفها، وأقررت لها كذا أنى سرقت فى أحد الأَمْسِيَة خمسة ريالات.

وقد جلست تستمع إلى بفم مفتوح، ممتقعة اللون وجلة، وقد بدا فى عينيها البراقتين حيرة قاتلة، وأردت أن أصلح الموقف. وأمحو الأثر السيئ الذى أثرته، وعلى ذلك اعتدلت فى جلستى وقلت:

"أما الآن فقد انتهى كل ذلك! ولن يكون شئ من هذا أبدًا، فأنا الآن قد ولدت من.....".

ومع ذلك فقد ضعفت عزيمتها؛ فقالت بعد صمت: "يالله" وكررت "يالله!" مرات كان يعقب كل مرة فسحة قصيرة.

فأخذت أهزل، ودغدغتها، وجذبتها إلى صدرى، وكانت قد شدت أزرارها من جديد، فأغضبنى هذا بعض الغضب، لا بل جرح عواطفى، ما الذى يضطرها لتزرير ثوبها ثانية؟ ألم تعد لى الآن كرامة فى عينيها لمجرد أنى لا يدلى على تساقط شعرى؟ أوكان يحسن لديها إذا أنا جعلت منى رجلًا منغمس فى اللذات؟... كفى هزلًا! الآن حق الهجوم! ولو أن الذى كان... وطرحتها، وطرحتها ببساطة فوق الأريكة.

فدافعت، ولكن دفاعًا ضعيفًا - ونظرت إلى متعجبة.

وقالت: "لا... ماذا تريد؟".

"ماذا أريد؟".

ها، تسأل ماذا أريد! ثم أردت أن أهجم عليها، أن أهجم إلى النهاية! ولم تكن طريقتى أن أهجم عن بعد، فإن هذا لم يكن أبدًا فى طبيعتى، ولا من مبدئى كإنسان، فلست ممن يزعجهم الإرهاب، ولا ممن يخدعهم تقطيب الحاجبين! لا، لا، وأقسم بشرفى! فإنى ما انصرفت فى حياتى عن مثل هذا الأمر بدون أن أنال غايتى....

وعليه هاجمتها.

"لا.... لا ولكن...؟".

فأجبتها: "نعم، هذه هى غايتى!".

فصرخت: "لا، ألا تسمع؟" قم زادت على ذلك العبارة الجارحة "وما يدرينى لعلك مخبول!".

فتوقفت مرغمًا وقلت لها: "لا أظنك تجدين!".

"أى والله! إن شكلك ليبدو غريبًا! وفى ضحى ذلك اليوم الذى لاحقتنى فيه - لم تكن كذلك ثملًا؟".

"لا، فى ذلك اليوم لم أكن أيضًا جائعًا، فقد فرغت ساعتئذ من الأكل....".

"إنه لأسواء بكثير".

"أو كان أحب إليك أن أكون سكران؟".

"نعم... أف! أنى أخافك! ولكن أرجو بالله ألا تركتنى!".

ففكرت فى الأمر: لا، أتركها؟ ليس هذا فى مقدورى، إذا أنت سمحت لى بدورى أن أرجوك فلا هزل فى ساعات الليل المتأخرة، وعلى الأرائك، فليقع القميص! إنها لمهزلة أن يحتج الواحد بأمثال هذه الاعتذارات السخيفة فى مثل هذه اللحظة! لعلى أجهل أن كل ذلك ليس إلا من باب الحياء، وإلا فلا بد أن أكون غراً! وعليه فلتهدئى! لا هزل بعد! وليحى الملك، وليحى الوطن!....

فدافعت عن نفسها دفاعًا شديداً، لتقى وجهها حمرة الخجل، ودفعت الشمعة، كما لو بدر منها هذا بسبب عدم الحيطة، فانطفأت، وقاومت مستيئسة، حتى سمعت منها أنة ضعيفة.

"لا، ليس هذا، ليس هذا! إذا شئت سمحت لك أن تقبلنى فى ثديى أيها الحبيب الطيب....".

فكان لكلماتها وقع مزعج موئس، سرى فى كل جسدى، فتوقفت فى الحال، ظنت أنها تعيضنى بسماحها لى أن أقبلها فى ثديها! ما أجمل ذلك ما أجمله وما أبسطه! ووددت لو انطرحت على أقدامها وركعت أمامها.

وقالت وهى فى شدة الحيرة: "ولكن، عزيزى الصغير! أنا لا أفهم.... ألحق أنى لا أستطيع أن أفهم.... أى نوع من المجون هذا....".

ورفعت نفسها وأشعلت الشمعة ثانية بيدين ترتعدان، فعدت وأسندت ظهرى ولم آت بحركة، ترى ماذا عساه يحدث الآن؟ فالواقع أنى كنت قلق النفس.

ونظرت إلى الساعة التى على الحائط وانزعجت.

وقالت: "أف! حان موعد قدوم الخادمة!، وكان هذا فاتحة حديثها، وذهبت إلى الموقد، وكانت ممتقعة اللون، وقد أخذ قلقها يتزايد، ولكى أتظاهر بأنها لا تشير إلى الباب، قلت:

"أكان أبوك من رجال الحربية؟". بينما أنا أتهيأ للرحيل.

"نعم، إنه كان من رجال الحربية، وكيف عرفت ذلك؟".

"لا علم لى بذلك، إنما خطر لى ذلك".

"ما أغربه!".

"آه، نعم، فى بعض الحالات أتوصل إلى معرفة ذلك عن طريق مشاعرى الداخلية، ها، ها، هذا من مستلزمات الخبل الذى....".

فنظرت إلى نظرة سريعة، ولم تقل شيئًا، ولاحظت أن وجودى يعذبها، وأردت أن أضع حدًا لهذا. فذهبت إلى الباب، تراها تعطينى قبلة؟ أو تمد لى يدها؟ ووقفت أنتظر.

فقالت وهى لا تزال واقفة عند الموقد: "تريد إذن الذهاب؟".

فلم أَحر جوابًا. ووقفت مكانى ذليلًا مشرد الفكر، أنظر إليها ولا أنبس بكلمة.، ترى لماذا لم تتركنى وشأنى إذا لم تكن ثمة نتيجة ما؟ وماذا كنت أنا فى تلك اللحظة؟ يظهر أنها لا تهتم لتأهبى للرحيل، فقدتها فجأة، وأخذت أبحث عن شئ أقوله لها عند الوداع، عن كلمة قاسية من الأعماق قد تصيبها أو تؤثر فيها، وعلى العكس تمامًا من تصميمى القاطع - وبدلًا من أن أظهر بمظهر البرودة والكبرياء، أخذت مثلوم العرض، قلق الخاطر، ذليل النفس، أتحدث عن أمور تافهة؛ ولم تواتنى تلك الكلمة القاسية، وبدا للعيان عجزى التام عن التفكير.

وتساءلت: ترى لأى سبب لا تقول لى فى وضوح وبيان أنها تحب أن أنصرف؟ نعم، نعم لماذا لا تفعل؟ لا فائدة بالمرة من الخجل، وبدلًا من أن تذكرنى بقرب عودة الخادمة إلى الدار، أما كان فى استطاعتها أن تقول لى الآن: الآن يلزمك أن ترحل، لأنى أريد أن أعود بأمى، ولا أريد مرافقتك، ألم تفكر فى ذلك؟ نعم لقد فكرت فيه، ولم يغب عنى شئ منه، ولم يكن الأمر ليتطلب منها عناءً كبيرًا لتدلنى على الطريق الأقوم، الذى يلزم أن أسلكه، فالأسلوب والطريقة وحدهما اللذان أمسكت بهما المعطف ثم إعادتها له مكانه قد أقنعانى بذلك، فأنا كما سبق أن ذكرت رجل ذو هواجس، والواقع أنه لم يكن فى ذلك شئ من الخبل....

فصرخت وهى لا تزال واقفة فى هدوء ولما تقترب منى: "ولكن يالله فى سماواته، أرجو أن تغفر لى هذه العبارة للمرة الأخيرة! لقد فلتت

منى!".

فلم ألِن لها، واستأنفت الكلام، وأكثرت فى القول برغم الحقيقة المؤلمة إذ أنى أضايقها، وأن كلماتى لا تصيب الغرض، واستأنفت الحديث على الرغم من ذلك فقلت: فى الواقع يحق للواحد أن يتأثر ما دام غير مخبول، فهناك طبائع تقربها السفاسف، كما أن كلمة قاسية يمكن أن تقتلها، ثم جعلتها تفهم أن من ذوى الطبائع هذه، وكل ما فى المسألة أن فاقتى تشحذ فى كفايات خاصة، كثيراً ما توقعنى فى مكروهات محضة، نعم أستطيع أن أؤكد لك بكل أسف أنها محض مكروهات، ولكنها من جهة أخرى لها مميزاتها فقد ساعدتنى فى مواقف خاصة، إن الفقير الذكى أدق ملاحظة من الغنى الذكى، فالفقير يرى حواليه فى كل خطوة يخطوها فهو يرهف الأذن مرتاباً لكل كلمة يسمعها من الناس الذين يلقاهم، كل خطوة يخطوها تلقى على أفكاره ومشاعره واجباً وعملاً، فهو حاد السمع، شديد الحس، رجل تجارب، ذو نفس تحترق....

وتكلمت طويلاً عن تحرق نفسى، ولكنى كلما أطلقت القول ظهر عليها القلق، وفى النهاية كررت فى حالة يأس وهى تقلب يديها: "يالله!" وبدت على مظاهر الراحة لتعذيبها، ولم أكن أرغب فيه، ولكنى فعلته على الرغم من ذلك، وأخيراً اعتقدت أن ما يلزمنى أن أقوله لها قد قلته بعبارة قاسية. فأثرت فى نظرتها البائسة، فصرخت:

"والآن اذهب! اذهب الآن! أولا ترين يدى على مقبض الباب؟

أستودعك الله! أنا أقول لك أستودعك الله، لقد كان فى مكنتك مع ذلك أن تتقدمى إلى بضع خطوات عندما تأهبت للرحيل وقلت لك مرتين أستودعك الله، لن أرجو منك مرة أخرى أن نلتقى، فإن فى ذلك تعذيباً لك، ولكن قولى لى لماذا لا تتركينى فى سلام؟ أى شئ صنعته لك؟ لم أقف فى طريقك، أليس كذلك؟ ولأى سبب تصدين عنى فجأة كأنك لم تعرفينى من قبل؟ لقد مزقتنى الساعة كل ممزق، حتى صرت أتعس من ذى قبل، يالله العظيم، ولكن لست بمخبول، ولو فكرت لعلمت جيداً أنه لا ينقصنى شئ، وعليه تعالى إلى، ومدى لى يدك! أو دعينى آت إليك! أتسمحين لى؟ لا أريد بك سوءاً؟ إنما أريد أن أركع أمامك لحظة، هناك

أمامك على الأرض، أريد أن أركع لحظة، لحظة واحدة أتسمحين؟ لا، لا، إذن لا أفعل ذلك، أراك تخافيننى، لن أفعل ذلك أتسمعيننى؟ لن أفعل ذلك؟ يا إلهى، لماذا تفزعين كذا؟ أنا واقف مكانى هادئًا، لا أحرك ساكنًا، إنما كنت أود أن أركع لحظة واحدة على البساط، هناك على الدائرة الحمراء عند قدميك، ولكنك تخافين، فأنا أرى فى الحال فى عينيك أنك قد خفت، ولذلك بقيت مكانى، ولم أخط خطوة واحدة لم أسألك إياها، أليس كذلك؟ ووقفت مكانى كما أقف الآن لأريك المكان الذى كنت أود أن أركع فيه. هناك على الوردة الحمراء القائمة فى البساط، ولن أشير إليها بإصبعى، لا، لن أشير إليها، سأدع ذلك حتى لا أزعجك، سأحنى فقط رأسى وأنظر إليها - هكذا! وستعرفين بحق أية وردة أعنى، ولكنك لا تريدين أن تسمحى لى بالركوع هنا، إنك تخافيننى، ولا تتجاسرين على الاقتراب منى، أنا لا أصدق أن نفسك اطمأنت لدعوتك إياى المخبول! أليس كذلك؟ وأنت أيضًا لم تعودى تصدقينه حدث مرة واحدة فى الصيف - هذا منذ زمن بعيد - أن جننت، فقد اشتغلت فوق طاقتى، فكنت أنسى أن أذهب فى الأوقات المناسبة لتناول طعام غذائى عندما يكون لدى كثير من الأعمال التى تستلزم التفكير، وقد حدث هذا يومًا بعد يوم، وكان على أن أذكر ذلك، ولكنى كنت أعود فأنسى، وأقسم بالله فى سمائه أن هذا حق لا ريب فيه! وليمتنى الله فى مكانى إن أنا كذبت! فأنت ترين كيف ظلمتنى، ولم يحدث ما حدث نتيجة فاقة، فقد كان لى حساب كبير فى انجيبرت (Ingebret) وجرافيسن (Gravesen) وكثيرًا ما كنت أحمل فى جيبى نقودًا كثيرة، ولم أكن مع ذلك لأشترى شيئًا للغذاء لأنى كنت أنسى، أتسمعين لى؟ أنت لا تقولين شيئًا، أنت لا تجيبين، أنت لا تبتعدين عن الموقد، تقفين وتنتظرين رحيلى....

فأسرعت إلى ومدت لى يدها، فنظرت إليها مستريبًا، ترى فعلت ما فعلت عن طيب خاطر؟ أو أنها فعلته لمجرد التخلص منى؟ وطوقتنى بذراعها والدمع يترقرق فى عينيها، وقد وقفت مكانى أنظر إليها، فقدمت لى فمها، فلم أستطع تصديقها، إنها تقدم لى بدون شك تضحية - وما هى إلا مجرد وسيلة لوضع حد لهذا الأمر.

فقالت شيئًا سمعته كأنه: "أحبك على الرغم من كل ذلك!". قالته همسًا وفى غير وضوح، وربما لم أسمعها جيدًا، ومن الجائز أنها لم تقل هذه الكلمات بعينها، ولكنها ألقت بنفسها بشدة على صدرى، وطوقت رقبتى بذراعيها مدة قصيرة، وشبت قليلًا على أصابع قدميها حتى تتمكن من بلوغى، وربما بقيت كذلك واقفة دقيقة كاملة.

فخفت أن تكون قد اضطرت نفسها إلى إظهار مثل هذه العواطف الرقيقة، فلم أقل لها أكثر من العبارة الآتية:

"ما أجملك الآن!".

ولم أزد على ذلك حرفًا واحدًا. وطوقتها بشدة، ثم تراجعت، وفتحت الباب، وخرجت متقهقرا إلى الوراء، وبقيت هى بالداخل.

الفصل الرابع

أقبل الشتاء، وكان فصلًا قاسيًا مشبعًا بالرطوبة، ويكاد يكون عديم الثلج، وخيم الظلام الحالك ذو الضباب أسبوعًا كاملًا لم تهب فيه ريح، وبقيت مصابيح الشوارع مشعلة طول اليوم تقريبًا، وكانت الناس على الرغم من ذلك تتصادم فى الضباب فى سيرها، وكان للأصوات جميعًا من رنات أجراس الكنائس، وصلصلة خيل العربات، وضوضاء الناس، ووقع حوافر الحيوانات - كان لها عجيج وضجيج يملأ الهواء المثقل، الذى يتخلل كل شئ فيبخره، وانصرم أسبوع بعد الآخر والجو على حاله.

وكنت لا أزال مقيما فى (فاتر لاند).

وازداد تقيدى يومًا بعد يوم بهذا النزل، "دار إقامة المسافرين" الذى وجدت فيه مأوى لى برغم سقوطى، أما نقودى فقد نفذت منذ زمن طويل؛ ومع ذلك بقيت فى هذا المكان كما لو كنت صاحب حق عليه، وله أنتسب، ولم تقل صاحبة الدار بعد شيئًا، ولكن عدم مقدرتى على الدفع كانت تؤلمنى على الرغم من ذلك، وانسلخت ثلاثة أسابيع على هذا الحال.

وكنت عدت إلى الكتابة منذ عدة أيام، ولكنى لم أوفق إلى كتابة شئ يرضينى، وسواء كنت أبكر فى محاولاتى أم أتأخر فيها، فإن الحظ لم يكن ليسعدنى، ولم يفدنى ما عالجته، فقد خاننى التوفيق، وعبثًا كانت محاولاتى.

وكنت أجلس وأقوم بهذه المحاولات فى حجرة فى الطبقة الثانية، فى غرفة الاستقبال الفخمة، وقد لزمتها غير مضايق من أحد منذ المساء الأول، الذى وصلت ليدى فيه نقود، إذ كان فى استطاعتى أن أسوى أمورى.

وعللت النفس طول الوقت بإنجاز مقال فى النهاية عن هذا أو ذاك، لأدفع كراء الغرفة، وما على من ديون أخرى، ولذلك أجهدت نفسى فى الكتابة، وابتدأت بصفة خاصة فى كتابة شئ كنت أتوقع منه الشئ الكثير، مقالًا وصفيًا لنار مشتعلة فى إحدى المكتبات، فكرة عميقة كنت أشتغل فيها بكل ما أوتيت من جد، لأقدمها "للرئيس" كدفعة من دينى، إذ كان لزامًا أن يعلم "الرئيس" أنه قد ساعد فى هذه المرة رجلًا موهوبًا، ولم أشك فى أنه سيعلمه، وما علينا إلا أن ننتظر حتى تواتينى الفكرة، ولم لا تواتينى الفكرة؟ ولم لا تواتينى فى أقرب وقت؟ لم يعد ينقصنى شئ؟ فإنى أحصل كل يوم من صاحبة النزل على قليل من الطعام فى الصباح والمساء، قطعتين من الخبز المطلى بالزبد، وقد زالت عصبيتى أو كادت، ولم أعد فى حاجة لعصب يدى عند الكتابة، كما كان فى استطاعتى أن أطل على الحارة من نافذتى فى الدور الثانى، بدون أن أصاب بدوار، فقد تحسنت الأمور من كل النواحى، ولذا تعجبت من أنى لم أنته بعد من تحضير المقال الوصفى، ولم أدرك كيف يتفق هذا.

وأخيرًا كان لابد من أن يأتى اليوم الذى أدرك فيه مقدار ما وصلت إليه من الضعف، وكيف يعمل مخى ببطء واضطراب، فكان يوم جاءت إلى صاحبة الدار بالحساب وسألتنى أن أراجعه لها، إذ لابد أن يكون به خطأ، لأنه لا يتفق مع دفاترها، وليس فى استطاعتها استخراج الغلطة.

فأخذت مجلسى، وأخذت احسب، وقد جلست صاحبة الدار قبالتى تنظر إلى، فحسبت العشرين رقمًا أولًا من أسفل إلى أعلى، فوجدت المبلغ مضبوطًا، ثم حسبتها من أعلى إلى أسفل، فوصلت للنتيجة عينها، فنظرت للمرأة، وكانت تجلس ملاصقة لى، تنتظر كلامى، فلاحظت فى الحال أنها حامل، وعلى الرغم من وضوح ذلك، بقيت أدقق النظر فيها.

وقلت: "المبلغ مضبوط".

فقالت: "لا، افحص عن كل رقم على حدته، لا يمكن أن يكون كذا كثير، مؤكد".

فراجعت كل عدد:

عدد	
2	خبز25
1	زجاجة مصباح18
1	صابونة20
1	زبد32

..... ولم تكن تلك الأرقام فى حاجة إلى رأس مفكر لحسابها، حسبة من حسابات البدالة الصغيرة، ليس فيها شئ من التعقيد - وحاولت مخلصاً أن أجد الغلطة التى قالت عنها المرأة ولكنى لم أجدها، وبعد صراع طويل مع هذه الأرقام دام بضع دقائق، شعرت بأن كل شئ أخذ يرقص فى رأسى، ولم أعد أستطيع التفريق بين حسابات الدائن والمدين، واختلط الأمر على، وأخيراً توقفت بغتة أمام الأرقام الآتية $3^{5/16}$ رطل جبن (فئة) 16 إذ تبلد مخى تماماً، فحدقت فى كلمة الجبن، ولم أدر لى مدخلاً ولا مخرجاً، وقلت آيساً: "ياللعنه! ما هذا الخلط فى التعقيد! فهنا مكتوب فقط$^{5/16}$، ها، ها هل سمع أحد بمثل هذا! انظرى هنا!".

فقالت المرأة: "نعم هكذا تعودوا أن يكتبوا، هذا هو الجبن الكروتى، نعم - نعم هذا مضبوط = $^{5/18}$ أَعْنى خمسة أنصاف الأوقية ..".

فصحت بها: "نعم، هذا أفهمه جيداً" وإن كنت فى الحقيقة لم أفهم شيئاً.

وأحاول من جديد أن أنتهى من عمل هذه الحسبة البسيطة، والتى كنت قبل شهرين أستطيع حسبتها فى بضع دقائق، لا بل فى دقيقة واحدة، فأتصبب عرقاً؛ وأبذل كل مجهود فى حل طلاسم هذه الأعداد، وأغمز بعينى عاصراً ذهنى، كما لو كنت أتعمق فى درس المسألة، ولكنى أضطر للتسليم، فخمسة أنصاف الأوقية هذه قد أجهزت على، فكان كأن شيئاً وراء مخى قد تحطم.

ولكى أظهر مع ذلك على الدوام بمظهر المشغول بالحساب، أخذت أحرك شفتى، وألفظ بين الفينة والفينة عدداً من الأعداد بصوت عال، كما

أفعل عندما أصل إلى الحاصل، والمرأة جالسة تنتظر، وأخيراً قلت:

"الآن قد راجعتها من الأول للآخر، وأرى بقدر ما أستطيع الحكم أن لا خطأ فيها".

فأجابت المرأة: "لا شئ، حقًا لا شئ" ولكنى لاحظت أنها لم تصدقنى، وفجأة أحسست شيئًا فى خطابها من قلة التقدير لى، نغمة عدم اكتراث لم أعرفها فيها من قبل، قالت أنى ربما لم أتعود حساب ستة الأعشار 6/10، وقالت أيضًا إنها لابد أن تلجأ إلى بعضهم ممن يفهمون ذلك، ليراجع لها الحساب بدقة، ولم تقل كل هذا بأسلوب جارح لتُخْجِلْنى، إنما قالته بتأن وجد، ولما بلغت الباب تريد الخروج قالت لى بدون أن تلتفت حواليها:

"أرجو معذرة لإثقالى عليك!".

وانصرفت.

وعاد الباب على الفور ففتح، وولجته صاحبة الدار ثانية، فما كادَتْ تبلغ المدخل حتى عادت.

وقالت: "قبل أن أنسى - أرجو معذرة، لا يزال يستحق لى عندك شئ؟ ألم يمض أمس على قدومك إلينا ثلاثة أسابيع؟ نعم، أظن ذلك، ليس من الهين الكفاح فى الحياة لعول أسرة كبيرة كأسرتنا، ولذا أرانى مضطرة أن لا أقبل أحداً عندى يسكن على الحساب، أنا متأسفة...

فقاطعتها قائلًا:

"أنا مكب الآن على تحبير مقال سبق أن حدثتك عنه، وبمجرد الانتهاء منه ستحصلين على نقودك، عليك أن تطمئنى".

"ولكن المقال لن ينتهى".

"هل تعتقدين ذلك؟ إن من الجائز أن تواتينى الأفكار غداً، بلى ربما تواتينى ليلًا، وليس من المستحيل مواتاتها لى فى الليل، وإذ ذاك أفرغ من كتابة مقالى فى ربع ساعة على الأكثر، أصغى إلى، إن عملى يختلف عن عمل الناس الآخرين، فليس فى استطاعتى أن آخذ مجلسى وأقوم بكمية محدودة من العمل، على أن أترقب اللحظة، وليس فى استطاعة أحد أن

يعرف اليوم والساعة التى تجود عليه فيهما نفحات قريحته، هذا لابد أن يسير سيره الطبيعى".

وانصرفت صاحبة الدار، ولكن ثقتها فى قد تزعزعت بدون شك.

ولما صرت وحدى نهضت واقفًا، وجذبت شعرى من شدة اليأس، لا مخلص لى عل الرغم من كل شئ، لا، لا مخلص،! لقد أفلس مخى! أو بلغت نهاية البلاهة، حتى إنى لم أستطع أن أحسب قيمة قطعة صغيرة من الجبن الكروتى؟ أفقدت صوابى حتى أسأل نفسى مثل هذه الأسئلة؟ أو لم ألحظ بجلاء برغم اضطرابى حمل صاحبة الدار؟ وكيف لى تفسير ذلك ولم تسنح لى فرصة للعمل به، فما حدثنى أحد عنه شيئًا، ولا خطر لى عفوًا، فقد رأيته بعينى، وأدركته فى الحال، وفوق هذا فقد لاحظته فى ساعة يأسى وأنا جالس أحسب 6/10.

وذهبت إلى النافذة، وأطللت منها على حارة بوجنماند (Bognmand) فرأيت بضعة أولاد يلعبون على رصيف الشارع؛ أولاد ذوى ثياب رثة فى حارة حقيرة، كانوا يترامون بزجاجة فارغة فيما بينهم، ويتصارخون بصوت عال، وقد مرت بهم عربة عليها أدوات منزلية، فخطر لى فى الحال أنه لابد أن يكون هذا لأسرة أكرهت على الانتقال من مسكنها فى غير مواعيد الانتقال، وكان على العربة فرش وأثاث، وقوائم سرر نخرة وخزانات صغيرة وكراسى حمراء ذات ثلاث أرجل وحصر وأدوات حديدية وأوعية من الصفيح، وجلست على العربة ابنة صغيرة لا تزال فى المهد، مخلوق قبيح بحق، ذو أنف مقرور، وقد أمسكت نفسها جيدًا بيديها الحقيرتين الصغيرتين الزرقاوين، حتى لا تسقط على الأرض، وكانت تجلس على كومة فظيعة من المراتب المبللة من نوم أطفال عليها وأطلت على الصغار الذين يترامون بالزجاجة....

رأيت كل هذا الذى مر بى وأدركته بدون عناء، وبينما أنا واقف هناك عند النافذة أنعم النظر، سمعت خادمة صاحبة الدار تغنى بجوارى فى المطبخ، وكنت أعرف اللحن الذى تغنيه، فأصغيت حذر أن تخطئ فى تلحينه، ثم قلت لنفسى إن المخبول لا يستطيع أن يدرك كل هذا، فأنا والحمد لله أتمتع بالعقل ككل إنسان آخر.

وفجأة رأيت كيف يتشاجر ولدان من الأولاد على الطريق، وكانا طفلين صغيرين، فعرفت أن أحدهما ينتمى لصاحبة الدار، ففتحت النافذة، لأسمع ما يقوله الواحِد للآخر، وسرعان ما تجمعت الأطفال تحت نافذتى، ورفعوا أبصارهم مُتَشَوِّفين، ترى أى شئ ينظرون؟ أن يلقى أحد لهم شيئًا؟ زهورًا ذابلة؟ أو عظام، أو بقايا لفائف، أو أى شئ يقضمونه أو يتسلون به؟ وكانوا يتطلعون إلى نافذتى بوجوه زرق مقرورة، وبنظرات موصولة غير مقطوعة. وفى غضون ذلك استأنف الخصمان نزاعهما، وقذف فم هذين الطفلين كلمات ما أكبرها وما أهولها! ألفاظ سباب بلغة البغايا، ومهاترات البحارة، ربما تعلموها عند كبارى الميناء، وانهمكا فى السباب، حتى إنهما لم يلحظا إسراع صاحبة الدار بالنزول إليهما، لترى ماذا يحدث.

فقال ابنها: "نعم، لقد قبض على عنقى حتى انقطع نفسى!". والتفت عند ذلك إلى المجرم الصغير الذى كان يحدجه بحقد، وصاح به وهو يتميز من الغيظ: "فلتذهب إلى الجحيم، أيها الأخرق الخوالدى! ولد حقير كهذا يمسك الناس من أعناقهم! ليأخذنى الشيطان إذا أنا لم ....".

وتحاول الأم، تلك المرأة الحامل التى تكاد تسد الطريق، أن تأخذ معها طفلها البالغ العشرة، فتمسكه بذراعه قائلة: "صه، اقفل فمك! إنك لتعرف كيف تسب! إنك لتستخدم طلاقة لسانك فى السباب، كما لو كنت طول العام فى البؤر! امشى أمامى إلى الدار!".

"لا، هذا لن أفعله!".

"لا، لابد!".

"لا، هذا لن أفعله!".

فأقف، فوق عند الشباك، وأرى كيف يزداد غضب الأم، فأثار هذا المنظر القبيح ثائرتى، ولم أطق عليه صبرًا، فناديت الغلام أن يأتى إلى لحظة، ناديته مرتين بقصد مقاطعتها، لأضع حدًا لهذه الفاتحة، ورفعت صوتى فى المرة الأخيرة. فتلفتت الأم مدهوشة، ورفعت بصرها إلىّ، فعاد

إليها صوابها فى الحال، نظرت إلى بوقاحة، وتأملتنى بدقة، ثم انسحبت معنفة ابنها، وتكلمت بصوت عال حتى أسمعها، فقالت له:

"أف لك - فلتستح لرؤية الناس إياك/ ما أسوأك!".

ولم يغب عنى أتفه شئ من كل هذا الذى شاهدته على تلك الصورة، كانت مشاعرى متيقظة تماماً، فقد أدركت كل صغيرة وتشربتها، ثم وقفت أفكر فى كل هذه الأمور بحسب وقوعها، وعلى ذلك يستحيل أن يكون بعقلى مس، ومن أين له أن يأتيه المس؟

وفجأة قلت، مخاطباً شخصاً: استمع، أتعرف أنك شغلت نفسك طويلاً بقواك العقلية، واهتممت بها من هذه الناحية، والآن يلزم وضع حد لهذه المهازل، ترى من علامات الجنون أن يدرك الإنسان تمام الإدراك كل شئ، ويلاحظه كما فعلت؟ إنى أوشك أن أضحك منك، إنه يحق لك أن تتحقق أن الأمر لا يخلو من فكاهة كما أرى، وباختصار إنه ليحدث لكل الناس أنهم يفقدون زمامهم مرة، وهذا يحدث على الأخص دائماً فى أبسط المسائل، وليس هذا معناه أنه مجرد مصادفة، وكما قلت لك، إنه ليصعب على ألا أضحك منك، أما ما يختص بحساب البدالة فإنى أوشك أن أقول أن هذه الخمسة أعشار من جبن الفقراء - ها، ها، الجبن المخلط بالقرنفل، والفلفل، وأقسم بشرفى أنه جبن لو حق للواحد أن يتكلم عنه بصراحة، من النوع الذى يجبن الإنسان - أما هذا الجبن، فإنه يجعل من أفضل الناس غبياً، وحسبك رائحته، فإنها لتقضى على الواحد القضاء الأخير.... وأخذت أضحك من جميع صنوف الجبن الكروتى.... وأستأنف القول: لا، ضع أمامى شيئاً يؤكل بشهوة، ضع أمامى إذا شئت 6/10 من الزبد الطازج، فهذا شئ آخر!

وأخذت أضحك باستمرار من نوباتى، ووجدتها غريبة فى بابها، الحق أنى لا أشكو شيئاً، فأنا بخير، ولو شئت فقل أنا بخير وعافية، ورأسى سليم (لله الحمد والشكر) فلا ينقصنى شئ.

وأخذ ينمو فى الوعى، وأنا أروح وأجئ فى غرفتى، وأتحدث مع نفسى، وأقهقه، وقد شعرت بغبطة عظيمة والواقع أنى كانى كنت فى حاجة إلى هذه اللحظة المرحة القصيرة، لحظة الطرب الخالية من الهموم، لأعيد

لرأسى قواه العملية، وجلست إلى المائدة وأكببت على مقالى الوصفى، وسار العمل على خير ما يرام، خير منه فى أى وقت كان، ولم يكن بسرعة، ولكنى اعتقدت أن القليل الذى كتبته كان متينًا، واشتغلت ساعة كاملة بدون أن أحس تعبًا.

وبلغت نقطة هامة فى هذا المقال الوصفى، حريق فى مكتبة، وبدا لى أن كل ما كتبته قبل ذلك لا يعد شيئًا بالنسبة لهذه النقطة، وأردت أن أتعمق بصفة خاصة فى تكوين الفكرة وأن الكتب ليست وحدها التى تحترق، ولكنها الرؤوس الرؤوس الآدمية، وأردت أن أجعل من هذه الرؤوس المحترقة ليلة بارتولومية بحق.

فانفتح بابى فجأة وبسرعة زائدة على مصراعيه، ودخلت صاحبة الدار، ولم تقف عند عتبة الباب، بل تغلغلت إلى وسط الغرفة، ولم تتردد لحظة واحدة فى الوقوف عند عتبة الباب، بل أخذت طريقها إلى وسط الغرفة.

فعلت منى صرخة، قصيرة بحاء، فالحق أنى كنت كمن أصيب بلطمة.

فقالت: "ماذا؟ حسبتك تقول شيئًا؟ لقد جاءنا مسافر، ونحن فى حاجة إلى غرفتك من أجله، ولابد لك من أن تنام عندنا فى الدور الأدنى، نعم، ولابد لك (كذا) من سرير". وبدون أن تنتظر جوابى ابتدأت بدون تمهل تجمع أوراقى من على المائدة، فشوشت كل شئ.....

فتبخر مزاجى المرح، وبلغ منى الغضب واليأس مبلغه، فنهضت فى الحال، وتركتها تهيئ المائدة وحدها، ولم أقل شيئًا حتى ولا كلمة واحدة، فأعطتنى الأوراق فى يدى.

ولم يبق أمامى إلا أن أغادر هذه الغرفة.

ولكن هذه اللحظة الثمينة كانت أيضًا قد ذهبت، والتقيت بالمسافر الجديد على السلم، وهو رجل، فى مقتبل الشباب يحمل شارة البحارة الزرقاء على ذراعه، وقد تبعه حمال يحمل على كتفه صندوقًا، ولا شك فى أن هذا الغريب كان ملاحًا، وعليه فهو مجرد طارق يقيم ليلة واحدة، ومؤكد أنه لن يشغل غرفتى أكثر من ذلك، وربما واتتنى بعد ارتحاله

لحظة سعيدة، فأن لا ينقصى غير وحى خمس دقائق، وبذلك يتم عملى، وعليه لابد لى أن أخضع للقضاء....

ولم أكن حتى الساعة قد رأيت سكن الأسرة، تلك الغرفة الوحيدة التى يسكنون فيها ليل نهار، أعنى الرجل، والزوج، ووالدها، والأطفال الأربعة، أما الخادمة فكانت تقيم فى المطبخ، وتنام فيه ليلًا، اقتربت من الباب وبالنفس غصة، ودققته، ولكن أحدًا لم يجب، وإن كنت سمعت أصواتًا فى الداخل.

ولم ينبس الرجل ببنت شفة عند دخولى، حتى، ولم يرد تحيتى، وإنما نظر إلى نظرة عدم اكتراث كما لو كنت لا أعنيه، وجلس يلعب الورق مع رجل كنت رأيته عند مخازن الغلال، حمال سمعتهم ينادونه باسم "لوح الزجاج" جلاسشيبا (Glasscheibe) وفى مؤخرة السرير كان ينام طفل صغير يتحدث مع نفسه، وجلس الرجل العجوز والد صاحبة الدار منزويًا فى نفسه على التخت، ورأسه فى يديه، وقد انحنى كما لو كان يشكو ألمًا فى صدره أو معدته، وقد ابيض شعره أو كاد، وكانت هيئته وهو منزو تشبه هيأة الحيوان المنقبض الذى يرهف أذنه نحو شئ ما.

فقلت للرجل: "أتيت للأسف لأسألكم الليلة سكنًا معكم".

فقال: "هل قالت ذلك زوجى؟".

"نعم، فإن مسافرًا آخر قد أخذ غرفتى".

فلم يجب الرجل عن ذلك، وعاد فاشتغل بورق اللعب.

وهكذا كان يجلس هذا الرجل يومًا يلعب الورق مع كل صديق يلج غرفته، يلعب لا لشئ، ولكن قطعًا للوقت، ولكى يتناول شيئًا فى يديه، وما عدا ذلك فإنه لم يكن يعمل عملًا، يتحرك بقدر ما تسمح له أعضاؤه المتراخية، بينما ترى امرأته صاعدة نازلة، فى السلم، ناظرة حواليها، يمينًا وشمالًا، باذلة جهدها لجلب الزوار إلى دارها، كما أنها كانت كذلك علىَ اتصال بالحمالين والمتسكعين على نواصى الطرقات، كانوا يتناولون منها أجرًا معلومًا عن كل ضيف جديد يأتون به إليها، وكثيرًا ما قدمت

لهؤلاء الحمالين مأوى فى ليلتهم، وفى هذه المرة قادوا (جلاسشيبا) المسافر الجديد إليها.

ودخل طفلان، بنيتان لهما وجه نحيل به نمش، عليه طابع الطفولة، وكانت ملابسهما رثة، وعلى أثرهما دخلت صاحبة الدار، فسألتها فى أى مكان ستنزلنى فى ليلتى فردت على باقتضاب أنى أستطيع أن أرقد هنا فى الغرفة مع الآخرين، أو فى الخارج عند مدخل الغرفة على التخت حسبما أرى، وكانت فى أثناء إجابتها لى تروح وتجئ فى الغرفة تشتغل بمختلف الأشياء تعيدها إلى نظامها، ولم تلتفت إلى ولا مرة واحدة.

فجعلنى جوابها أتقبض فى بعضى، ووقفت بجوار الباب، وأصغرت من نفسى بقدر المستطاع، وتظاهرت بالرضا لتركى غرفتى ليلة لآخر، وهششت عامداً لكيلا أغضبها، أو لكيلا أطرد من الدار جميعها، وقلت "سنجد حلًا ما" ثم صمت.

وكانت لا تزال مكبة على عملها فى الغرفة.

ثم قالت: "عدا ذلك أحب أن أقول لك أنه لا يناسبنى أن أقبل عندى أناساً نفقاتهم وسكنهم على الحساب - وهذا ما سبق أن قلته لك.

فرددت: "ولكن أيتها العزيزة، إنها مسألة بضعة أيام وينتهى مقالى، وستجدیننى إذن مستعد لإعطائك خمسة ريالات فوق المطلوب منى".

ولكنها فى صراحة لم تكن تؤمن بمقالتى، فقد لاحظت ذلك فى عينيها، ولم يكن فى مكنتى أن أحافظ على كبريائى، وأترك الدار لمجرد أنى أوذيت بعض الإيذاء فى كرامتى؛ فقد كنت أعلم ما ينتظرنى إذا أنا خرجت.

يومان انصرما.

وأقمت تحت مع الأسرة لأن مدخل الغرفة لم يكن به مصطلى، وكان الجو بارداً، وكنت فى الليل أفترش أرض الغرفة، وطالت سكنى البحار الغريب، ولم يبد أية علامة على قرب سفره.

وفى موعد الغذاء جاءت صاحبة الدار وقالت إنه دفع لها أجرة شهر مقدماً، فإنه يريد أن يتقدم لامتحان البحرية قبل سفره، ولهذا يقيم فى المدينة. سمعت كل هذا فأدركت منه أنى قد فقدت غرفتى إلى الأبد.

خرجت إلى مدخل الغرفة، وأخذت مجلسى، فإنى لو وفقت على الإطلاق فى الكتابة، فلن يكون ذلك إلا خارج الغرفة، حيث يسود السكون ولم يعد يشغلنى المقال الوصفى، فقد خطرت لى فكرة جديدة؛ موضوع آية فى الإبداع، أردت كتابة رواية من فصل واحد، مأساة عن: "آية الصليب" مادتها ترجع للعصور الوسطى، وعلى الأخص لأنى كنت فكرت فى موضوع بطلتها من جميع الوجوه، وهى بغى ظريفة متعصبة، كانت ترتكب الخطيئة فى الهيكل، لا عن ضعف ولا عن شهوة، بل لشدة بغضائها للمساوات، ارتكبت خطاياها عند سفح المذابح لاحتقارها العظيم للسماوات.

وأخذ إعجابى بشخصها يتزايد بمرور الوقت فأراها رأى العين واقفة أمامى على الصورة التى تخيلتها عليها، كما لو كانت حية ترزق، جسد معيب منفر، طويلة، شديدة الهزال، ضارب لونها إلى السمرة، وإذا هى سارت أبدت ثيابها للعيان ساقيها الطويلتين عند كل خطوة تخطوها، ذات أذنين كبيرتين متباعدتين، وبالاختصار لابد أن تكون أذى للعين لا يطاق النظر إليها، وكل ما يهمنى فيها هو قحتها العجيبة، تلك الخطيئات المتعمدة الوفيرة التى ارتكبتها، والحق أنى اشتغلت بها كثيراً، وقد فتقت هذه الصورة المشوهة للطبيعة البشرية ذهنى، فأخذت أكتب ساعتين فى الرواية بدون انقطاع.

ولما انتهيت بعد عناء شديد من كتابة عشر صفحات أو اثنتى عشرة صفحة كان يتخللها فترات راحة طويلة حاولت عبثًا فيها الكتابة، فكنت اضطر إلى تمزيق الورق، فبدا علىّ التعب، وجمدت من البرد والإجهاد، فنهضت من مكانى، وخرجت إلى الشارع، وكنت فى خلال نصف الساعة الأخير أسمع كذا صياح الأطفال فى غرفة الأسرة وعلى ذلك لم يكن فى الطاقة على أية حال استئناف التحرير، فقمت برياضة طويلة مخترقاً درمنسفين (Draumenseveyen) وبقيت بعيداً حتى المساء، وكنت طول الوقت أفكر دون انقطاع فى طريقة استئناف روايتى، وعند عودتى فى ذلك المساء إلى الدار حدث لى ما يأتى:

وقفت أمام دكانة إسكاف فى نهاية شارع (كارل يوحنا) على مقربة من ميدان محطة سكة الحديد، والله وحده يعلم لأى سبب بقيت واقفًا أمام دكانة الإسكاف، وأخذت أنظر إلى ما فى داخل النافذة، ولم يدر بخلدى لحظة واحدة حاجتى الماسة إلى حذاء، فإن أفكارى كانت قد نأت بى إلى نواحى أخرى من الدنيا، ومر بى سرب من الناس يتحدثون، ولم أسمع شيئًا من حديثهم، وهنا حيانى بعضهم بصوت عال.

"مساء الخير".

فرددت التحية: "مساء الخير!" وحدقت فى "الرقيع" لحظة قبل أن أتعرفه.

فسألنى: "كيف حالك؟".

"على غاية ما يرام... كالعادة!".

"قل لى... ألا تزال عند كرستى (Christie)".

"كرستى؟".

"أذكر أنك قلت لى مرة من المرات أنك كاتب حسابات عند (كرستى) تاجر الجملة؟".

"أى نعم، لا، هذا زمن مضى وانقضى، يستحيل العمل مع هذا الرجل، لقد انقطعت العلاقة بيننا بسرعة من نفسها".

"ولماذا؟".

"لقد أتيت إحدى المرات زلّة فى الكتابة، وعلى ذلك....".

"زورت؟".

زورت؟ الآن يقف "الرقيع" يوجه السؤال إذا كنت قد ارتكبت تزويراً! وقد سأل كذلك فى سرعة وباهتمام كبير، فنظرت إليه متأثراً من أعماق قلبى ولم أجبه.

فقال لى معزيًا: "نعم، نعم، يالله العزيز! قد يحدث هذا لأفضل الناس" فكأنه كان لا يزال يعتقد أنى ارتكبت تزويراً.

فسألته: "ماذا؟ نعم، نعم، يالله العزيز! قد يحدث هذا لأفضل الناس؟ ارتكاب التزوير؟ استمع إلى يا عزيزى، أتعتقد بحق أنى ارتكب مثل هذه الرذيلة؟ أنا؟".

"ولكن أيها المحترم، أنا أعتقد أنك قلت....".

"لا، أنا قلت، أنى أخطأت مرة فى كتابة عدد السنين، مسألة تافهة، وإذا شئت أن تعرف المسألة على حقيقتها فهى زلة قلم - وهذه هى جريمتى، لا، الحمد لله، فالواحد لا يزال يميز بين الصواب والخطأ، فأين يكون مصيرى إذا أنا لطخت شرفى، أنى لن أسير إلا وراء إحساس الشرف، وأرجو أن يكون فيه من القوة الكافية، وعلى أية حال فقد حفظنى حتى هذه الساعة".

وأرجعت رأسى إلى الوراء، ولفت وجهى عن "الرقيع"، ونظرت أمامى إلى الشارع، فوقع بصرى، على ثوب أحمر، مقبل صاحبه علينا، وكانت ترتديه امرأة، تسير إلى جانب أحد الرجال، ولو لم أكن ساعتئذ أتجاذب الحديث مع "الرقيع"، ولو لم تجرحنى ظنونه السيئة، ولو لم أُلْقِ برأسى إلى الوراء فى تلك اللحظة وأتراجع خطوة شاعراً بالإهانة لمرت بى صاحبة الثوب الأحمر على الغالب دون أن ألتفت إليها، والواقع ماذا يعنينى أمره؟ وماذا يهمنى حتى ولو كان ثوب الآنسة، الوصيفة ناجل (Nagel).

وظل "الرقيع" واقفًا يتكلم محاولًا إصلاح غلطه، ولم أستمع له بالمرة بل ظللت أحدق فى هذا الثوب الأحمر الذى كان يقترب منى، وسرت هزة فى صدرى، وخزة خفيفة مصمية، فهمست فى سرى، همسة بدون أن أحرك فمى:

"يلايالى!".

وهنا التفت أيضًا "الرقيع" وتبين كل منا السيدة والرجل، وسلم عليهما وتابعهما بنظره، وأما أنا فلم أسلم - أو ربما سلمت غير واع، وسار هذا الثوب الأحمر مصعداً فى شارع (كارل يوحنا) ثم اختفى.

فسأل الرقيع: "من هذا الذى يسير معها؟ أتعرف السيدة؟".

"الدوق، ألم ترَ؟ إنه يدعى بالدوق، أتعرف السيدة؟".

"نعم، بمجرد النظر، وأنت ألا تعرفها؟".

فأجبته: "لا".

"أظنك سلمت عليها بانحناء شديد".

"أنا"؟.

فقال الرقيع: "ها، ها، ربما لا؟ ياللعجب! بينما هى لم تنظر إلا لك وحدك طول الوقت.

فسألته: "من أين عرفتها؟".

الواقع أنه لا يعرفها، وترجع القصة إلى أحد أمسيات الخريف، وكان الوقت متأخراً، وكانوا ثلاثة أشخاص مرحين، أتوا ساعتئذ من على الشاطئ، وقابلوها وهى سائرة وحدها إلى كمارماير (kAMMERMEYER) فتحدثوا إليها، فأجابتهم فى أول الأمر فى تمنع، ولكن أحد هؤلاء المرحين كان شخصاً لا يخاف النار، ولا يهاب الحديد، توسل إليها أن تدعه يساهم بنصيبه فى المدينة، فتسمح له بتشييعها إلى دارها، ويقسم لها بالله أن لا يمس لها شعرة على بدن، كما جاء فى التوراة، فحسبه أن يشيعها إلى الدار لكى يطمئن على بلوغها الدار سالمة، وإلا فإنه سيظل ليلته قلقاً، وأخذ يتكلم بدون انقطاع، وخرج من موضوع، ودخل فى موضوع، ودعى نفسه فالدمر أترداج (Waldmer Atterdag) وادعى أنه مصور، وأخيراً لم تتمالك نفسها من الضحك من هذا الشاب المرح، الذى لم تخدعه برودتها، وانتهى الأمر أن ذهب معها.

فسألته وقد أمسكت نفسى: "حسنا، وماذا حدث بعد ذلك!".

"ماذا حدث بعد ذلك؟ آه.... لا شئ! إنها لسيدة".

وصمت كلانا لحظة.

ثم قال وهو يفكر: "لا، أعوذ بالله من الشيطان، هذا إذن هو الدوق! كذلك هوّ، وإذا هى سارت مع هذا الشخص، فلست مطالباً بالإجابة عنها".

وبقيت صامتًا، طبعا سيذهب معها الدوق! وليكن ذلك! وماذا يعنيى هذا؟ لن أهتم بعد بها وبسحرها، وأخذت أعزى نفسى، فافترضت فيها أسوأ الفروض، وسرى عنى أن أراها تسف إلى الحضيض، ولم يؤلمنى إلا رفع قبعتى لها - لو صح أنى فعلت هذا، ولم تخلع القبعة أمام أمثال هذين الشخصين! ولم أعد آبه لها بالمرة، فإنها لم تعد على شئ من الجمال، فقد هوت إلى الحضيض، أف للشيطان! ما أشد ذبولها! يجوز أنها نظرت إلى! هذا لا يدهشنى، فربما أخذها النوم، وستنتظرنى، ولكن هذا لا يستلزم زلة قدم صغيرة، فَأُحيّيها كالمخبول، وعلى الأخص وهى تبدو شوهاء فى الأيام الأخيرة ليختطفها الدوق! ليهنأ بها! وسيجئ اليوم الذى تسول لى فيه نفسى أن أمر بها بدون أن أتلفت ناحيتها، وليس بعيداً أن أسمح لنفسى بذلك، حتى ولو دققت النظر، وكانت فوق ذلك ترتدى ثوبًا أحمر، ومن البين أن يحدث ذلك. ها، ها! هذا هو النصر! ولو أنى آمنت بنفسى لاستطعت أن أتم روايتى فى بحر الليلة، وربما اضطررت هذه الآنسة قبل مضى ثمانية أيام أن تركع أمامى بكل مفاتنها، ها، ها، نعم بكل مفاتنها....

وقلت فى اختصار: "الوداع".

ولكن "الرقيع" عاد فاستوقفنى وقال:

"بأى شئ تشتغل الآن؟".

"ماذا أشتغل؟ طبعًا أكتب، وماذا عسى يمكن أن يكون غير الكتابة؟ فمنها أعيش، وفى الوقت الحاضر أؤلف رواية عظيمة "آية الصليب" مادتها مأخوذة من العصور الوسطى".

فقال "الرقيع" مخلصًا: "إلى الشيطان أيضًا! اَىْ نعم، لو أمكنك أن تكسب منها شيئًا له...".

فأجبته: "لست أخشى شيئًا من هذه الناحية! فى غضون ثمانية أيام تقريبًا أعتقد أنك ستسمع عنى الشئ الكثير".

وعلى هذا انصرفت.

ولما بلغت الدار قصدت رأسًا صاحبة الدار، وسألتها مصباحًا، وكنت متلهفًا إلى مصباح، فقد اعتزمت ألا أنام هذه الليلة، فقد تحركت الرواية فى رأسى، وكنت قوى الرجاء فى كتابة جزء كبير منها، حملت لها رغبتى قرار تواضع جمّ عندما لاحظت تقطيبة السخط على وجهها عند عودتى للغرفة، فقلت لها: "إنى على وشك الفراغ من كتابة رواية غير عادية، وينقصنى فقط بعض مناظر، ولمحت لها أنها قد تمثل على أحد المسارح، فى طرفة عين، وإذا هى قدمت لى هذه الخدمة العظيمة فإنى...."

ولم يكن لدى المرأة مصباح، ففكرت، ولكنها لم تذكر أنه يوجد عندها أى مصباح، وإذا أنا صبرت للساعة 12 فربما استطعت الحصول على مصباح المطبخ، ولعل الأفضل لى شراء شمعة.

فصحت، فقد كانت تعرف أنى لا أملك عشر (أورات) ثمنًا لشمعة، فكان من الطبيعى أن تهن قوتى من جديد، وكانت الخادمة تجلس فى الغرفة، ولم تكن تجلس فى المطبخ، ولم يكن المصباح مشتعلًا فوق، فكرت فى هذا ولم أقل حرفًا.

وفجأة قالت الخادمة لى:

"كنت أظن أنك آت من القصر! هل كنت هناك فى الظهر؟" ثم قهقهت من هزلها.

جلست، وأمامى أوراقى، وأردت أن أحاول هنا كتابة شئ، فى غضون ذلك، ونشرت الورق على ركبتى، وحدقت فى الأرض بدون انقطاع، لأسرى عنى بعد التفكير، ولكن هذا لم يفد، ولم أتقدم خطوة من موقفى، ودخلت ابنتا صاحبة الدار الصغيرتان وهما تشاكسان قطة مريضة عجيبة، لا يكاد يكون بها شعر، وإذا نفختا فى عينيها سال منهما ماء، وجرى فوق أنفها، وجلس صاحب الدار مع آخرين على المائدة يلعبون لعبه "مائة وواحد"، أما المرأة فكانت مجدة كعادتها، كانت تخيط، وقد لاحظت تمامًا أنى لن أستطيع الكتابة وسط هذه الحركة، ولكنها لم تعد تعنى بى، لا بل ابتسمت عندما سألتنى الخادمة إذا كنت ظهر اليوم فى القصر خاصمنى كل من فى الدار، فكان اضطرارى للتنازل عن غرفتى لآخر مرة

يستلزم أن أعامل كغريب، وحتى هذه الخادمة البغى القصيرة السمراء العينين، وذات الناصية الجعدة والثدى المبطوح، هزأت منى فى المساء عندما جاءتنى بالخبز والزبد، فقد استمرت تسألنى: أين تعودت أن أتناول طعام الغذاء؟ مع أنها لم ترنى قط أذهب إلى (الجراند)، فهذا معناه أنها تعرف سوء حالى، ولكنها تجد لذة فى إبدائه لى.

وقد خطر لى فجأة كل ذلك، ولم أعد أستطيع أن أجد محاورة واحدة لروايتى، وعبثًا حاولت من جديد؛ فقد أحسست طنينًا عجيبًا فى رأسى واستسلمت فى النهاية للأمر، ودسست الورق فى جيبى، وجلست الخادمة أمامى، فنظرت إليها، فرأيت ظهرًا ضيقًا، مركبًا عليه كتفان منخفضتان، لم تنموا النمو الطبيعى، وأية حاجة لها أن تهزأ بى؟ وماذا عسى يكون لو أنى بالفعل جئت من القصر؟ أفى ذلك أذى لها؟ لقد كانت تضحك منى فى الأيام الأخيرة بوقاحة إذا ما أصابنى سوء الحظ، فعثرت فوق السلم، أو بقيت معلقًا فى مكانى بمسمار، حتى يتمزق ثوبى، وأمس قامت وجمعت أوراق روايتى الممزقة، التى كنت ألقيت بها عند مدخل الغرفة، سرقت هذه القصاصات وأخذت تقرأها بصوت عال، فى حضرة الجميع، لكى تسخر منى، ولا أذكر أنى أهنتها يومًا ما، لا ولا سألتها قضاء حاجة لى، على العكس فقد كنت فى المساء أُهيِّئ فراشى بنفسى فى الرواق، حتى لا أُثْقل عليها، وكذلك كانت تهزأ بى لتساقط شعرى، ففى الصباح كان يتبقى منى شعر فى المغسل، وحذائى كان قد ساء، ولاسيما بعد أن مرت عليه عربة الخبز، فكانت تضحك منه (كذا) فتقول: "وقاك الله ووقى حذاءك، انظر إليه مرة واحدة - إنه كبير كوجار الكلب!"، والحق عندها، فحذائى كان قد بلى، ولم يكن فى طاقتى فى ذلك الوقت أن أحصل على غيره.

وبينما أنا أفكر فى ذلك، وأعجب لعداوة الخادمة المكشوفة، أخذت الطفلتان تغضبان الرجل العجوز الجالس على مؤخرة السرير، فكانتا تتواثبان حواليه، وانشغلتا بعملهما هذا عما عداه، وكان مع كل واحدة منهما عود من قش، أخذت تنخسه به فى أذنه، وبقيت فترة طويلة أنظر إليهما بدون أن أتدخل فى الأمر، ولم يحرك الشيخ ساكنًا للدفاع عن

نفسه، ولكنه كان يكتفى فى كل مرة تخزانه فيها بأن يرسل نظرات ثائرة، ويهز رأسه، ليتخلص من عوج القش، كلما سكن فى أذنه.

وأخذ هذا المنظر يثير ثائرتى، ولم أستطع لفت نظرى عنه، وكان الوالد ينظر من فوق ورق اللعب، ويضحك من عمل الصغيرتين، فلفت نظره زملاؤه فى اللعب إلى ما هو جار، ترى لم يحرك العجوز ساكنًا؟ ولماذا لم يدفع الطفلتين بعيدًا عنه بذراعيه؟ فتقدمت خطوة إلى السرير.

ونادى صاحب الدار: "خلياه! خلياه! إنه كسيح".

ثم عدت إلى مكانى الأول صامتًا، وضبطت نفسى؛ خوفًا من أن يرينى الرجل الطريق إلى الباب إذا أنا أثرت غضبه، ليس إلا لمجرد الخوف من ذلك، ولم أعرض مأوايَ وخبزى المطلى بالزبد للخطر بتدخلى فى شؤون الأسرة؟ كل شئ إلا ارتكاب سخافة من أجل شيخ نصف ميت! وعلى ذلك قست نفسى - كحجر من صوان!

ولما استمرت الخبيثتان فى تعذيبهما للشيخ، فقد استفزهما تحريك رأسه فأخذتا كذلك تخزانه فى عينيه وفى أنفه، فكان ينظر إليهما مفعمًا بالحقد، ولكنه لم يقل شيئًا، ولا قوى على تحريك ذراعه، وفجأة نصب قامته قليلًا، وبصق فى وجه إحداهما، ثم اعتدل مرة أخرى، وبصق فى وجه الثانية، ولكنه لم يصبها، فرأيت كيف ألقى صاحب الدار بورق اللعب على المائدة، وجرى إلى السرير يصرخ، وقد احمر من الغضب.

"ماذا؟ تبصق فى عيون الناس أيها الخنزير العجوز!".

فصرخت من شدة الغضب: "ولكن يالله العظيم، إنهما لم تتركاه فى سلام!" ولم تكن صرختى عالية، فقد ثارت مخاوفى من أن أطرد، فارتعدت فرائصى من شدة الاضطراب.

فالتفت إلى صاحب الدار.

"لا، استمع وما يعنيك هذا أيها الشيطان؟ أرجو أن تمسك عليك لسانك، وافعل ما أشير عليك به، فإنه خير لك".

وعندئذ رفعت المرأة صوتها، فرن صراخها فى أنحاء البيت.

"كان الله فى عونى، أعتقد أن كليكما مخبول مفتون، إذا شئتما البقاء هنا فاسلكا طريق الهدوء، هذا ما أقوله لكما! أولا يكفى الواحد أن يعطى الأشرار مأوى ومطعماً - لا، بل لابد لهم أن يقيموا هنا فى الغرفة حومة للوغى، وأعمالاً شيطانية، وينصبوا الميزان! ولكنى أحرم هذا! امسكا عليكما لسانيكما أيها الخبيثان، وامسحا على فميكما، وإلا جئت بنفسى وقمت به، لم أر شيئاً فى حياتى مثل هذا بين الناس! يفران من الشوارع إلينا، وليس معهما ولا فلس واحد ثمن دواء لقملهما، ثم يعجون فى ساعات النوم فى بيوت الناس، لا أريد أن أرى شيئاً من هذا، أسمعتما؟ ولتعملا معا على مغادرة المكان، إن من حقى أن أنشد سلاماً فى دارى!".

فلم أقل شيئاً، ولا عالجت فتح فمى، بل أخذت مجلسى عند الباب وأصغيت لهذه الضجة، وعلا صراخ الجميع، حتى الطفلتين والخادمة، يريد كل أن يوضح كيف بدأ هذا النزاع، مؤكد لو أمكننى أن أضبط نفسى فلابد أن ينتهى الأمر عند هذا الحد، ولن تتحرج الأمور إذا أنا لم ألفظ بلفظ واحد، وليت شعرى أى لفظ كان يجب على أن أقوله؟ ألم يكن شتاء فى الخارج؟ وفوق ذلك فقد أسدل الليل ستاره؟ ترى أهذا هو الوقت المناسب لأضرب بيدى على المائدة، ولأحتج بشدة؟ كل شئ إلا هذه السخافة! وبقيت مكانى ساكناً. ولم أغادر الدار، ولا استحييت من البقاء، لا ولا احمر وجهى لحظة واحدة من الخجل، برغم إنذارى، فى الواقع، فحدقت غاضباً فى الحائط، حيث توجد صورة للمسيح، وصممت على السكوت على سفالات صاحبة الدار.

فقال أحد لاعبى الورق: "إى نعم، إذا كنتى تريدين التخلص منى أيتها السيدة، فليس هناك ما يحول دون ذلك".

ونهض واقفاً، وتبعه الآخر.

فأجابتهما صاحبة الدار: "لا، لا أقصدك أنت، ولا أعنيك أنت الآخر كذلك، وإذا كان لابد من معرفة من أعنى! فسأريكما من هو هذا الذى.....".

وكانت تتكلم بطريقة متقطعة، فوخزتنى بهذه الوخزات على دفعات، استرسلت فى ذلك، كى تعرفنى فى صراحة أنها تعنينى، فقلت فى نفسى:

هدوء! فقط هدوء! إنها لم تطلب إلىّ فى صراحة ولا بعبارات جلية أن أغادر الدار، كل شئ إلا الكبرياء، كل شئ إلا العظمة السخيفة التى لا محل لها هنا! ولأحتفظ بشجاعتى!... ما أبدع شعر المسيح الأخضر، الذى أراه فى الصورة! إن شعره الأخضر لا يكاد يفترق عن الحشيش، لا بل يشبهه تمامًا، يشبه هذا المحش (المرعى الكثير الحشيش). ها! ملاحظة، ها! ملاحظة فى غاية الدقة المحش.... وتواردت على فى هذه اللحظة سلسة من الخواطر، أو تداعى الأفكار الساذجة، فمن المحش الأخضر إلى موضع فى التوراة، وذلك أن الحياة كلها منذ نشأتها الأولى إلى يوم الدين أشبه بالحشيش الذى يأخذ فى الجفاف، ومن هذا الموضع إلى يوم الدين الذى سيحترق فيه كل شئ، ثم انتقلت إلى زلزال (لشبونة)، وأخيرًا ترجحت أمامى مبصقة من النحاس وريشة من خشب الأبنوس، كنت رأيتها عند (يلايالى) آه نعم، كل شئ للفناء! مثله مثل الحشيش الذى يأخذ فى الجفاف! وسيخرج الكل محملين على أربعة ألواح، مدثرين فى أكفان - أكفان الموتى عن الفتاة (أندرسن) على يمين الداخل....

كل هذا دار فى رأسى فى ساعة يأسى، بينما كانت صاحبة الدار على وشك مطاردتى من الدار.

وصاحت بى: "إنه لا يسمع! أنا أقول لك: غادر الدار! لعلك فهمت الآن! أظنك فهمت، وليتولنى الشيطان إن لم يكن صاحبنا هذا مخبولًا! تهيأ للانصراف - وبذلك ينتهى الأمر!".

فنظرت إلى الباب لا لأنصرف، كلا، فقد دار فى خلدى خاطر جديد: أن أدير المفتاح فى القفل، فأغلق الباب على وعلى الآخرين، حتى لا أكره على الخروج، فقد تولانى رعب عصبى من أن يلقى بى مرة أخرى فى الحارة، ولكن المفتاح لم يكن بالباب، فنهضت واقفًا، لا رجاء بعد!.

وفجأة تخلل صوت صاحب الدار صراخ المرأة، فبقيت مكانى مندهشًا، فالرجل عينه الذى سبق أن أنذرنى يقف الآن فى جانبى ويقول:

"لا، هذا لن يكون ليس فى قوة أحد أن يطارد الناس ليلًا من الدور، هذا معاقب عليه".

ولم أكن أدرى أكان هذا الأمر معاقبًا عليه، ولم أقو على التلفظ بذلك، ولكن ربما كان الأمر كذا، فقد عادت المرأة إلى صوابها، وهدأ ثائرها ولم تقل شيئًا بعد ذلك، بل قدمت لى قطعتين من الخبز مع الزبد لآكلهما، ولكنى لم أتناول منهما شيئًا، شكرًا خالصًا منى للرجل، وادعيت إنى اضطررت لتناول شئ بسيط من الطعام فى المدينة.

وأخيرًا لما بلغت الرواق، لأذهب للفراش، جاءت هذه المرأة خلفى، ووقفت على عتبة الباب، وقالت بصوت مرتفع، وقد انتفخ بطنها من الحمل، وتكورت أمامى:

"ولكن هذه الليلة هى الأخيرة التى تنام فيها هنا، افهم هذا".

فأجبتها: "نعم، نعم!".

وغدًا إذا أنا بذلت مجهودًا صادقًا، فسأجد لى طريقًا إلى مأوى، ولابد أن أجد لى مخبأ من المخابئ، فى أى مكان، وقد سرنى فى تلك الساعة أنى لم أعد محتاجًا لقضاء تلك الليلة فى الخارج.

ونمت حتى الساعة الخامسة أو السادسة صباحًا، ولما تيقظت من نومى لم يكن الصباح قد تنفس، ولكنى نهضت على الرغم من ذلك، واتقاءً للبرد كنت قد رقدت فى فراشى بكامل لباسى، فلم أحتج الآن لارتدائه، وبعد أن شربت قليلًا من الماء فتحت الباب بخفة، وانصرفت، فقد كنت أخشى أن ألقى صاحبة الدار مرة أخرى.

وكان بعض الشرطة الذين يعملون ليلاهم الوحيدين من الأحياء الذين قابلتهم فى الطريق، وبعد قليل جاء رجلان، وأخذا يطفئان مصابيح الغاز فى كل مكان.

وأخذت أتنقل بدون قصد أو غاية، فبلغت شارع كركا (Kirkegade) ثم سرت إلى القلعة، وكنت جائعًا مقرورًا، يغالبنى النوم وأغالبه، فأخذت طريقًا نائيًا برغم ضعف ركبتى وظهرى، ثم جلست على أحد المقاعد وسرحت أفكارى بعيدًا، هأنذا الآن أعيش منذ ثلاثة أسابيع على الخبز والزبد الذى تقدمه لى صاحبة الدار صباحًا ومساءً، وقد مضى على الآن 24 ساعة كاملة منذ هنئت بآخر طعام، وها هو الجوع

عاد يعضنى بقسوة، فلا بد لى أن أجد طريقًا للنجاة بأسرع ما يمكن، وعلى هذه الأفكار غلبنى النوم مرة أخرى، وأنا على مقعدى.

ونبهنى من نومى لغط جمع من الناس كانوا على مقربة منى، ولما عدت إلى وعيى رأيت النهار قد انبلج، والناس قائمين على قدم وساق.

فنهضت من مكانى ومضيت فى طريقى، وعلت الشمس التل، وكانت السماء بيضاء رقيقة الأديم، فنسيت كل أحزانى، اغتباطًا بهذا الصباح الصافى، بعد هذه الأسابيع الطويلة الغائمة، وبدا لى أن حالى كانت فى كثير من الأحوال أسوأ بكثير مما هى عليه الآن، فدققت على صدرى، وأخذت لحنًا بصوت منخفض، فكان لصوتى رنين عليل، كما كان فى غاية الضعف، وأثر فى نفسى هذا اليوم العظيم، وهذه السماء البيضاء المشعة بالنور أثرًا هائلًا، فأخذت أجهش بالبكاء.

فسألنى أحد الناس: "ما بك؟".

فلم أجبه، وأسرعت بالانصراف، وأخفيت وجهى عن الناس جميعًا، وبلغت رصيف الميناء حيث تقف سفينة شراعية، عليها علم روسى، تفرغ فحمًا، فقرأت على أحد جوانبها اسم كوبيجورو (Cobegoro) وتشردت أفكارى مدة طويلة، فلم ألحظ ما هو جار فوق ظهر هذه السفينة الأجنبية، ولابد أن تكون على وشك تفريغ حمولتها، فقد كانت ترتفع عن الماء تسعة أقدام، برغم ما وسق عليها، وكان لأحدية حمالى الفحم الثقيلة على ظهر السفينة صوت أجوف يرن فى السفينة كلها.

فالشمس والضوء وأنفاس البحر المالحة، والحياة الممتلئة بالعمل والمرح - كل هذا أمدنى بقوة، وجعل الدم ينبض فى من جديد، فخطر لى فجأة فى أثناء جلوسى، أنى ربما استطعت أن أكتب بعض مناظر فى روايتى وعلى ذلك سحبت الورق من جيبى.

وحاولت تكوين محاورة على لسان أحد الرهبان، تفيض قوة وتعصبًا - ولكنى لم أوفق، فتخطيت الراهب، وأردت أن أنظم خطاب القاضى عن منتهكة حرمة الهيكل، فكتبت فى هذا الخطاب نصف صفحة فقط، ثم توقفت بعد ذلك، ولم يشأ المزاج الطيب أن يكسو ألفاظه حلة، فالحركة

القائمة حولى، وغناء الملاحين، وضجيج الآلات، وقعقعة السلاسل الحديدية المتواصلة لم تتناسب إلا قليلًا مع جوّ العصور الوسطى المظلم العفن الذى كان فى روايتى أشبه بضبابة، فجمعت أوراقى وانصرفت.

لو أن لى الآن مأوى آوى إليه! فكرت وأنعمت النظر، ولكن لم يخطر لى ولا بقعة صغيرة فى المدينة أتمكن فيها من الإقامة ولو ساعة قصيرة، فلم يبق أمامى إلا العودة إلى الفندق، فى شارع (فاترلاند) فثنيت عند التفكير فى هذا، وصرت أقول إن هذا لن يكون. ولكنى مع ذلك جددت فى السير، حتى اقتربت من المحلة الحرام، ولقد كان بالطبع شيئًا إذا سلمت بأنه سبة، سبة بحق، ولكن كل هذا لم يفد، فلم يبق لدى ذرة من الكرامة، وحق لى أن أقول تلك الجملة الكبيرة: إنى أقل الناس كرامة فى زماننا! ومضيت.

ولكنى كنت فى ذلك الوقت فرحًا لأخذى هذا الطريق، فمما لا شك فيه أن سيكون فى طاقتى أن أصلح ما فسد، متى صلحت أحوالى.

وبقيت واقفًا أمام باب البيت أفكر فى الأمر مرة أخرى، نعم ليكن ما يكون، فلا مفر من المجازفة، إن المسألة كلها تدور حول أمر تافه، أولًا مسألة بضع ساعات فقط، وثانيًا، أنى، لا قدر الله، لن أتخذ سكنى مرة أخرى، فى هذه الدار، ودخلت صحن الدار، ولم أكن قد قطعت فى الأمر وأنا أسير على الحجارة الخشنة فى وسط الفناء، وكنت على وشك العودة من عند الباب، فعضضت على أسنانى، لا، كل شئ الآن إلا الكرامة التى لا محل لها هنا! وإذا افترضنا الفروض كلها، فعذرى أنى جئت لأقول لهم وداعًا، لأستودعهم بصدق، ولأتفق معهم بشأن ديونى، وفتحت الباب المؤدى إلى الرواق.

وبقيت واقفًا بدون حراك، فرأيت على بعد خطوتين منى صاحب الدار نفسه بدون سترة، ولا قبعة، وهو يطل من ثقب القفل فى غرفة الأسرة، فأشار لى بيده إشارة خفية لأبقى ساكنًا، وظل يطل من ثقب الباب ، ثم أخذ يضحك.

وهمس إلى قائلًا: "تعال إلى"، فاقتربت منه ماشيًا على أطراف قدمى.

فقال وهو يضحك ضحكات مضطربة مكبوتة: "انظر! انظر هناك! هيهى! يرقدان هناك! هل رأيت العجوز، ألم تره؟ أتستطيع أن ترى العجوز".

فى داخل السرير، وتحت صورة المسيح، وعلى مقربة منه، وقبالتى تمامًا رأيت صورتين، صاحبة الدار والملاح الأجنبى، وكانت ساقاها تشعان بياضًا بالنسبة لسمرة غطاء الفراش القطنى، وقد جلس أبوها على السرير عند الحائط المقابل، ذلك الشيخ المقعد ينظر إلى كليهما ورأسه مدلى، عليه آثار التحطيم كالعادة، وهو لا يستطيع حراكًا....

والتفت إلى صاحب الدار وقد بذل كل جهده حتى لا يعلو ضحكه.

وهمس قائلًا: "أرأيت العجوز؟ يالله! هل رأيت العجوز؟ يجلس فى السرير ينظر إليهما!، ثم عاد فانحنى على ثقب القفل.

فسرت من أمامه إلى النافذة، وجلست هناك، وقد شوش هذا المنظر كل أفكارى أشنع تشويش، ونسف مزاجى الفنى، ولكن ماذا يعنينى من الأمر، مادام بعلها راضيًا عن ذلك، بل إنه ليجد فيه فكاهة له، فالحق أنى لا أجد لى سببًا لاستبشاعه، وأما الشيخ فكذا كان الشيخ شيخًا، وربما لم ير شيئًا البتة، وقد يكون نائمًا، والله وحده يعلم أكان ميتًا؛ وليس لى أن أعجب إذا كان قد مات، وعلى أية حال فأنا لست مسؤولًا عنها.

وتناولت أوراقى ثانية فى يدى، وأردت أن أطرد عنّى كل الآثار الطارئة، فتوقفت فى وسط جملة من خطاب القاضى: "هكذا يأمرنى الله والقانون، هكذا يأمرنى قرار رجالى الحصفاء، هكذا يأمرنى ويأمر ضميرى...." فأطللت من النافذة كى أعمل فكرى فيما أمره به ضميره فنفذ إلى حسيس من الغرفة المجاورة، ولكن هذا لم يعننى، لم يعننى البتة، الهدوء! الهدوء!

هكذا أمرنى وأمر ضميرى.

ولكن كل شئ بدأ كأنة قد تآمر على، فقد وقف الرجل عند ثقب القفل، غير قادر على ضبط نفسه، فكنت أسمع بين وقت وآخر ضحكاته المكبوتة، وأراه يرتعد، وحدث فى الشارع كذلك ما أذهلنى، فعلى

الرصيف المقابل جلس طفل فى ضوء الشمس يلعب غير مفكر فى سوء، كان يعقد قصاصات مستطيلة من الورق إلى بعضها، ولم يؤذ بها أحداً، وبغتة هب واقفًا وهو يسب، وخطا فى الطريق إلى الوراء، فرأى رجلًا، رجلًا كبيراً ذا لحية حمراء، بصق على رأسه من نافذته فى الطبقة الثانية، وبكى الصغير من الغضب، وأخذ يرسل بسبابه إلى النافذة عجزًا منه، بينما كان الرجل يضحك فى وجهه، وعلى هذا النحو انقضى نحو خمس دقائق، فتحولت عن النافذة، حتى لا أرى دموع الصبى.

"هكذا يأمرنى ويأمر ضميرى....".

واستحال استئناف الكتابة، وأخيراً أخذ كل شئ يختلط على، وبدا لى أن كل ما كتبته لا يصلح لشئ، نعم، كأن الفكرة كلها كانت جنونًا مطبقًا، ففى العصور الوسطى لم يكن يستطيع أحد أن يتكلم بالمرة عن الضمير، وأول من اكتشف الضمير هو شكسبير معلم الرقص، وعلى ذلك فإن الخطاب كله خطأ، أعنى ألا تشتمل هذه الأوراق على شئ جيد، فقلبت فيها من جديد، فعادت شكوكى تتبدد، فقد عثرت فيها على مواقف عظيمة، قطع مطولة ذات قيمة كبيرة، ثم أحسست نشوة فى صدرى، وابتدأت العمل مرة أخرى، لأنجز روايتى.

فنهضت وسرت إلى الباب بدون أن أهتم لإشارة صاحب الدار الخرقاء، التى يقصد بها أن أبقى هادئًا، وسرت بعزيمة ثابتة فى الرواق، وصعدت فى السلم إلى الطبقة الثانية، وولجت غرفتى القديمة، ولم يكن الملاح فيها، فقد كان عند المرأة فى غرفة الأسرة؛ وعليه فما الذى يحول بينى وبين الجلوس هنا لحظة؟ لن أمس أمتعته، لا، بل حتى المائدة فلن أستخدمها، فقط سأجلس على الكرسى بجوار الباب، راضيًا بذلك كل الرضا، ونشرت فى عجلة الأوراق على حجرى.

وسارت الأمور على أحسن ما يرام بضع دقائق، وقامت فى رأسى محاورة بعد محاورة، فكنت أكتب بدون انقطاع، وملأت صحيفة بعد الأخرى، وأخذت أتنقل من فكرة إلى فكرة، وأدندن من فرط الجذل لاعتدال مزاجى، حتى كنت أنسى نفسى، فلم أكن لأسمع فى تلك اللحظة سوى صوت دندنتى، وخطرت لى فكرة طيبة عن جرس الكنيسة،

فأجعل دقاته تسمع عند نقطة خاصة من روايتى، فسيكون لذلك وقع عظيم.

فأسمع خطوات فى السلم، فأترجح وأوشك ألا أتمالك نفسى، فأجلس استعداداً للتحفز خجلاً متيقظاً، وقد امتلأت نفسى خوفاً وثارت ثائرتى من الجوع، وأنصت فى حالة عصبية، وأمسك فى يدى قلمى الرصاص فى سكون، وأرهف الأذن عاجزاً عن كتابة كلمة أخرى، وينفتح الباب، ويدخل الاثنان آتيين من الغرفة.

وقبل أن أجد متسعاً من الوقت لأعتذر عن صنيعى تصرخ صاحبة الدار كصاعقة نزلت من السماء.

"لا، ليقف الله إلى جانبى، ها هو قد عاد إلى الجلوس هنا!".

فقلت وكان بودى أن أقول كثيراً، ولكن القول لم يسعفنى: "أرجو معذرة!".

ففتحت صاحبة الدار الباب على مصراعيه، وصرخت:

"إذا أنت لم تذهب فى الحال، فليتولّنى الشيطان إن أنا لم أرسل إلى الشرطة فى طلبك!".

فنهضت واقفاً.

وتمتمت: "إنما أردت أن أقول لك أستودعك الله، ولذا اضطررت لانتظارك، ولم أمس شيئاً، وجلست هنا فقط فوق الكرسى.....".

فقال الملاح: "لا بأس، ياللشيطان! وماذا يهم هذا؟ دعى الرجل بالله!".

وثارت ثائرتى وأنا أنزل فى السلم ضد هذه المرأة الوقحة السمينة، التى تبعتنى على أعقابى، لكى تبعدنى بأسرع ما يمكن. فوقفت لحظة ساكناً، وعلى شفتى أشنع ألفاظ السباب ولكنى فكرت وصمت، حتى لا يسمعها ذلك الرجل الغريب، الذى جاء خلفها، صمت فقط من باب التشكر له، وبقيت تتعقبنى المرأة مواصلة السباب، بينما كان غضبى يشتد مع كل خطوة أخطوها.

وبلغنا الفناء، فسرت متباطئًا، وأنا لا أزال أفكر: هل أكيل لصاحبة الدار بكيلها؟ فقد جن جنونى فى تلك اللحظة، وكنت أفكر فى جريمة سفك الدم الفظيعة، أفكر فى صدمها فى بطنها صدمة تجعلها تتمدد ميتة لساعتها. ومر بى أحد السعاة عند الباب، وحيانى فلم أحيه، فقصد المرأة من خلفى، فسمعته يسأل عنى، فلم ألتفت ورائى على الرغم من ذلك.

فيلحق بى الساعى بعد خطوتين من الباب، ويحيينى ويخاطبنى، ثم يعطينى كتابًا، فأنفض غلافه بتلهف، وعن غير قصد، فيسقط منه ورقة مالية بعشرة ريالات، ولا خطاب، ولا كلمة واحدة.

فأنظر إلى الرجل وأقول:

"ما هذه السخافات؟ ممكن يكون هذا الخطاب"؟.

فيجيبنى: "لا أدرى، أعطتنى إياه إحدى السيدات".

فأقف ساكنًا فى مكانى، وينصرف الرجل، فأضع الورقة المالية ثانية فى الغلاف، وأقبضهما معًا بشدة، فأدخل على صاحبة الدار، التى كانت لا تفتأ تنظر إلىّ، فألقى بالورقة فى وجهها، ولا أزيد على ذلك شيئًا. لم أتلفظ بحرف واحد، ولاحظتها تفحص الورقة المقبضة قبل انصرافى.

ها، هذا هو مسلك الشرف فى الحياة الدنيا! لا كلام ولا حديث مع حثالة الناس، بل إلقاء الورقة المالية العظيمة مقبضة فى وجوه الملحين بكل هدوء. هذا هو الظهور بمظهر الكرامة! وكذا يلزم أن يعامل هؤلاء الوحوش!

ولما وصلت إلى ناصية شارع (طومتا) وميدان محطة سكة الحديد دار بى الطريق فجأة عدة دورات، فترنحت بقرب جدار إحدى الدور، ولم يعد فى طاقتى استئناف السير على أية حال، لا ولا أن أعود فأنصب قامتى بعد انحنائها، فبقيت فى مكانى واقفًا، وأخذت أحس كيف أغيب عن رشدى، فاشتدت ثورة غضبى، لنوبة الضعف هذه، فرفعت قدمى، وضربت بهما على الرصيف، وأتيت بأشياء أخرى مختلفة، لأسترجع قواى، وعضضت على أسنانى، وقطبت حاجبى، وقلبت عينى - فساعدنى ذلك، وصفا ذهنى، فأدركت أن هذا هو بداية السقوط، فمددت يدى، ودفعت بهما نفسى عن

الحائط، والشارع لا يزال يدور بى، وطفقت أبلع ريقى من الحنق، وأجاهد من صميم قلبى ضد تعسى، ووقفت موقف الشجاعة، حتى لا أزل عن موقفى، فلم أشأ أن أخر على الأرض صريعًا، بل أردت أن ألفظ النفس الأخير واقفًا. ومرت بى عربة تسير ببطء، فإذا هى محملة ببطاطس، فخطر لى من شدة الحنق، ولمجرد المشاكسة أن أقول: إن ما عليها ليس ببطاطس، ولكنه رؤوس كرنب، وأخذت ألعن وأسب، هذه رؤوس كرنب. وسمعت مقالى، وظللت أحلف على عدم صدق هذه العربة، لأشفى غليلًا فى نفسى، بارتكاب إثم اليمين الكاذبة. وأحسست بنشوة، لإتيانى هذا الذنب الذى لا مثيل له، فرفعت ثلاثة أصابع، وأقسمت بشفتين مضطربتين أنها رءوس كرنب.

وانقضى وقت، وتسللت إلى درجة أحد السلالم، وجففت العرق من جبينى وجيدى، وأمسكت نفسى، واضطررت نفسى للهدوء. ومالت الشمس للمغيب، وكان الوقت عصرًا، وابتدأت من جديد أفكر فى موقفى. وأخذ الجوع يعضنى، وبعد ساعتين أقبل الظلام، فحق على التفكير ما بقى هناك وقت. وجاءت أفكارى حول النزل الذى طردت منه، ولم تكن لدى أية رغبة فى العودة إليه، ولكنى لم أقو على الامتناع عن التفكير فيه، والواقع أنه كان من حق المرأة أن تطردنى منه، وكيف يحق لى أن أنتظر السكن عند بعض الناس، إذا أنا لم أدفع لهم الكراء؟ وقد أعطتنى فوق ذلك من وقت لآخر طعامًا، وحتى ليلة أمس بعد أن أغضبتها قدمت لى خبزًا بزبد، وقدمته عن طيب خاطر، لأنها عرفت حاجتى إلى الطعام، وعليه لا أرى لى حق فى الشكوى، وابتدأت أسألها الاعتذار عن مسلكى فى هدوء، وندمت على الأخص مر الندم، أنى أظهرت فى النهاية كفرى لأياديها على، وإلقائى بالورقة المالية ذات العشرة ريالات فى وجهها.

الورقة المالية ذات العشرة ريالات! وصفرت تصفيرة ضعيفة، من أين جاء هذا الخطاب الذى أتى به الرسول؟ ولم أفكر فيه تفكيرًا جليًا إلا فى هذه اللحظة، وذكرت فجأة كل مناسباته، فمرضت من الألم والخجل، وهمست عدة مرات بصوت أجش "يلايالى" أولم أفكر أمس فقط فى أن أمر عليها فى خيلاء إذا هى لقيتنى، وأريها أقصى ما يكون من عدم الاكتراث بها؟ ولكن عوضًا عن ذلك أيقظت شفقتها، واستدررت إحسانها.

لا، لا، انحطاطى لم يعد يعرف له حداً، فإنى لم أستطع ولا مرة واحدة أن أقف منها موقفاً مشرفاً لقد انحدرت أيان وأين وليت وجهى، انحدرت إلى ركبتى، إلى صدرى، وهبطت إلى قرارة السفالات، ولن أخرج منها، لا علو بعد ذلك؟ فهذه هى النهاية التى ليس بعدها نهاية! قبول عشرة ريالات كصدقة، العجز عن ردها لمعطيها المتستر بصفة نقود حقيرة، لم لا يقبض عليها باليدين، مهما يكن مصدرها، فيحتفظ بها، ويدفع منها كراء السكن، برغم كل معارضة داخلية.....

ترى هل فى المقدور أن أجمع مرة أخرى هذه العشرة ريالات بأية وسيلة؟ وأن أذهب إلى صاحبة الدار وأطلب منها ردها - لا أظن هذا يجدى.

ولكن لابد لى من وجود حل آخر، لو أنى فكرت فى الأمر وأجهدت نفسى بحق فى التفكير. وأقسم بالله أن التفكير العادى فى مثل هذا الموقف لا يكفى، فلابد لى أن أعصر ذهنى، حتى أجهد شخصى، لأجمع ثانية العشرة ريالات، وعلى ذلك عدت، فأخذت مجلسى، لأتدبر فى الأمر.

الساعة الآن حوالى الرابعة، ولقد كان فى الإمكان مقابلة مدير المسرح بعد ساعتين، لو فرغت من كتابة روايته، فأسحب الأصول، وأحاول بكل ما فى من قوة الفراغ من كتابة الفصول الثلاثة الباقية. وأفكر وأتصبب عرقاً، وأقرأ ما كتبته مرة أخرى من البداية، ولكنى لا أتقدم خطوة، كل شئ إلا السخافات! أنا أقول كل شئ إلا الجمود! وأندفع فى الكتابة، فأسجل كل شئ يمر بخاطرى، لكى أنتهى منها بسرعة، ولأتقدم خطوة فى تحريرى. وأردت أن أقنع نفسى أن ساعتى العظيمة قد دقت، فأخذت أكذب عليها وأخدعها علناً. استرسلت فى الكتابة كما لو لم أكن فى حاجة للبحث عن ألفاظ للكتابة، وكنت أهمس فى نفسى من وقت لآخر. هذا حسن! إن هذا للقية! سأكتب هذا فى هذا روايتى!

وأخيراً بدت لى محاورات الرواية مطعوناً فيها، فقد كانت شديدة التناقض مع محاورات الفصل الأول. وعدا ذلك فلم يكن فى عبارات الراهب شئ بالمرة من عبارات العصور الوسطى، فأعض على قلمى الرصاص، وأثب فى الهواء، وأمزق "الأصول" إلى قطعتين. وأقطع كل

ورقة على حدة، وألقى بقبعتى فى الطريق، وأدوسها، لقد ضعت! ولا أكرر غير هذه الجملة، وأنا واقف أدوسها بقدمى.

وقد وقف على بضعة خطوات منى يرقبنى، وقف وسط الطريق لا ينظر إلا إلىّ، ولما رفعت نظرى تلاقى النظران، وربما طال وقوفه هناك وهو يلحظنى بنظره، فآخذ قبعتى ثانية وأقصده.

فأسأله: "هل تقدر أن تقول لى كم الساعة الآن؟".

فيتردد لحظة قبل أن يخرج ساعته، ولا يفارقنى بِنظره.

فيقول: "حوالى الرابعة".

فأقول له: "بالضبط حوالى الرابعة، هذا حق، إنك تحذق أمورك كما أرى، وسأذكرك".

وعلى ذلك سرت وبقى مكانه، بعد أن أخذت منه الدهشة مأخذها، ونظر إلى فاغرًا فمه، وهو لا يزال ممسكًا الساعة فى يده، ولما بلغت (الرويال) التفت ورائى، وأخذت أتطلع، فرأيته لا يزال واقفًا فى مكانه ينظر إلى.

ها، ها، هكذا يلزم الواحد أن يُعامل هؤلاء الوحوش! بقحة لا مثيل لها! إن هذا مما يؤثر فى الوحوش ويرعبهم.... وكنت مغتبطًا من نفسى، وأخذت أغنى لحنًا، وقد نهكت أعصابى من شدة الاضطراب، ولم أكن أحس ألمًا ولا قلقًا، فكنت أمشى بخفة الريشة فى كل الميادين، فقطعت السوق القائم على الناصية. ثم أخذت مجلسى عند كنيسة المخلص.

وكاد يستوى عندى إعادة العشرة ريالات وعدم ردها! ولو وقعت فى يدى فهى من نصيبى، ولا حاجة إليها فى المكان الذى جاءت منه. وكان على أن أقبلها، فقد أرسلت إلى مع الإلحاح، وإلا فلا معنى لإرسالها مع ساع؛ وإن الحاجة إلى إعادة ورقة مالية أخرى كاملة من فئة العشرة ريالات لأقل من الحاجة للحصول عليها. وعليه فليس فى الأمر ما يستحقه التفكير.

وعالجت مراقبة الزحام القائم أمامى فى الميدان، وشغل ذهنى بأمور تافهة. ولكنى لم أوفق، واضطررت أن أفكر على الدوام فى العشرة ريالات. وأخيراً كورت يدى، وثار غضبى، أنا أقول لك إنك ستجرح عواطفها، إذا أنا أرسلتها إليها مرة ثانية، ولماذا أصنع هذا؟ حسبتنى أهلاً للفضيلة، فهززت رأسى قائلاً: لا، عفواً! والآن هأنذا أرى نتيجة ذلك - هأنذا مرة أخرى فى العراء. أما وقد كنت سبب كل ذلك، فقد فقدت مسكنى الطيب الدافئ. كنت متعجرفاً، وثبت فى الهواء لأول كلمة، ونثرت العشرة ريالات ذات اليمين وذات الشمال، ومضيت فى طريقى لا ألوى على شئ... وطفقت أحاسب نفسى حساباً عسيراً، على مغادرتى المسكن، وإحراج نفسى مرة أخرى.

ومهما يكن فإلى الشيطان كل هذا! فأنا ما سألت أحداً نقوداً، وندر أن بقى فى يدى نقود مرة من المرات، فإنى كنت أعطيها فى الحال للآخرين، أدفعها لأناس غرباء عنى، لا أتوقع أن أراهم فى حياتى، بلى، أنا هو ذا الرجل، أعطى دائماً آخر فلس متى استلزم الأمر، ولو عرفت ذلك (يلايالى) حق المعرفة، لما ندمت هى الأخرى على إرسالها لى هذه النقود، فلماذا يا ترى أعذب نفسى كل هذا العذاب؟ وهذا أقل ما كان يجب عليها عمله - أن ترسل لى من وقت لآخر بشعرة ريالات. إن هذه الفتاة المسكينة قد افتتنت بى... وأفرطت فى الزهو بمثل هذه الأفكار لا ريب أن الفتاة المسكينة قد فتنت بى!....

وكانت الساعة الخامسة فغشى على مرة أخرى، بعد اضطراب عصبى طويل، وشعرت من جديد بطنين ضعيف فى رأسى، فنظرت أمامى، وظللت فاتحاً عينى، محدقاً هناك فى صيدلية الفيل، وعضنى الجوع، فعانيت منه آلاماً شديدة، وبينما أنا أنظر كذا فى الفضاء، إذ بدت لى صورة واضحة أما باصرتى، وانتهى بى الأمر أن تحققت منها وتعرفتها، فإذا هى بائعة الفطير قرب صيدلية الفيل.

فانتفضت، ونصبت قامتى، وأخذت أعمل فكرى. إنها لحقيقة، فالمرأة نفسها خلف المائدة نفسها، فى المكان نفسه، فأصفر عدة مرات، وأفقع أصابعى، ثم أنهض وأسير إلى الصيدلية فى الجهة المقابلة. كل شئ إلا

الهزل! وماذا يهمنى أكان مالًا حرامًا أم مال بدال نرويجى حلالًا من فضة (كينجزبرج)! لا أريد أن أكون هزأة، فقد يموت الواحد من الإفراط فى الزهو...

فأسير إلى الناصية، وأنظر إلى المرأة، وأقف أمامها وأبتسم، ثم أنحنى كما هى العادة، وأوجه لها الكلام، كما لو كانت عودتى إليها فى أحد الأيام أمرًا طبيعيًا...

فأقول لها: "نهارك سعيد. أولا تعرفيننى بعد؟".

فقالت ببطء وهى تنظر لى: "لا".

فأزداد تبسمًا، كما لو كان عدم تعرفها على مزاحًا مستملحًا، وأقول: "أولا تذكرين أنى أعطيتك مرة من المرات بضعة ريالات؟ وعلى ما أذكر لم أقل لك يومئذ شيئًا، فإنى لم أتعود ذلك. وما دام الإنسان يتعامل مع أشراف الناس فلا حاجة للارتباط معهم، أو بعبارة أخرى للتعاقد على كل تافهة. ها، ها! نعم أنا هو ذا الذى أعطاك فى ذلك الوقت ذلك المال الوفير".

"كلا، أحقًا أنت! بلى، الآن أعود فأتعرفك بعد أن استجمعت ذاكرتى...".

وأردت أن أحول بينها وبين التشكر لى على هذه النقود، فقلت لها فى عجلة، وأنا أقلب النظر فى الأطعمة التى على المائدة:

"أنا آت الساعة لآخذ الفطائر".

فلم تع هذا.

فأعدت عليها: "الفطائر أريد الآن أخذها". قلت لها ذلك، وأنا أقهقه، كما لو كان عليها أن تدرك فى الحال رغبتى فى أخذ الفطائر. وأخذت بالفعل قطعة فطير من المائدة من نوع (الفرانزبروت) وقضمتها.

وما كادت ترى المرأة ذلك حتى انتصبت فى جحرها واقفة، وأتت بحركة آلية، كى تحمى بضاعتها، ولتفهمنى أنها لم تكن تتوقع عودتى لسلبها.

لا، حقًا لا، إنها امرأة مليحة بحق! أتراها رأت فى حياتها إنسانًا يضع عند بعضهم بعض الريالات كأمانة، ولا يعود لاستردادها؟ لا - وعليه أرأيت! أو لعلها تعتقد أنه مال مسروق، لمجرد إعطائه إياها على هذه الصورة؟ وهذا أيضًا ما لا تعتقده. لقد كان مالًا حلالًا، حلالًا بحق! وإذا سمحت لى بالتعبير عما فى نفسى، فإنه للطف منها أن تعدنى مع كل ذلك رجلًا شريفًا. ها، ها! إى نعم، إنها امرأة مليحة بحق!

ولماذا إذا أعطيتها هذه النقود؟ فتثور ثائرة المرأة، وتصرخ بصوت عال.

فبينت لها سبب إعطائى إياها النقود بهدوء وتوكيد، تلك هى طريقتى فى معاملة الناس، لأنى أعتقد فيهم الطيبة. وكنت دائمًا إذا قدم لى بعضهم عقدًا أهز رأسى وأقول: "لا، أشكرك". وأقسم لك بالله على ذلك!

ولكن المرأة لم تدرك ذلك بعد.

فلجأت إلى وسيلة أخرى، فتكلمت فى شدة، وأبيت على نفسى كل هزل، وسألتها: هل كان قد حدث لها أن أحدهم دفع لها عربونًا على هذه الصورة؟ وبالطبع أعنى سراة الناس، كبعض القناصل، على سبيل التمثيل، أبدًا؟ بلى، وإذا كان هذا النوع من التصرف بالنسبة إليها أمرًا جديدًا، فليس فى طاقتى أن أعوضها عنه. فهذا أمر طبيعى ومألوف فى خارج البلاد، وأظنها لم تتخط الحدود فى حياتها؟ لا. وعليه، أرأيت! إذن ليس فى مقدورك أن تتحدثى معى فى هذه الشؤون... وعلى ذلك أتناول عدة فطائر من على المائدة.

فزمجرت المرأة غاضبة، ورفضت بشدة أن تعطينى شيئًا مما على المائدة، بل اختطفت قطعة من الفطيرة التى فى يدى، وأعادتها إلى مكانها، فثارت ثائرتى، وضربت على المائدة بيدى، وهددتها بالشرطة، وقلت لها: "سأصفح عنها إذا أنا استوفيت كل حقى، وإلا سأقضى على دكانتها القضاء المبرم، فقد سبق أن أعطيتها مبلغًا كبيرًا من النقود، ومع ذلك فلن أطمع فى شئ كثير، سأكتفى بنصف القيمة. وعدا ذلك فلن أعود إليها فيما بعد، وأعوذ بالله أن أعود بعد أن رأيت فيها ذلك الشخص...

وأخيراً قدمت لى بعض الفطائر، خمس ست قطع، قدرتها بثمن باهظ، لا يخطر إلا ببالها، ثم أمرتنى بالانصراف، فظللت أنازعها، مدعيًا أنها خدعتنى فى ريال؛ وأنها بأسعارها الفاحشة قد امتصت دمى، وقلت لها: "أتعرفين أنه توجد عقوبة على مثل هذه الجريمة؟ ليكن الله فى عونك، فلقد كان من الجائز أن تقضى حياتك فى الأشغال الشاقة من أجل ذلك، فألقت إلى بقطعة فطير أخرى، وصرخت فى وجهى وهى تحرق أسنانها لأنصرف عنها.

وعلى ذلك تركتها.

ها، إن أحداً لم يشهد فى حياته شيئًا من هذا من امرأة ساقطة! وبقيت طول مدة تنقلى فى السوق، آكل من الفطير، وأتحدث بصوت عال عن المرأة وقحتها. وأعيد حديثنا، وقد اعتقدت أنى كنت أدهى منها. وكنت آكل الفطير وأتكلم مع نفسى بصوت عال، بمرأى من الناس ومسمع.

واختفت قطع الفطيِر واحدة بعد الأخرى. ولم يذهب بجوعى كل ما أكلته، فلقد كان السغب قد أخذ منى مأخذه، يالله لم يغن كل هذا من جوع! وقد بلغ منى الشره حداً كدت معه أن آتى على الفطيرة الأخيرة، التى كنت من مبدأ الأمر أفكر فى الاحتفاظ بها لغلام شارع (بوجنماندا) الذى كان يلعب بقصاصات الورق، فقد تطلع إلى نافذتى ينظر إلى عندما بصق الرجل عليه، ليرى أكنت أيضًا أضحك منه؟ آه ليتنى أجده عندما أذهب إلى هناك! وبذلت كل ما فى طاقتى لأصل إلى شارع (بوجنماندا) بأسرع ما يمكن. فمررت على المكان الذى مزقت فيه روايتى إلى قطع صغيرة، وحيث لا يزال باقيًا منها على الأرض جزء كبير، ودرت حول الشرطى، الذى بهته قبل قليل بإشاراتى، وفى النهاية وقفت عند السلم الذى كان يجلس عليه الغلام.

ولم يكن هناك، وكان الشارع يكاد يكون خاليًا. وأخذ الليل يسدل أستاره، ولم أستطع العثور على أثر للغلام فى أى مكان، لقد ذهب إلى داره، فوضعت الفطيرة بحذر عند حافة الباب، ودققت الباب بشدة، وأسرعت مهرولًا، وقلت فى نفسى: سيجدها بلا شك! سيجدها عندما يخرج من الباب! وندیت عيناى من الفرح لفكرة أن الغلام سيجد الفطيرة.

ثم عدت إلى رصيف محطة سكة الحديد.

ولم أعد جائعًا بعد، ولكن الحلوى التى استسغتها سببت لى غثيانًا.

وثارت فى رأسى أفكار جنونية؛ كيف يكون الحال لو أنى قطعت حبل إحدى السفن خفية؟ أو لو صرخت فجأة "حريق"؟ وأسير إلى الرصيف فأجد صندوقًا، فآخذ مجلسى عليه، وأضم يدى، وأحس أن رأسى يزداد على الدوام اضطرابًا، فأظل ساكنًا فى مكانى، لا أقوم بأية حركة، لأستجمع قواى.

وحدقت فى السفينة الشراعية (كوبيجورو) ذات العلم الروسى، فأرى رجلًا عند حاجزها، وكانت المصابيح الحمراء تلقى من فوق مؤخرة السفينة ضوءها على مقدمتها. فأنهض من مكانى، وأجاذبه الحديث. ولم أرم بذلك إلى غاية ما، لا، ولا توقعت منه جوابًا، فصحت به:

"أمقلعة السفينة الليلة أيها الربان؟".

"نعم عن قريب". وكان يتكلم السويدية، وهو على ما أظن فنلندى.

"حسنًا، أولستم فى حاجة إلى رجل". ولم يكن يهمنى فى تلك الساعة أن يكون جوابه بالنفى أو القبول، فقد كان يستوى عندى جواب الرجل وعدمه. وبقيت أنظر إليه منتظرًا جوابه.

فأجاب: "لا، وإن كان ولابد فليكن فتى فى مقتبل الشباب".

فتى فى مقتبل الشباب! وانتفضت ورفعت نظارتى خلسة، ووضعتها فى جيبى، ثم وطأت المعبر، وسرت إلى ظهر السفينة.

فقلت له: "أنا لست ذا تجارب، ولكنى أستطيع أن أقوم بكل ما تأمرنى به. إلى أين أنتم مزمعون؟".

"نحمل حصى لدك الطرق إلى ليدز (Leeds) ومن هناك نأخذ فحمًا لقادس (Cadis)"، فقلت للرجل مُلحًا عليه: "حسنًا! يستوى عندى الجهة التى تسيرون إليها. وسأقوم بعملى خير قيام".

فبقى مدة ينظر إلى ويفكر.

وسألنى: "ألم تسافر قبل الآن؟".

"لا، ولكن كما قلت لك، مرنى بأى عمل أقم به، إنى متعود على كل شئ".

فعاد يفكر، وصممت فى تلك اللحظة على السفر معه، فقد كنت أخشى مطاردتى فوق اليابس.

وأخيراً قلت له: "وعليه، فماذا ترى أيها الربان؟ الحق أنى أستطيع القيام بكل شئ، هذا ما أقوله! وما أتعسنى من فتى إذا أنا لم أقم بما أكلف به، ولو استلزم الأمر أن أقوم بحراستين متواصلتين، واحدة بعد الأخرى، ولن يضرنى هذا، وأنى لأستطيع عليه صبراً.

فقال وقد أفتر ثغره قليلًا لكلماتى الأخيرة: "فلنجرب! وإذا تعذر الأمر افترقنا فى (لندن)".

فقلت فرحًا: "طبعًا، ثُم كررت عبارته إننا نستطيع الافتراق فى (لندن) إذا تعذر الأمر.

ثم كلفنى العمل...

وفى خارج الميناء نصبت قامتى، وكنت مبلل الجسد من الحمى والضعف، واستودعت الله المدينة، مدينة(كرستيانيا) حيث تسطع نوافذ الدور فيها بالنور.

انتهى

الفـــهـــرس

تقدمة للقراء
الفصل الأول
الفصل الثانى
الفصل الثالث
الفصل الرابع